الوثيقة مفهومها وأهميتها في الدراسات التاريخية

د. ظاهر محمد صكر الحسناوي
جامعة بغداد - العراق

المقدمة:

اختلفت الأراء في تحديد مفهوم الوثيقة وتعددت، من حيث المعنى والشكل والمضمون، وتحاول هذه الدراسة أن تحدد مفهوم الوثيقة معنىً، واصطلاحًا، كما تحاول تحديد مفهومها حسب ما ورد في بعض التشريعات الوثائقية العربية والأجنبية، وتسليط بعض الأضواء على ظهور الأرشيفات وتطورها؛ لارتباط ذلك ارتباطًا وثيقًا بالنظرة إلى الوثائق، وإدراك أهميتها.

وتركز هذه الدراسة على إبراز مفهوم الوثيقة لدى خبراء الأرشيف، مثل مايسنر رئيس أرشيف بروسيا في ألمانيا، والإيطالي يوجينو، والبريطاني هيلاري جنكسون، وميشيل كوك وهدسون، والأمريكي شلنبيرغ وغيرهم.

كما تحاول تحديد مفهوم الوثيقة في علم الدبلوماتيك وعلم التوثيق، وكذلك التمييز بين الوثيقة والمخطوطة وبين الوثيقة الشخصية، الأمر الذي سيقود حتمًا إلى الحديث عن المؤسسات الوثائقية ومهامها، والفرق بينها وبين المكتبات والمتاحف، والتمييز بين مقتنيات المؤسسات الثلاث، وكان لابد لهذه الدراسة من عطفة قصيرة على أهمية الوثيقة في الدراسات التاريخيّة، وما نظرة المؤرخين إليها؟ وكيف يتعاملون معها بوصفها مصدرًا أوليًا لكتابة التاريخ؟

لقد واجهت هذه الدراسة مشكلة أساسية تتعلق بقلة المصادر التي تبحث في هذا الموضوع، حيث لا تزال الدراسات الأرشيفيّة (الوثائقيّة) بحاجة إلى المزيد من البحوث والدراسات المتخصصة في هذا الميدان.

الوثيقة لغة واصطلاحًا:

اشتقت كلمة الوثيقة من الثقة، وهي الائتمان

على الشيء، والوثاقة هي مصدر الشيء الوثيق، وأوثقه في الوثاق؛ أي شدّه. فالوثيق هو الشيء المحكم وجمعه وثاق، ووثقت الشيء توثيقًا، فهو موثق[1]؛ أي أحكمته، ولم ترد كلمة وثيقة أو وثائق صريحة في القرآن الكريم، بل وردت اثنتا عشرة كلمة من مشتقاتها، ذكرت سبعًا وثلاثين مرة، وهي: واثقكم[2]، يوثق[3]، الوثاق[4]، وثاقه[5]، الوثقى[6]، موثقًا[7]، موثقهم[8]، ميثاق[9]، ميثاقًا[10]، ميثاقكم[11]، ميثاقه[12]، ميثاقهم[13]، وكلها تفيد معنى العهد، وبما أنّ كلمة وثيقة هي في صيغة المؤنث، ولكنها ليست اسمًا لعلم، لذلك يمكن جمعها جمع تكسير، فيقال وثيقة ووثائق مثل كبيرة وكبائر، وطريدة وطرائد.

أما المعنى الاصطلاحي للوثيقة التاريخيّة، فقد اختلفت فيه الآراء، فدوائر المعارف والموسوعات ذكرت تعريفات عامة وشاملة لها، دون التمييز بين مفهوم وآخر، فالموسوعة العربية الميسرة وصفت الوثائق بأنها مخطوطات تتألف من لفائف البردي وأدراج الرّق، أو مطبوعات تشمل الإجراءات والمراسيم والقوانين والأوامر وحسابات الأموال وغيرها، مما ينشأ عن تأدية أي عمل من أي نوع، ويرجع إليها عند الدراسة، وهي لا تقتصر على وثائق الحكومة، بل قد تكون وثائق لجمعيات، أو لأشخاص، أو لهيئات حكومية، يستخلص منها الباحثون أدلّة لموضوعات تاريخيّة أو اقتصادية، ونظرًا لأهميتها أصبحت لها (ولاية قانونية)[14]؛ لكي تكون بعيدة عن أيدي العابثين، وقد برزت أهميتها في العصر الحديث، فأنشئت لها المعاهد والأقسام في كليات الجامعات والمدارس الخاصة[15].

والحقيقة أنّ مفهوم الوثيقة واسع شامل، فكل وعاء للمعلومات، سواء كان قطعة آثارية، أو مخطوطة، أو مستندًا قانونيًّا، أو وثيقة أرشيفيّة، أو كناشة شخصية، هو وثيقة تاريخيّة، ولكن لكل منها مفهومه الخاص، وقد حاول المختصون في ميدان الوثائق والأرشيف وضع قواعد قانونية، ومفاهيم خاصّة لتمييز هذه الوثائق بعضها عن بعضها الآخر.

مفهوم الوثيقة في القوانين الوثائقية الأجنبية:

اختلفت الوثيقة التاريخيّة الأرشيفية في مفهومها العام، تبعًا لاختلاف معناها في التشريعات الوثائقيّة، فلم تظهر هذه الوثيقة في تلك التشريعات بشكل واضح ومميّز، وإنما اتصفت بالشمولية والتعميم، وربما كان ذلك مفيدًا أحيانًا لمنح الأرشيفيين، أو الوثائقيين مرونة أكثر في العمل على تغطية كل النشاطات الوثائقية. كما تمنح تلك التشريعات المؤسسة الوثائقية أو الأرشيفية سندًا قانونيًّا لممارسة أعمالها وتحقيق أهدافها. وعلى أي حال سنتناول مفهوم الوثيقة في عدد من التشريعات الأجنبية والعربية بوصفها نماذج مختارة من التشريعات الوثائقية.

لقد اهتمت الدول الغربية بموضوع الوثائق منذ وقت مبكر، فشرعت القوانين، وأصدرت اللوائح التي من شأنها المحافظة على الوثائق والاهتمام بها. ففي فرنسا أدّى قيام الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ إلى تفشي عمليات الحرق والإتلاف الموجّهة ضد وثائق العهد الملكي ووثائق الإقطاع، وكان القرار الذي صدر عام ١٧٩٢ يقضي بحرق الوثائق الخاصّة بالإقطاع والنبلاء على أن يحتفظ بما له صلة بالعلوم والفنون فقط[16]. وتلافيًا لهذا الخطأ الكبير أصدرت الحكومة الفرنسية مرسومًا في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٧٩٤، بهدف العناية بالوثائق ولإجراء تقييم شامل لها، وتمّ تشكيل لجنة لهذا الغرض، صنفت الوثائق إلى:

١- الوثائق النافعة اللازمة لمصادرة الممتلكات؛ أي الوثائق الاثباتيّة كالعقود والمستندات والمواثيق.

٢- الوثائق التاريخيّة.

٣- الوثائق الإقطاعيّة.

٤- الأوراق التافهة.

أوصت اللجنة بحفظ النوعين الأول والثاني، واستبعاد النوعين الثالث والرابع[١٧]، ويبدو أنّ إتلاف وثائق الإقطاع كان خطأ، بني على أساس الضغينة السياسية غير الموضوعية، إذ إنّ إتلاف وثائق الإقطاع ترك فراغًا وثائقيًّا في مصادر التاريخ الفرنسي، ولاسيما أنّ الإقطاع حكم فرنسا مدّة طويلة، وأنّ وثائقه التي أتلفت تمثل تاريخ فرنسا في تلك الحقبة.

وقد تنبهت فرنسا لهذا الخطأ الفادح فيما بعد، ففي ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٨٨٥ صدر مرسوم جديد نصَّ على إيداع الوثائق العامة لدى الأرشيف القومي الفرنسي، ويتكون هذا الأرشيف من خمسة أقسام، تضم وثائق سكرتارية الدولة (وزارة الخارجيّة)، وتقارير وسجلات الوثائق والمكتبات، وكذلك الوثائق التاريخيّة والسياسيّة والحربيّة والدينيّة والقانونيّة والإداريّة والأوامر الملكيّة ووثائق أملاك الحكومة ووثائق وزارة العدل، ثم الوثائق التي تعكس تصرفات الناس وطرق معيشتهم، ولم يحتو هذا المرسوم أي تحديد لأشكال الوثائق إلا بعد عام ١٨٦١، حيث ثار نزاع حاد بين المكتبة الملكيّة التي تضم بعض المجموعات الوثائقيّة، وبين الأرشيف القومي، الذي طالب بضم بعض الوثائق والخرائط المحفوظة في المكتبة الملكية إليه، فأحيل النزاع إلى لجنة خاصّة برئاسة العالم الفرنسي رافسيون Ravission، حيث شدّد في تقريره على وجوب إعادة الوثائق إلى الأرشيف القومي مقابل إعادة بعض المخطوطات الأدبيّة إلى المكتبة. وقد أدّى هذا الإجراء إلى إقرار مبدأ مهم، هو عدّ الوثائق الإداريّة من اختصاص أعمال دور الأرشيف وعدّ المخطوطات من اختصاص دور المكتبات[١٨].

ويمكن أن نستخلص من التجربة الأرشيفيّة الفرنسية درسًا في غاية الأهميّة، هو أنّ الانفعال والعواطف يجب أن تستبعد نهائيًّا في العمل الوثائقي، وأن العاملين في حقل الأرشيف والوثائق يجب أن يكونوا على قدر كبير من الحياد والموضوعية والتجرّد عندما تتصل أعمالهم بتقييم الوثائق، وهم بهذا يقدمون خدمة كبيرة للتاريخ.

وإذا انتقلنا إلى التجربة البريطانية في ميدان الأرشيف، فإننا نجد المادة (٢٠) في القانون الأساسي لدار الوثائق البريطانية Public Record Office الذي صدر في ١٤ آب/أغسطس ١٨٣٨، ونصّت على أن الوثيقة تشمل اللفائف والسجلات والأوامر القضائية والكتب وإجراءات سير العمل والمراسيم والتصاريح والإشعارات واللوائح والحسابات والوثائق[١٩]. ويقصد بهذا النوع الأخير الوثائق الحكومية ذات القيمة التاريخيّة، وقد قامت دائرة المعارف البريطانية بإيضاح هذه النقطة، فحددت الوثائق العامة بأنها وثائق ملكية يصدرها الملوك، أو أنها صدرت بالنيابة عنهم، وتشمل القوانين والدساتير والمراسيم والامتيازات والهبات والادعاءات والبراءات والوثائق الشرعية والمعاهدات. أما الوثائق الخاصة، فهي الصادرة عن أشخاص عاديين، أو عن هيئات، سواء كانت تلك الهيئات دينيّة أو علمانيّة، وتشمل في غالبيتها المواثيق

والصكوك، وهي المستمسكات أو السندات الخاصّة بالأملاك[٢٠]. ومن ذلك نستشف أن التجربة البريطانية أعطت تصورًا واضحًا لنوعيّة الوثائق العامة (الحكوميّة) والوثائق الخاصة.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد حدد القانون الصادر في ٧ تموز/ يوليه ١٩٤٣ مفهوم الوثيقة بأنها جميع الكتب والأوراق والخرائط والصور الفوتوغرافية، أو أي موارد وثائقية، بغض النظر عن شكلها أو أوصافها، على أن تكون محفوظة في إحدى الإدارات العامة، أو من النوع الذي يحتفظ به دليلاً أو بينة لاحتوائها على معلومات قد تكون دليلاً أو بينة على تنظيمات أو وظائف أو سياسات أو قرارات أو إجراءات أو عمليات أو أيّ نشاطات حكومية أخرى لقيمتها الوثائقية[٢١].

ومن الملاحظ أنّ القانون الأمريكي في تحديده مفهوم الوثيقة الأرشيفيّة التاريخيّة لم يلتزم شكلاً ماديًّا خاصًّا، فقد تكون صورة فوتوغرافية، وقد تكون كتابًا أو خريطة، ولكنه اشترط أن تكون هذه الوثيقة من نتاج إحدى الإدارات الحكومية، أو ذات علاقة بعملها، وهذا ما يسمّى بمبدأ "الولاية القانونية Legal Cutstody" الذي عُدَّ الأساس في التمييز بين الوثيقة التاريخيّة والأرشيفيّة العادية، حيث وضح القانون، بما لا لبس فيه ولا إبهام، أن أيّ وثيقة لم تعملها أو تتسلمها إدارة حكومية لا تعدّ وثيقة تاريخيّة قانونية، وعلى هذا الأساس لا تعد الوثائق والمكاتبات الخاصة وثائق تاريخيّة على وفق هذا القانون[٢٢].

ولكن مع ذلك لا نجد تطبيقًا حرفيًّا للقانون في الولايات المتحدة، فهناك مكتبات تخصصت بحفظ الوثائق الشخصيّة، ومنها مكتبات الرئاسة الأمريكية Presidential Libraries، التي اهتمت بحفظ وثائق رؤساء الولايات المتحدة وأشرطة تسجيل مكالماتهم الهاتفية، وكذلك الوثائق الخاصة بوزراء خارجيتهم كل على حدة؛ وعلى سبيل المثال هناك مكتبة الوثائق السريّة الخاصة بالرئيس هاري ترومان (١٩٤٥-١٩٥٢)، التي تحتفظ أيضًا ضمن مجموعاتها بالوثائق السريّة الخاصة بوزير خارجيته دين اتشيسون، ثم هناك مجموعة الوثائق السريّة الخاصة بالرئيس دوايت آيزنهاور، التي تشمل جميع اتصالاته الهاتفية المسجلة مع وزرائه ومستشاريه ونصوص محاضر اجتماعاته، كما توجد ضمن هذه المكتبة، التي تسمى مكتبة المخطوطات التابعة لجامعة برنستون في نيوجرسي، جميع الوثائق السريّة الخاصّة بجون فوستر دالس، وزير خارجية الرئيس آيزنهاور، وعلى الرغم من أهمية هذه الوثائق وقيمتها التاريخيّة الكبيرة إلا أنها لم تحفظ في مركز الأرشيف الوطني الأمريكي الموجود في العاصمة الأمريكية واشنطن- سوتلاندماري لاند، الذي اقتصر على حفظ وثائق الدوائر والمؤسسات الحكومية الأخرى.

ويمكن أن تفيدنا التجربة الأمريكية في ميدان الوثائق والأرشيف بأن الولاية القانونية للوثيقة لا تقتصر على الأرشيف القومي فحسب، بل يمكن أن تتمتع بها المكتبات الأخرى.

مفهوم الوثيقة في التشريعات الوثائقية العربية:

تركت هذه المدارس الثلاث بصماتها واضحة على التجارب الأرشيفيّة في الوطن العربي، فكان التأثير الفرنسي واضحًا في التجربة المصريّة وتجارب أقطار شمال أفريقيا، وكانت التجارب العربية الأخرى متأثرة بالمدرسة البريطانية،

وتتميز كل من المدرستين؛ الفرنسية والبريطانية بتشددها في إجراءات الاطلاع على الوثائق وتبادلها وتداولها ونشرها، على النقيض من التجربة الأمريكية التي تمتاز بانفتاحها وسهولة إجراءاتها، سواء في الاطلاع على الوثائق أو تبادلها أو نشرها.ولم تجد لهذه المدرسة تأثيرًا كبيرًا في الوطن العربي؛ حيث يميل أغلب الناس إلى المحافظة والتشدد والتشكك في النوايا.

لقد اهتمت القوانين الوثائقية العربية بتحديد مفهوم الوثيقة شكلاً ومضمونًا، كما قرنت ذلك بتأسيس دور الأرشيف العربية، وتعدُّ مصر من أسبق الأقطار العربية في ميدان التشريعات الوثائقية، وكان للحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١م تأثيرها الواضح في ذلك، حيث ارتبطت التوجهات الثقافية المصرية في عهد محمد علي باشا بالمؤثرات والثقافة الفرنسية، وتجسد ذلك في إرسال عدد من الطلبة المصريين للدراسة في باريس.

فقد أسس محمد علي "الدفترخانة"؛ أي دار المحفوظات، وموقعها في القلعة على جبل المقطم عام ١٨٢٩م، وصدرت لوائح بعد ذلك لتنظيم الأرشيفات والوثائق، أهمها لائحة سنة ١٨٤٦م، وبعد ثورة يوليو/تموز ١٩٥٢م صدر القانون رقم ٣٥٦ لسنة ١٩٥٤م، لتأسيس دار الوثائق القومية وتنظيمها[٢٣].

وفي تونس أمر الوزير خير الدين باشا (ت١٨٩١) بحفظ الوثائق التونسية في خزانة خاصة بها، في حين كانت في العهود السابقة لذلك التاريخ مهملة[٢٤]. أما في الجزائر، فقد صدر الأمر المرقّم ٧١-٣٦ في الثالث من حزيران/ يونيو١٩٧١م، حيث حددت المادة الثانية منه تعريف الوثائق بأنها الأوراق أو الوثائق المنتجة أو المستلمة في الإدارات والجامعات والهيئات والشركات الوطنية والمكاتب والمقالات والمؤسسات والمصالح العمومية والحزب والمنظمات الوطنية مهما كانت وأينما توجد، ومهما كانت المدة التي تنتمي إليها، وكذلك الأمر بالنسبة للأوراق والوثائق الخاصة التي صارت ملكية عموميّة بعد تأميمها أو تصييرها جماعيّة أو التبرع بها أو أهميتها أو استنساخ أصولها المعدّة لهذا الغرض، وقد تمّ توضيح معاني الوثائق الواردة في هذه المادة بملحق خاص للقانون، وحددها بأنها كل المخطوطات القديمة والحديثة وسندات الملكية وعقود توثيقيه والأوراق الإدارية المختلفة والمراسلات والدراسات والتخطيطات والإحصاءات والأبحاث والدفاتر الرسمية وأشرطة الأنباء المصوّرة والمناشير والإعلانات ووثائق جيش التحرير الوطني الجزائري ورسائل التهديد بالموت، وصور عن الحياة في الجبال في أثناء حرب التحرير، أو عن المعتقلين، أو عن كرة القدم القديمة، وبطاقات المشاركة في حزب قديم أو منظمة سياسية، وطوابع جبهة التحرير ودفاتر حسابات دائرة مسيرة ذاتيًا، أو شركة مؤممة والأشرطة الصوتية للأخبار ذات القيمة التاريخيّة، وشهادات المناضلين الذين شاركوا في الثورة، وأغان وقصائد ذات طابع تاريخي، ورسائل المعتقلين والمحكوم عليهم بالإعدام[٢٥].

يلاحظ على التشريع الوثائقي الجزائري أنه نظر إلى الوثيقة على أساس مصادرها ومضمونها، ولكن من الواضح أنّ هذه الوثائق التي حددها القانون ذات صفة تجميعيّة هدفها الأول جمع وثائق القطر الجزائري مهما كان شكلها أو نوعها أو محتواها، وهذا يرجع بالتأكيد إلى أنّ دائرة

الوثائق الجزائرية حديثة النشأة، فلا بد لها من أن تحصل على موادها الوثائقيّة الأساسية قبل أن تطويها يد النسيان، لتكون نواة لبناء الأرشيف الوطني الجزائري، لذلك لم يشترط القانون أن تكون هذه الوثائق على شكل مجموعات أو وحدات أرشيفيّة مترابطة متكاملة، فمثلاً صورة كرة القدم لا تشكل بأي حال من الأحوال وحدة أرشيفيّة مترابطة بقدر ما تعني كونها وثيقة منفردة تتضمن معلومة تاريخيّة عن كرة القدم.

أما في ليبيا، فقد كانت التجربة الوثائقية فيها انعكاسًا للتأثير الإيطالي في هذا الميدان، فقد أقدم الإيطاليون عام ١٩١١م على إتلاف الكثير من الوثائق الخاصة بولاية طرابلس، حيث قاموا برمي كميات كبيرة منها في البحر بعد احتلالهم ((للسراي الحمراء))، وكانت تلك الوثائق تخص حقبة العهد العثماني الأولى (١٥٥٥-١٧١١)، كما أتلفوا كميات أخرى من وثائق العهد القرمانلي (١٧١١-١٨٣٥م)، وقد نجت وثائق العهد العثماني (١٨٣٥-١٩١١م) من الإتلاف بعد أن سبقهم إليها مستشرق إيطالي يدعى (اوفيير قرمبيني)، الذي أقنع السلطات الإيطالية المحتلة بإيقاف عمليات الإتلاف تلك، وقامت بجمع ما تبقى من الوثائق في أحد المخازن بالقلعة، وفي عام ١٩٢٨م أصدرت تلك السلطات قرارًا برقم ٦٠٧٦، نشر في العدد ٢٦لسنة ١٩٢٨م في الجريدة الرسمية الإيطالية، يقضي بإنشاء دار للوثائق[٢٦].

وفي عام ١٩٥٢ أي بعد الاستقلال مباشرة، تمّ تغيير اسم دار الوثائق إلى دار المحفوظات التاريخيّة، ويبدو أنّ القانون الجديد جاء انعكاسًا للتجربة المصرية، حيث كان أغلب الخبراء القانونيين في ليبيا خلال تلك المدة من المصريين، لاسيما أنّ كلمة (محفوظات) متداولة في مصر للدلالة على الوثائق التاريخيّة أكثر من بقية الأقطار العربية. وقد احتوت دار المحفوظات الليبية على سجلات المحاكم الشرعية والبداءة والاستئناف والتجارة والمحاكم القنصلية ومحاكم الربّى[٢٧] الخاصة بالطائفة اليهودية، كما تضم مجموعة من الفرمانات السلطانية والأوامر الصادرة من الولاة خلال مدة العهد العثماني الثاني، إضافة إلى وثائق مجالس الولاية ومحاضر جلسات الولاية المالية وسجلاتها، وبعض الوثائق السياسية والدبلوماسية والعسكرية، التي تعود إلى حكم العهد القرماني، ومجموعات من وثائق الطابو وعهد الإدارة البريطانية والاستعمار الإيطالي، وأعداد من الصحف المحليّة[٢٨]، كما توجد مجموعات أخرى من الوثائق الليبية في المكتبة المركزية لجامعة قار يونس في بنغازي، ومركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخيّة. وقد تم تجميع هذه الوثائق بطرق مختلفة سواء عن طريق الشراء أو التصوير من داخل ليبيا وخارجها[٢٩].

وعلى الرغم من أنّ تعدد مراكز حفظ الوثائق قد يؤدي إلى إضعاف الولاية القانونية ويخلق تقاطعات في العمل مع دار المحفوظات، إلاّ أنه لا يخلو من فائدة في حال غياب الأثر الفعال لدار المحفوظات في فرض ولايتها القانونية وقيامها بمهامها على أكمل وجه.

ومن الملاحظ أنّ ليبيا لا تزال بحاجة إلى التشريعات الوثائقية المتطورة والفعالة، وعلى الرغم من أننا اطلعنا على اللائحة العامة لتنظيم دار المحفوظات، المؤرخة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٢، إلا أنّ هذه اللائحة لا تصلح أن تكون قانونًا عامًّا لدار الوثائق العامة، بقدر ما تصلح أن تكون دليلاً داخليًّا للعمل، وذلك لكثرة ما فيها من ثغرات، وبسبب فقدان الولاية القانونية

حدثت أعمال تسرب واسعة للوثائق، وأخطرها تلك التي تسربت إلى خارج ليبيا، فقد نشرت جريدة الشمس الليبية في ١٧ آذار/ مارس١٩٨٨، على صفحتها الأخيرة تحت عنوان (الوثائق المنهوبة) قائلة: "إنّ محفوظات وثائق المدرسة اليهودية بطرابلس، التي تغطي المدة من ١٨١٠-١٩٦٠م، قد تم تهريبها إلى خارج البلاد بعد أن لاحظت الجالية اليهودية تغلغل الفكر القومي بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فأودعت تلك الوثائق بالسفارة الفرنسية بطرابلس، وقامت الأخيرة بنقلها إلى فرنسا سنة ١٩٦٢، وتم حفظها بمدينة نانت الفرنسية، حيث أصبحت مرجعًا للباحثين في تاريخ اليهود في ليبيا، كما تم تصويرها من قبل المعهد الثقافي ليهود ليبيا، ومقرّه في تل أبيب بفلسطين المحتلة، وطالبت الصحيفة من الجهات المعنية العمل على استعادتها[٣٠].

أما تأثيرات المدرسة الوثائقية البريطانية، فنجدها واضحة في السودان، وأقطار المشرق العربي عمومًا، فقد صدر قانون تأسيس دار الوثائق القومية في السودان عام ١٩٥٣، بعد الاستقلال مباشرة، ثم صدر قانون سنة ١٩٦٥م، ثمّ لائحة سنة ١٩٦٦ لتنظيم الشؤون الخاصة بدار الوثائق القومية[٣١]، وحدد القانون الجديد لدار الوثائق الذي صدر عام ١٩٨١م مفهوم الوثيقة تحديدًا دقيقًا على وفق المادة الثالثة منه، التي نصّت على أنّ الوثيقة هي: "أي ورقة مكتوبة أو كتاب أو صورة شمسية أو فلم سينمائي، أو مايكروفلم، أو تسجيل صوتي، أو رسم، أو خريطة، أو أي مادة تسجل نشاطًا، أو معلومات، أو صورة، على أن تكون:-

أولاً: قد أعدّت في أثناء أي عمل من أعمال الدولة.

ثانيًا: قد وردت لأي وحدة إدارية، ودخلت ضمن إجراءاتها.

ثالثًا: توضح عملاً من أعمال أي وحدة إدارية.

رابعًا: قد احتفظت بها أي وحدة من أصل محتوياتها.

خامسًا: قد سجلت ضمن محتويات الوحدة الإداريّة.

سادسًا: قد قرر الأمين العام لدار الوثائق أنها ذات طابع قومي[٣٢].

أما في سوريا فقد تأسست دار الوثائق التاريخيّة بدمشق بموجب قانون صدر عام ١٩٥٩م، وهو قانون وزارة الثقافة والإرشاد، ثم ألحقت المديرية المذكورة بالمديرية العامة للآثار والمتاحف[٣٣]. وهذا يعني أنّ القانون السوري لم يأخذ بالمبدأ الفرنسي الذي يدعو إلى الفصل بين الوثائق وموجودات المتاحف والمخطوطات والمكتبات.

أما في المملكة العربية السعودية، فقد أنشئت دارة الملك عبد العزيز عام ١٩٧٢، وهي هيئة مستقلة، تولى إدارتها مجلس برئاسة وزير المعارف، وتعنى بجمع الوثائق وحفظها[٣٤].

وتعدّ التجربة العراقية غنيّة في ميدان العمل الوثائقي، ويمكن القول إنّ التشريعات الوثائقيّة في العراق مرّت بثلاث مراحل هي:

١- مرحلة الإتلاف: وهي المرحلة الواقعة بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٦٣، حيث أدى تكدس الوثائق الرسمية في أرشيفات الدوائر والمؤسسات الحكومية إلى إصدار قانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٤٢، القاضي بإتلاف الأوراق الرسمية كافة، ولم يستثن منها إلا الوثائق ذات الصفة التاريخيّة، ولم يحدد أنواعها أو شكلها، بل

ترك ذلك إلى تقرير العاملين في أرشيفات الدوائر الرسمية، وقد أدّى ذلك إلى إتلاف كميات هائلة من الوثائق.

٢- مرحلة الحفظ والإتلاف المزدوج: وتبدأ في سنة ١٩٦٣-١٩٨٣م، وقد تميّزت هذه المرحلة بصدور القانون رقم ١٤٢ لسنة ١٩٦٣م الخاص بتأسيس المركز الوطني للوثائق، الذي ألحق في أول تأسيسه بجامعة بغداد، ثم نقل إلى وزارة الثقافة والإعلام فيما بعد، وكان يهدف إلى الحفاظ على الوثائق ذات الصفة التاريخيّة، وبسبب التقاطع الذي حدث بين هذا القانون والقانون رقم (٣٣ لسنة ١٩٤٢م) تم إلغاء القانون الأخير وإحلال قانون جديد لاتلاف الأوراق الرسمية محله برقم ١٤١ لسنة ١٩٧٢م، وقد استثنى هذا القانون الوثائق ذات الصفة التاريخيّة في الإتلاف، وأوصى بإيداعها لدى المركز الوطني، وكذلك الوثائق التي تثبت حقوق الملكية والأحوال الشخصية[٣٥].

٣- مرحلة توحيد القوانين الوثائقية: وتمثلت هذه المرحلة بصدور القانون رقم ٧٠ لسنة ١٩٨٣ بديلاً عن قانون المركز الوطني للوثائق وقانون إتلاف الأوراق الرسمية، وقد سمي هذا القانون بقانون الحفاظ على الوثائق. أعطى هذا القانون تصورًا شاملاً لمفهوم الوثيقة، ففي الوقت الذي حددت فيه المادة الثامنة من قانون المركز الوطني رقم ١٤٢ الملغى مفهوم الوثيقة التاريخيّة بأنها تمثل كل الاتفاقيات والمعاهدات السياسية والاقتصادية والثقافية والتجارية والفنيّة وغيرها مع المراسلات كافة، التي سبق إبرامها، وكذلك القوانين والأنظمة والتعليمات والقرارات الرسمية والمراسلات المتعلقة بها كافة، فإنّ القانون رقم ٧٠ لسنة ١٩٨٣ قد عرّف الوثيقة حسب المادة الثامنة منه أنها: "المراسلات والسجلات والمحررات الرسمية والمستندات وكل وعاء لحفظ المعلومات التي يتم تثبيتها بالحرف أو الرقم أو الصورة أو الرسم أو التخطيط، سواء كان على شكل ورقة أو صورة أو خريطة أو فلم أو شرائح فلمية (سلايدات)، أو ختم أو شريط ممغنط، أو أي وعاء آخر، كما نصّت المادة الأولى منه على وجوب الحفاظ على الوثائق أو الوحدات الوثائقية، التي تعبر عن القيم والممارسات والتراث والحقوق والممتلكات الماديّة والمعنويّة للدولة والمجتمع، وبخاصة ما يتعلق منها بعمل المجلس الوطني ومجلس الوزراء والوزارات ودوائر الدولة الأخرى في القطاعين الاشتراكي والمختلط.

كما نصّت هذه المادة أيضًا في إحدى فقراتها على وجوب إيداع أصول الوثائق لدى المركز الوطني للوثائق إذا كانت ذات أهمية تاريخيّة أو تراثية أو علمية أو فنيّة بتقدير الدائرة التي تعود إليها تلك الوثائق، واستثنت من ذلك الوثائق الأمنيّة والعسكرية والسياسيّة حسب تقدير الجهة العائدة لها، وقد صنفت المادة الرابعة منه الوثائق بشكل عام إلى ثلاثة أصناف هي:-

١- الوثائق الفنيّة: - وهي التي تعبر عن النشاط النوعي للدوائر.

٢- الوثائق المادية: - وهي التي تنظم الأمور الماليّة وتعبر عنها.

٣- الوثائق الإداريّة: وهي التي تنظم النشاط الإداري وتعبر عنه[٣٦].

الوثيقة مفهومها وأهميتها في الدراسات التاريخية

ويظهر من ذلك أن قانون المركز الوطني للوثائق الملغى حدد مفهوم الوثيقة التاريخيّ حسب موضوعها أو مضمونها، في حين حدد قانون الحفاظ على الوثائق رقم ٧٠ مفهوم الوثيقة حسب شكلها، ثم صنفها موضوعيًّا حسب مضامينها إلى ثلاثة أصناف فنيّة ومالية وإداريّة، وبالمقابلة بين هذا القانون والقوانين السابقة نجد أنّ مفهوم الوثيقة قد تطور كثيرًا عمّا كان عليه في تلك القوانين، ولم يأت هذا إلا من خلال سياق التطور العام للمجتمع، وتعمق الوعي الوثائقي، وتطور المفاهيم النظريّة والقواعد الماديّة للعمل الأرشيفي الوثائقي.

ومن خلال هذا العرض يمكن القول: إنّ التشريعات الوثائقية العربية قد وضعت تصورًا شاملاً لمعنى الوثائق التاريخيّة ومفهومها من خلال الجمع بين أشكال هذه الوثائق وبين مضامينها ومحتوياتها وطرق إنتاجها ومصادرها وولايتها القانونية.

مفهوم الوثيقة لدى خبراء الأرشيف:

اختلف مفهوم الوثيقة لدى خبراء الأرشيف، كل حسب اجتهاده، فقد عرف الوثائقي الألماني مولر الوثيقة بأنها: "كل ما هو مكتوب أو مرسوم أو مطبوع، والذي يصدر أو يستلم من أي دائرة أو مؤسسة رسمية، والذي تقرر الاحتفاظ به لأهميته وفائدته لتلك الدائرة"(٣٧). ويبدو من هذا التعريف أن مولر استثنى الوثائق الشخصية أو الوثائق النادرة، واقتصر على الوثائق الأرشيفيّة فقط في تحديده لمفهوم الوثيقة، أما الوثائقي الألماني اودلف برينكة، فقد عرف الوثيقة بأنها كل الأوراق التي وجدت أو تجمعت خلال الأعمال القانونية الرسمية للمؤسسات الحكومية، أو تقرر حفظها بصورة دائمة في مكان معيّن كمصدر إثبات للماضي"(٣٨)، ويبدو أن برينكة متفق مع مولر في فهمه للوثيقة، حيث استبعد أيضًا الوثائق الشخصية، أو وثائق الهيئات غير الحكومية.

ومع ذلك اهتمت ألمانيا بشكل خاص بالوثائق القديمة، حيث أوصى ما يسنر Meissner رئيس أرشيف بروسيا بضرورة احترام هذا النوع من الوثائق بوصفها وثائق نادرة، كما أوصى مايسنر باستبعاد الوثائق التي تعمل بشكل مؤقت تفقد أهميتها بعد ذلك، وأوصى أيضًا بحفظ الوثائق التي تحمل معلومات عن أصل المؤسسات وتطورها، وكذلك الوثائق الخاصة بالممتلكات الحكومية وغير الحكومية، التي تثبت حقوق الملكية للدولة أو للأفراد(٣٩). كما كتب أحد الوثائقيين الألمان مبينًا ضرورة الاهتمام بحفظ الوثائق التي تتعلق بالنظم والقيادة وإدارة الأعمال والموظفين والوثائق الخاصة بإدارة الوحدات الإدارية ونشاطاتها، وتعكس تطورات الأحداث التاريخيّة والقضايا القديمة والعادات والتقاليد المتبعة في الماضي، وكذلك التي تشمل القضايا السياسيّة(٤٠).

ويظهر من آراء خبراء الأرشيف الألمان أن المدرسة الأرشيفية الألمانية كانت أكثر اهتمامًا بالوثائق وإدارتها وتصنيفها وحفظها، وقد أثر ذلك في اتجاهات كتابة التاريخ في ألمانيا التي ركزت على أهمية الوثيقة في هذا المجال.

أما الوثائقي الإيطالي "يوجينو" فقد حدد الوثائق الأرشيفية بأنها "التجميع المنظم للوثائق الناتجة عن فعاليات الدوائر أو المؤسسات أو الأشخاص، التي تقرر حفظها لأهميتها السياسية والقانونية أو الشرعية لتلك الدوائر أو الأشخاص"(٤١). هكذا نرى أن يو جينو عدّ الوثائق

الخاصة بالأفراد جزءًا من الوثائق الأرشيفيّة.

ويرى الوثائقي البريطاني هيلاري جنكسون Hilary Jenkison الوثيقة الأرشيفية أنها الأوراق المستعملة للمعاملات التنفيذية والإدراية وتحفظ لأهميتها، ويضيف جنكسون أنّ الوثيقة الأرشيفيّة هي التي تنشأ في أثناء تأدية عمل من أي نوع، وكانت جزءًا من العمل نفسه، لذلك حفظت لدى الأشخاص المسؤولين عن تصريف هذه الأعمال بهدف الرجوع إليها، وهي لا تقتصر على الأعمال الحكومية، بل قد تكون وثائق لجمعيات أو أشخاص أو هيئات غير حكومية، كما يرى جنكسون أن الوثائق تتجمع بشكل طبيعي في أثناء أي عمل من الأعمال، فهي أدلّة ماديّة للعمل نفسه، وهي جزء من هذه الأعمال[٤٢].

ثم يحدد جنكسون أشكال هذه الوثائق قائلاً إنها تشمل "لفائف البردي وأدراج الرق والأقلام والأختام وكل ما يحمل خبرًا أو أثرًا، ثم يحلل طبيعة الوثائق الأرشيفيّة فيؤكد أنها تنتج بطريقة طبيعية، وهناك علاقة تربط بين أجزائها، وأن تلك العلاقة هي جوهر أهميتها، فوثيقة بمفردها لا تدل على شيء كما تدل هي مع أخواتها وما سبقها وما لحقها من وثائق، كما أنّ هذه العلاقة هي التي تحدد القيمة العلمية لها، فالوثائق التي تعرض للبيع أو تقتنيها المكتبات والمتاحف تفتقر إلى هذه الرابطة التي هي من أهم عناصر الأصالة فيها[٤٣].

ومن جهة أخرى حدد جنكنسون (الولاية القانونية) بأنها العنصر الأساس والحد الفاصل بين أيّ وثيقة عادية وبين الوثيقة الأرشيفيّة التاريخيّة، ويعني جنكنسون بالولاية القانونية سلطة الحفظ المتمثلة بمكان الحفظ والجهة الرسمية القائمة به أو المشرفة عليه، فالوثيقة الأرشيفيّة المعتمدة في رأيه يجب أن تحفظ في مكان حدده القانون، وإلا فقدت عنصرًا مهمًّا ومشخصًا لها، وهو الولاية القانونية[٤٤].

وتعني الولاية القانونية الإشراف الحكومي الرسمي من قبل جهة رسمية مكلفة بحفظ هذه الوثائق وصيانتها وتقديمها إلى الباحثين، إذا فقدت الوثيقة هذه الولاية فقدت قيمتها التاريخيّة والإعلاميّة، فما دامت الوثائق محفوظة في حوزة أشخاص، وليس لدى مؤسسات رسمية معترف بها قانونًا، فإنها تصبح أقل قيمة من غيرها، وذلك لتوافر إمكانات تعرضها للفساد أو الإفساد أو التزوير أو التحريف على النقيض من الوثائق المحفوظة لدى المؤسسات الحكومية المسؤولة عنها كدور الوثائق أو المكتبات أو مراكز التوثيق والأرشيف، وهكذا يعدّ تمييز الوثيقة الأرشيفيّة التاريخيّة عن غيرها معيار صدقها الذي اكتسبته من خلال شمولها بالولاية القانونية[٤٥].

ويمكن أن نستشهد بمثل واحد يبيّن مدى الخطورة التي يمكن أن تتعرض لها الوثائق والمخطوطات في حال فقدانها الولاية القانونية، وذلك ما حدث لوثائق المؤرخ الليبي إسماعيل كمالي ومخطوطاته، فبعد وفاته مباشرة قامت أسرته بوضع المخطوطات والوثائق التي كانت ضمن موجودات مكتبته الخاصة في أكياس وحملتها إلى أقرب فران، فضاع جزء من التراث الليبي بسبب هذا التصرف[٤٦].

ويمكن أن نستخلص من أراء جنكسون الملاحظات الآتية:

١- أن الوثيقة الأرشيفيّة هي التي تنتج عن النشاط اليومي للأجهزة الإدارية الحكومية أو غير الحكومية.

٢- أن هذه الوثائق أدلّة ماديّة للعمل نفسه، وهي جزء من هذا العمل.

٣- أن هذه الوثائق ترتبط بعلاقة جوهرية فيما بينها، وأنها ليست بذات القيمة من دون هذه العلاقة.

٤- أن الولاية القانونية هي الحد الفاصل بين الوثيقة الأرشيفيّة والوثيقة العادية.

ولكن مما يؤخذ على جنكسون أنه وقع في التناقض والتعميم في آن واحد، وهو الخطأ نفسه الذي سار عليه غيره من الوثائقيين الذين نقلوا عنه دون نقد أو تحليل، فقد عدَّ جنكسون لفائف البردي وأدراج الرق شكلاً من أشكال الوثائق، فهل كانت هذه ناتجة عن تصريف الأعمال اليومية، أو أنّها تجمّعت بشكل طبيعي؟ وهل توجد بينها علاقة ما تربط بين أجزائها كما هي الحال في المجموعات الأرشيفيّة؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة بالاستناد إلى مفاهيم جنكسون للوثيقة الأرشيفية لا ينطبق عليها؛ إذ إنّ هذه الأشكال من الوثائق تدخل في حقل الآثار. ولم تنشأ بشكل طبيعي نتيجة لتصريف الأعمال اليومية، وليس هناك أي علاقة بين أجزائها، فالبرديات والرقوق آثار جمعت من هنا وهناك لقيمتها الأثرية، وليس بين أجزائها أيّ رابطة على الرغم من قيمتها التاريخيّة الكبيرة.

وقد حاول الوثائقي البريطاني ميشيل كوك Michel Cook في بحثه (نحو مصطلحات فنيّة موحدة)، الذي نشرت ترجمته في مجلة الوثائق العربية، التمييز بين ثلاثة مصطلحات فنيّة تتعلق بمفهوم الوثيقة، وهي السجل أو السجلات Record(s) والأرشيف (s) Archive والوثيقة Document، فيقول: إنّ عملية إدارة الوثائق بأكملها يجب أن تهدف في المقام الأول إلى غاية واحدة، وهي التحديد والتعريف الدقيق للوثائق المراد الاقتباس منها، أو الإحالة إليها في موضوع ما، فالوثيقة التي لا يمكن تحديدها فورا في إطار دلالتها الأرشيفيّة تعدُّ غير مفيدة[٤٧]، وفي تفسيره لكلمة سجل أو سجلات، يقول إنها حصيلة نشاط أي منظمة أو مؤسسة، وقد يشتمل سجل الأعمال، هذا أو هذه السجلات، على مادة تعبر عن العلاقات العامة التي تكون بشكل مواد سمعية أو بصرية Audio Visual-؛ أي إنها قد تكون في شكل شرائط ممغنطة أو أفلام أو مواد أخرى، وهذا يعني أن كلمة سجل يقصد بها، حسب مفهوم كوك، الوثيقة أو مجموعة الملفات التي تحتوي على معلومات عن الأعمال اليومية للإدارة بغض النظر عن أشكالها الخارجية.

لقد حدد كوك تعريفًا مختصرًا أو مبسطًا لكلمة سجلات، مشيرًا إلى أنها أوراق أو أشكال أخرى للمعلومات المسجلة، تتجمع في أثناء العمل المتصل لأيّ منظمة، أو تحفظ للرجوع إليها كمصدر يساعد في إدارة ذلك العمل[٤٨]، ولكن كوك لا يشجع على استخدام هذا المصطلح للدلالة على الوثائق الأرشيفيّة مبينًا أسباب الاستعمال الخاطئ لهذه الكلمة في تسمية دائرة السجلات العامة Puplic Record office مؤكدًا أنّ هذه التسمية غير صحيحة من الناحية اللغوية. إلا أنّ الاستمرار عليها جاء بسبب قدمها، حيث ترجع هذه التسمية إلى عام ١٨٣٨؛ أي قبل أن تتطور مصطلحات الإدارة الوثائقية، وأنّ بريطانيا كما عرف عنها غير ميالة للتغيير، وتسعى للمحافظة على عاداتها وتقاليدها كما هي[٤٩].

وأكد كوك أنّ كلمة وثيقة ترمز إلى شيء مفرد؛ أي يمكن عَدُّها وثيقة واحدة، وليست مجموعة

وثائق، كما هي الحال في مصطلح الأرشيف، كما تستخدم هذه الكلمة لتدل على المادة التي تحمل معلومات صحيحة لا يتطرق إليها الشك، وهي بذلك تكون أداة من أدوات الإثبات، وفي رأيه أن كلمة أرشيف Archive هي أكثر دلالة على الوثائق التاريخيّة[٥٠].

أما الوثائقي هدسون Hodson، فقد توصل إلى عدّة مميزات يمكن اعتمادها للتفريق بين مجموعة الوثائق الأرشيفيّة والوثائق العاديّة، وهي:-

١- أنّ المجموعة الأرشيفيّة تعدّ جزءا من الإدارة التي أنتجتها، وفحواها حقائق عن مناشط تلك الإدارة، وبذلك تتوافر لها ميّزة عدم التحيّز Impartiality.

٢- تكتسب المجموعة الأرشيفية أهميتها في عملية الحفظ، وهذا ما يفرّق بين المجموعة الأرشيفيّة ومجموعة الوثائق التي تجمع بطريقة صناعية أو بطريقة غير طبيعية. وعملية الحفظ هذه تعطي المجموعة الأرشيفيّة صفة قانونية، ويشار إليها بالولاية القانونية، وعنصر الحفظ ركن مهم في تحديد الوثيقة الأرشيفيّة التاريخية، ويجب أن يكون هذا الحفظ في مكان يحدده القانون، وإلا فقدت ركنًا مهمًّا ومشخصًا[٥١]، إنّ هذه الولاية يجب أن تكون مستمرة دون انقطاع؛ لمنح الوثائق الأرشيفيّة حماية دائمة من أيدي العابثين.

٣- تتجمع الوثائق التاريخيّة الأرشيفيّة بطريقة طبيعيّة، بمعنى أنّ المجموعة وثائق نتجت عن أداء عمل ما، ولم تجمع بطريقة صناعية كما هي الحال بالنسبة إلى محفوظات المتحف، وكتب المكتبات، ومواد التوثيق.

٤- أنّ هذا التجمع الطبيعي للوثائق الأرشيفية تنتج عنه علاقات طبيعية بين أجزاء المجموعة، تلك العلاقة ذات أهميّة جوهريّة، فهي التي تحدد القيمة العلميّة لها، ويجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ الباحثين يستخلصون من هذه الوثائق أدلّة لموضوعات لم تخطر ببال منشئها[٥٢].

٥- أنّ تكوين الوثائق ونشوءها بطريقة طبيعيّة يكسبها نوعًا من التماسك والترابط والتسلسل التاريخي في إطار المجموعة الأرشيفيّة، وتتوقف أهمية الوثيقة على هذا التكامل والاتصال، فقيمة الوثائق بمجموعها والوثيقة بمفردها قد لا تعني شيئًا بالنسبة للباحث.

ويذكر الوثائقي السوداني الأستاذ محمد محجوب مالك في بحثه المخصص للإدارة الأرشيفيّة الحديثة أنّ علماء الأرشيف قد اختلفوا في تحديد درجات الأهميّة بالنسبة إلى هذه العوامل التي أوردها هدسون، عندما تناول موضوع الإدارة الأرشيفيّة؛ إذ يرى بعضهم أنّ مبدأ عدم التحيّز هو الذي يفرق الوثائق الأرشيفيّة عن غيرها من المخطوطات، فكلاهما يتمتع بصفة الأصالة، وهذا ما يدعو إلى الخلط، وبخاصة بين أمناء المكتبات والأرشيفيين، وعلى الرغم من أنّ الفرق بين الوثائق الأرشيفيّة والمخطوطات واضح، إلا أنّ المجموعة الأرشيفيّة لا تعني المنجزات في حد ذاتها، بل تشمل الخطوات والعمليات والإجراءات التي تم بها الإنجاز. وهي نتاج أو حصيلة عمل، إذًا هي أدلّة لهذا العمل، وهي جزء من الإدارة التي أنتجتها، على شرط أن يفهم الباحث قيمتها الإدارية، فلا يتوقع من هذه الوثائق سوى الحقيقة، كما أنّ الوثائق تتابع جهود أفراد مختلفين، لذا فهي بمنزلة مواد خام كالحقائق والمعلومات، تجمعت

الوثيقة مفهومها وأهميتها في الدراسات التاريخية

بطريقة طبيعية على مدى الزمن، وليست كالحقائق والمعلومات التي ترد في الكتب بطريقة إرادية، وتكون عرضة للتحريف البشري والتزوير، ويرى آخرون أنّ الوثائق نفسها من صنع البشر، ولا يمكن أن تنفرد بميزة الصدق المطلقة[٥٣].

ومن جهة أخرى أكّد هدسون أنّ عملية الحفظ هي التي تعطي المجموعة الأرشيفيّة صفة قانونية، وأنّ الولاية القانونية يجب أن تكون مستمرة بلا انقطاع؛ لتمنح الوثائق حماية دائمة، وهكذا الولاية القانونية هي (سلطة الحفظ) الممثلة بمكان الحفظ والجهة الرسمية القائمة أو المشرفة عليه، كما أشار بعض الباحثين إلى أنّ بعض الوثائق تستمد حجيتها القانونية من وجودها في مكان معين كالشهر العقاري (التسجيل العقاري) مثلاً[٥٤]، وبمعنى آخر، أنّ الوثيقة التي تنقل من أرشيف الدائرة المنتجة لها إلى الأرشيف الوطني أو دار الوثائق العامة لا تفقد قوتها القانونية كمستند للاثبات بعد هذا الترحيل، بل تبقى هذه القيمة القانونية مستمرة معها طوال مدة الاحتفاظ بها ما دامت قد نقلت إلى مكان قد نصَّ عليه القانون، وتشرف عليها سلطة قانونية أيضًا، وعلى أي حال يجب أن تحفظ الوثيقة الأرشيفيّة التاريخيّة المعتمدة في مكان حدده القانون، وتحت إشراف جهة شرعيّة، وإلا فقدت عنصرًا مهمًّا ومشخصا لها، وهو الولاية القانونية.

ومن خبراء الأرشيف الذين حاولوا الإسهام في وضع قواعد عامّة لمفهوم الوثيقة الأرشيفيّة التاريخيّة الخبير الأمريكي شيلنبيرغ Shellenberg، حيث عدَّ كلمة سجلات Records شاملة لأنواع الوثائق كافة، فيقول: إنها الكتب والأوراق والخرائط والصور الفوتوغرافية، وأيّ مواد وثائقية أخرى بغض النظر عن شكلها العضوي أو خواصها، التي تخلق وتستلم بوساطة مؤسسة عامة أو خاصة خلال تأديتها لالتزاماتها القانونية أو لإجراءاتها العملية، وتحفظ أو تعد مناسبة للحفظ بوساطة هذه المؤسسة، كسجل لخططها وأعمالها وقراراتها، أو أي نشاطات أخرى، أو تحفظ بسبب قيمة المعلومات التي تضمنتها، وأشار شيلنبيرغ أيضًا إلى أنّ الوثائق والمحفوظات هي جميع الأوراق والسجلات الرسمية الصادرة عن المؤسسات والدوائر والمصالح والشركات والجمعيات الحكومية والأهلية إضافة إلى كل ما يخص تاريخ العائلات والشخصيات البارزة وأنسابها التي تقدم في حفظها فائدة في توفير المصادر الأولية والأدلّة والشواهد على تاريخ البلاد وأصول شعبها[٥٥].

ويمكن أن نشير هنا إلى أنّ شيلنبيرغ قد حدّد مفهوم الأرشيف بأنه "عبارة عن تلك السجلات، وبخاصة التي عُدّت صالحة للحفظ الدائم كمرجع أو لأغراض البحث، والتي تقرر إيداعها، أو اختيرت للإيداع في مؤسسة وثائقية[٥٦]".

وعلى أي حال يمكن أن نستنتج من آراء شيلنبرغ ما يأتي:-

١- أن السجلات والوثائق من الممكن أن تكون على أشكال مختلفة، ولا تحدد بصفة أو مدلول ثابت.

٢- أن هذه السجلات يجب أن تكون ناتجة عن تأدية إجراءات العمل اليومي للمؤسسات، أو أنها مستلمة من قبلها وتكون جزءًا من نشاطها.

٣- أن هذه السجلات هي الدليل أو الإثبات على النشاطات والإجراءات والأعمال والقرارات الخاصة بتلك المؤسسة.

٤- أن هذه السجلات يجب أن لا تحفظ إلا بعد إجراء عمليّة التقويم "الفرز والاستبعاد" عليها بدقّة للوقوف على مدى أهمية المعلومات التي تتضمنها.

٥- أن هذه السجلات يجب أن تكون ذات صفة رسميّة؛ أي إنها تنتج وتحفظ وتسلم في أثناء العمل الرسمي اليومي.

ومن هذا العرض لآراء خبراء الأرشيف، يمكن أن نجمل رؤيتهم للوثيقة التاريخيّة الأرشيفيّة بما يأتي:-

من حيث الشكل يمكن عدّ كل وعاء يحمل معلومات مهمَّة ومفيدة، سواء كان ختمًا أو ورقة أو مطبوعًا أو شريطًا مسموعًا، وثيقة تاريخيّة، ومن حيث المضمون يجب أن تكون لها أهميّة سياسيّة أو اقتصاديّة أو عسكريّة أو إدراية أو ماليّة أو قانونيّة أو فنيّة أو أدبيّة أو اجتماعيّة، ولكن يجب أن تتوافر فيها مجموعة من الشروط مثل صدورها عن جهة رسمية، وكونها مصدرًا لإثبات الماضي، وأن تكون قد نشأت في أثناء تأديّة العمل اليومي وبشكل طبيعي، وهي ترتبط بعلاقة مع مجموعتها، وهذه العلاقات المنطقية هي جوهر أهميتها، كما يجب أن تتمتع بالولاية القانونية التي يجب أن تكون مستمرة، وتمتاز بالحياد، وعدم التحيّز، ويجب أن تخضع لعملية الفرز والتقويم قبل أن تحفظ في دار الوثائق بشكل دائم كمرجع لأغراض البحث العلمي.

مفهوم الوثيقة في علم الدبلوماتيك:

هناك بعض الوثائقيين الذين حاولوا تمييز الوثيقة المفيدة عن الوثيقة العادية، فأطلقوا عليها اسم (الوثيقة الدبلوماتية) وعرفوها بأنها (الوثيقة العامة المتعلقة بأعمال جهاز إداري رسمي أو غير رسمي، وحكومي أو غير حكومي، أو فرد أو جمعية، التي انتهى العمل بها، بحيث يمكن الرجوع إليها مستقبلاً عند الحاجة، وتحفظ بطرق خاصة لغرض صيانتها والمحافظة عليها، ولها قيمة تاريخيّة وأهمية قانونية ومالية وإدارية"[٥٧].

والواقع أنّ هذا التعريف هو تعريف الوثيقة الأرشيفيّة، فهل الوثيقة الدبلوماتية هي نفسها الوثيقة الأرشيفيّة؟ ولكي نجيب عن ذلك لا بد لنا من أن نقف أولاً على معنى الدبلوماتيك وتطوره.

جاء في القاموس السياسي أن كلمة الدبلوماتيك أو الدبلوماسية تعني من جملة ما تعنيه منذ العهد الروماني مهمَّة حفظ الوثائق التي تتضمن الاتفاقات الخارجية، وكانت تلك الوثيقة تعرف باسم (الدبلوما)، وعرف القائم عليها باسم الدبلومات (الدبلوماسي)، أما اليوم فقد تغير معناها، وقد أصبحت تعني علم ممارسة التمثيل الخارجي وفنه بوساطة هيئة من الممثلين السياسيين تعرف بالسلك الدبلوماسي[٥٨].

وفي هذا الإطار حدد الأستاذ الألوسي الوثيقة الدبلوماتية قائلاً: "ولما كانت الوثيقة كلمة عامّة، فإنها تطلق على المستند قانونيًّا كان أو غير قانوني، وإزاء هذه العمومية يفضّل بعض الباحثين من المعاصرين استعمال تعبير أكثر دقّة أو شمولاً هو الوثيقة الدبلوماتية نسبة إلى علم الدبلوماتيك DIPLOMATIC المشتق من الكلمة اللاتينية دبلوماتيكوس DIPLOMATICUS[٥٩].

أما كلمة الدبلوما DIPLOMA اصطلاحًا، فتعني تحديد زمان أي وثيقة تاريخيّة، ومن معانيها أيضًا الرسالة المطوية، أو رسالة التوصية، أو الورقة الرسميّة التي تصدر عن جهة حكومية، أو أنها وثيقة رسمية أو عهد، أو الصكوك أو المستندات

الوثيقة مفهومها وأهميتها في الدراسات التاريخية

التاريخيّة والأدبيّة، أو الوثيقة التاريخيّة، وبمرور الزمن تطور المعنى إلى مبدأ الحفاظ على الوثائق، كما أطلقت أيضًا على الدبلوماسيين ورجال السياسة، ثم استعملت كلمة دبلوماتيك للدلالة على كل ما له علاقة أو صلة بالوثائق أو القوانين والعهود والمخطوطات، ومن معانيها أيضًا أسلوب التثبت من النص، أما الدبلوماتيك كفن فيعني العلم الذي يختص بتحقيق الوثائق ونقدها، كما أطلقت هذه التسمية على فن قراءة الكتابات القديمة وفك رموزها، وكذلك معرفة تاريخ الوثائق والتواقيع والأختام التي ختمت بها[٦٠].

إنّ الدبلوماتيك لا ينطبق على الوثيقة الأرشيفيّة التي حددت مواصفاتها التشريعات الوثائقية وآراء خبراء الأرشيف، وذلك للأسباب الآتية:

١- أن الوثائق الأرشيفيّة مجموعة متكاملة من الوثائق؛ أما الوثائق الدبلوماتية، فهي وثائق منفردة لا تشكل مجموعة متكاملة مرتبطة بعلاقة معينة فيما بينها.

٢- أنّ الوثيقة الدبلوماتية تنطوي في جوهرها على القدم الزمني، وهي تتلاءم مع الوثائق النادرة، أو المفردة ذات الصفة الأثرية؛ أكثر مما تتلائم مع الوثائق الأرشيفيّة التي تتراكم بمرور الزمن.

٣- أنّ مفهوم الدبلوماتيك ذو معانٍ كثيرة متعددة، وهذا بحد ذاته يعدُّ عائقًا في اتخاذه تسمية مميزة للوثائق الأرشيفيّة.

٤- أنّ الدبلوماتيك ينطوي على معنى تحقيق النصوص،وفك الرموز، وكشف الأخطاء، والحقيقة أن الوثائق الأرشيفيّة تكون بالافتراض منزهة عن الخطأ، وهي لا تحتاج إلى التحقيق والتثبت من النص بوصفها وثائق صحيحة وسليمة صادرة عن جهة محايدة.

وعليه نرى أنّ استخدام هذا المفهوم لا يتناسب مع الوثائق العامة الصادرة عن الإدارات الرسمية؛ فهي تصلح للوثائق المحفوظة في المتاحف أو دور المكتبات أكثر مما تصلح للوثائق المحفوظة في دور الأرشيف.

المخطوطات والوثائق الشخصية:

أثار بعض الباحثين في ميدان الوثائق والمخطوطات والمكتبات إشكالية التمييز بين الوثيقة والمخطوطة، خلال مؤتمر الوثائق والمخطوطات الذي انعقد في مدينة زليتن بليبيا عام ١٩٨٧، وقد حاول بعضهم إيجاد بعض الفوارق بين الاثنتين من خلال مناقشاتهم، أو بحوثهم التي نشرت بعد ذلك المؤتمر[٦١] والواقع أن تلك المحاولات لم تتوصل إلى ما يشفي الغليل في هذا المجال.

إنّ المعنى العام لكلمة (مخطوطة) تعني أي شيء كتب باليد أو غير مطبوع، سواء كان على شكل كتاب أو كراسة أو ورقة أو صورة أو خارطة، بشرط أن تكون قد مضت عليها مدة من الزمن لا تقل في أغلب الأحيان عن مائتي سنة، وكانت لها قيمة مادية نابعة عن قيمتها العلميّة، ويستثنى من شرط المدة هذه الوثائق الخاصة والرسائل الشخصيّة.

والمخطوطات هي نوع من المصادر التاريخيّة الأصلية التي لها تأثير خاص في وسط الناس بوصفها تحمل معلومات خطيرة ومهمَّة وقديمة[٦٢]، وفي ضوء هذا التعريف يمكن أن تكون المخطوطة كتابًا، ويمكن أن تكون وثيقة، والفرق بينهما هو:-

١- أن المخطوطة تتميز بوجود منهج محدد اتبع في تأليفها من قبل مؤلف ما، مثل جمع المادة

العلمية، ووضع خطته للبحث وتوثيقها بالمصادر والهوامش ومراجعتها وتنقيحها،ومن ثمّ إخراجها، في حين تفتقر الوثيقة إلى مثل هذه المنهجية، بل تتبع عادة في كتابتها صيغ وأساليب محددة ومتشابهة في كثير من الأحيان.

٢- تتميز مخطوطة الكتاب بتعدد النسخ، وتكرار نسخها مرات عديدة حسب الحاجة، كما تمتاز بإمكانية مراجعتها وتنقيحها من قبل المؤلف في كل مرّة،في حين لا يجوز تغيير مضمون الوثيقة أو إجراء أي تعديل أو تنقيح فيها.

٣- تحمل مخطوطة الكتاب عادة اسم المؤلف الذي أصدرها في حين تصدر الوثيقة عادة عن ديوان أو مؤسسة أو أي جهة رسمية، وتكون عادةً موثقة من قبلها.

٤- مخطوطة الكتاب تعبر عن جهد فردي لشخص أو لعدد محدود من الأشخاص، وتعبر أيضًا عن وجهة نظر المؤلف الخاصة، أما الوثيقة فهي تعبر عن نشاط المؤسسة أو الجهة التي أنتجتها، ويجب أن تتوافر فيها مواصفات الوثيقة الأرشيفيّة التي مر ذكرها مثل المصداقية والحياد وعدم التحيّز والولاية القانونية، والترابط في العلاقة مع قريناتها.

٥- مخطوطة الكتاب عمل منجز بتخطيط أو هي إنجاز بحد ذاتها، في حين لا تعني الوثيقة سواء كانت مخطوطة أم غير مخطوطة هذا المعنى، بل تعني الخطوات والإجراءات التي ساهمت في تحقيق هذا الإنجاز، أو أنها حصيلة عمل ما وهي أدلّة مادية لهذا العمل.

٦- أن الوثائق سواء كانت مخطوطات أم غير ذلك، تتجمع بطريقة طبيعية، وقد تشكل غالبًا وحدات أرشيفيّة متكاملة في حين تفتقر مخطوطات الكتب إلى هذه خاصة، حيث يتم جمعها بطريقة صناعية غير طبيعية، ولا يشترط أن تكون ذات مضامين موحدة أو مترابطة.

٧- تكون الولاية القانونية على الوثائق من اختصاص دور الأرشيف الوطنية أو دور الوثائق القومية، في حين تكون الولاية القانونية على المخطوطات من اختصاص المتاحف أو دور المكتبات.

أما الوثائق الخاصة أو الشخصية، فهي التي يمتلكها الأشخاص والأسر، وهي من نتاجهم، وليس من نتاج الإدارات والأجهزة الحكومية، وهي تعبر عن مشاعر وحقائق شخصية، ولا تعبر عن نشاط إداري حكومي، كما أنها تفتقر إلى عنصر الترابط العضوي، وهي تتناول موضوعات مختلفة ومتباينة وجمعت من جهات متعددة كجزء من جهود المسؤولين بدار الوثائق، أو أودعت من قبل أشخاص يهتمون بتجميع مواد التراث، أو من قبل مالكيها بهدف المحافظة عليها، وهي طبقًا إلى هذه الأسس تختلف اختلافًا كبيرًا عن الوثائق الأرشيفيّة.

وإذا أردنا أن نوازن بصورة عملية بين المخطوطة والوثيقة الشخصية والوثيقة الأرشيفيّة، فربما كانت الكناشات والكشاكيل أصدق مثل على إيضاح الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة، فالكناشات نوع من الوثائق الشخصية تحتوي على معلومات مهمّة أحيانًا بشأن موضوع ما إلا أنها لا ترقى إلى مستوى المخطوطة في قيمتها العلمية أو الماديّة أو عمرها الزمني، وهي أقرب إلى الوثائق الخاصة منها إلى المخطوطات.

والكناشة مذكرة يسجل فيها الشخص ما وقع له من أحداث وكان شاهد عيان على وقوعها، كما يدون فيها ما نظمه من الأشعار، أو ما دار بينه وبين أقرانه من مساجلات أدبية أو مناظرات علمية، ولهذه الكناشة قيمة خاصة لدى الأسرة والأشخاص، وتعبر عن أعمالهم اليومية كعقود الزواج والطلاق وملكية الأرض والإرث والرهان والبيوع وجرودات الشركات والمضابط المتعلقة ببعض المقاولات والاتفاقيات كالقروض والسلف، وقد أكّد المؤرخ الفرنسي جاك بيرك أهمية هذه الوثائق الخاصة، التي استخدمها في بحثه عن سكان منطقة سكاوة في المغرب، وقد تتضمن هذه الكناشات معلومات بشأن المواليد والوفيات والقحوط والمجاعات والأوبئة وتواريخ تعيينات حكام القبائل أو صراعات الجماعات، وغير ذلك من الأحداث المحليّة.

وغالبًا ما كانت الكناشات تحفظ في الزوايا والأضرحة التي كانت مستودعًا أمينًا للوثائق الخاصة، فكانت بمنزلة أرشيف محلّي. أما القيمة التاريخيّة لهذه الكناشات فإنها قد تنفرد بإفادات تاريخيّة متنوعة، وربما تكون غير معروفة البتة، فتكشف عن معلومات جديدة في موضوع التراجم أو أحداث مجهولة يجليها شاهد عيان أو اقتباسات من مؤلفات صارت ضائعة أحيانًا، ويمكن العثور فيها على بعض الأسرار الشخصية لصاحبها غير المعروفة[٦٣]، ولكن على المؤرخ أن يكون حذرًا في التعامل مع هذه الكناشات أو الكراسات أو الكشاكيل بوصفها مصادر للمعلومات التاريخيّة؛ لكونها كتبت من وجهة نظر صاحبها، كما أن عملية تحريف النصوص والتزوير فيها سهلة، لذلك عليه أن يخضعها للنقد والتمحيص.

مفهوم الوثيقة في علم التوثيق والمعلومات:

التوثيق Dectumintion فن تنظيم المصادر المعرفية وتقنيتها بهدف الإفادة، ويعرف كل من ميخائيلوف وكلياريفسكي في كتابهما (مدخل في علم المعلومات والتوثيق) الوثيقة العلمية بأنها شيء مادي يحمل معلومات علمية ويصبح بذلك سجلاً مصممًا لنقل المعلومات ونشرها عبر الزمان والمكان واستخدامها في الممارسات الاجتماعية، ومن هذا المنطلق فقد عدًّا كل الكتابات والمخطوطات والمطبوعات والأعمال الفنيّة والنميات (المسكوكات) ومعروضات المتاحف القديمة، ومنها المتاحف الخاصة بالنباتات أو الحيوانات (متاحف التاريخ الطبيعي) من الوثائق العلمية، وقد قسم المؤلفان هذه الوثائق على قسمين هما الوثائق الأوليّة، وهي التي تحتوي بصورة رئيسة على المعرفة العلميّة الجديدة، أو على الفهم الجديد للحقائق والأفكار المعروفة، والقسم الآخر هو الوثائق الثانوية، وهي التي تقوم بصورة رئيسة بإعطاء المعلومات عن الوثائق الأولى[٦٤].

وعلى وفق هذا التعريف، الوثيقة الأوليّة، حسب رأيهما، هي التي تحتوي على معلومات أساسية جديدة غير مطروقة، وبهذا فهي تعدُّ المصدر الأساسي الذي نستقي منه المعلومات، أما الوثيقة الثانوية، فهي التي تقوم بتحليل المعلومات الأساسية ودراستها ونشرها، التي احتوتها الوثائق الأوليّة، ومنها الكتب والنشرات والموسوعات والمعاجم والدوريات. ومن هنا يبدو أنّ الوثيقة في علم التوثيق والمعلومات لا تعني الوثيقة الأرشيفيّة وحسب، بل تعني كل مصادر المعرفة بأشكالها المتعددة.

مقالات

وفي الدراسة التي قام بها عالمان متخصصان في ميدان الدراسات الوثائقية، هما هوردوليمز من بريطانيا، والدكتور أي جي فرانس من ألمانيا بعنوان (تخطيط الطاقة البشرية للمعلومات) نجد أنّ مفهوم المعلومات يقصد به المعلومات المستخرجة من الوثائق على اختلاف أشكالها وأنواعها، على أساس أن كلمة وثائق هنا لا يقتصر معناها على الوثائق الأرشيفية فحسب، بل يشمل كل أوعية المعلومات من مخطوطات وكتب ودوريات وتقارير وأفلام وأشرطة الخ...[٦٥]، وعلى وفق هذا التحديد الواسع لمفهوم الوثيقة، يختلف هذا المفهوم بالنسبة لمراكز التوثيق والمعلومات عن مفهومها بالنسبة لدور الوثائق والأرشيف.

المؤسسات الوثائقية:

أما من حيث البنيات الأساسية لمصادر المعلومات المتعددة، فقد تعددت تلك البنيات وتخصصت في مجالات محددة، بفضل التقدّم التقني من جهة والتراكم الهائل في تلك المصادر، لا سيما بعد اختراع الورق والطباعة، وعلى الرغم من أننا نعيش عصر المعلوماتية والانفجار الإعلامي الهائل في حجم المعلومات، والاستخدام الواسع للحاسوب الآلي، إلا أننا لم نتوصل إلى الاستغناء الشامل عن الورق، بل إن التخزين الآلي للمعلومات ربما سيشكل خطرا محدقًا بالمعلومات المخزنة؛ إذا ما تعرضت إلى فيروس الحاسوب. ومن ثم ستبقى الورقة الوثيقة هي الوسيلة الأفضل للمحافظة على تاريخ الأمم وحضاراتها ومنجزاتها الحقيقية. لم يفرق الباحثون القدماء بين البنيات الأساسية الثلاث للمعلومات، وهي المكتبة والأرشيف والمتحف، ومع التقدّم الحضاري أخذ هذا الثلاثي يتباعد في جزئياته هذه، التي أصبحت أكثر حاجة إلى التخصص واستقلال بعضها عن بعضها الآخر، مع أنها تشترك جميعًا بهدف واحد هو الاهتمام بتوافر المعلومات اللازمة لنشر المعرفة وإنماء الفكر وتوسيع ثقافة المجتمع.

لقد أصبح الفرق الجوهري بين دور الوثائق (الأرشيف) والمكتبات يكمن في مواد المعرفة التي تسعى كل منها لاقتنائها، فالمكتبة تسعى لاقتناء الكتب، بينما تسعى دور الوثائق لاقتناء الوثائق، ويختلف أحدهما عن الآخر من حيث مصادر التزويد، فالمكتبات تسعى إلى تزويد نفسها بالكتب من خلال مواردها المالية، من قبل وكلاء متخصصين بذلك أو عن طريق الإهداء والتبادل والإيداع القانوني، في حين تحصل دور الوثائق على مقتنياتها من الدوائر والمؤسسات الحكومية وشبه الحكومية، وبفعل قوانين وتشريعات تصدرها الدولة لهذا الغرض، كما أنّ مقتنيات المكتبات سواء كانت كتابًا أو وثيقة أو خارطة أو صحيفة أو مطبوعًا هي قطعة قائمة بذاتها ومفصولة عن بقية القطع الأخرى، وليست لها علاقة أو صلة بها من ناحية التكوين، في حين يجب أن تكون هذه القطعة في دور الوثائق ضمن وحدتها الأرشيفيّة، وإلا فقدت عنصرًا مهمًّا من عناصر قيمتها التاريخيّة[٦٦].

ومن ناحية أخرى، تختلف المكتبات عن دور الوثائق من حيث ترتيب موادها، فتختار التصنيف الملائم لها على أساس المجالات الرئيسة للمعرفة، أما المواد الوثائقية الأرشيفيّة فقد تم إجراء تصنيفها موضوعيًّا عند نشوئها في دائرتها الأم حسب نظام حفظ الملفات، أما في دار الوثائق فيعتمد نظام مبدأ الأصل أو مبدأ احترام الوحدة الأرشيفيّة المتكاملة، وقد أخفقت المحاولات التي أجريت لحفظ الوثائق حسب نظم تصنيف المكتبات، واتضح خطأ هذه الفكرة واستحالة

تنفيذها من الناحية العلميّة، وهكذا يتضح لنا الفرق بين المكتبات ودور الوثائق ومراكز التوثيق، أما المتاحف فإنها تهتم بجمع كل ماله صلة بتاريخ الماضي وحضارته من مكتشفات آثاريّة حجرية أو معدنية أو نقوش أو رسوم، وقد تحتفظ بعض المتاحف بالمخطوطات القديمة وأحيانًا ببعض الوثائق الشخصية، أو الخرائط أو الصور، وهي هنا تصبح أشبه بمثيلاتها التي تحتويها المكتبات، وتختلف عن تلك التي تقتنيها وتحتويها دو الوثائق،

ومهما كان الأمر، فإنّ كل مصدر أصيل أولي للمعلومات هو وثيقة تاريخيّة بغض النظر عن شكلها أو نوعها سواء كانت أثرًا أم نقشًا أم صورة أم مخطوطة أم وثيقة شخصية أم فلمًا مصورًا أم صوتيًا أو وثائق أرشيفيّة، فالوثيقة الأرشيفية هي وثيقة تاريخيّة، ولكن ليس جميع الوثائق التاريخيّة وثائق أرشيفيّة، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما مفهوم الوثيقة بالنسبة لعلم التاريخ نفسه؟ وما أهمية الوثيقة في الدراسات التاريخيّة؟ ■

●●●

الحواشي

١- لسان العرب: ٣٧١/١٠.

٢- المائدة:٧.

٣- الفجر:٢٦.

٤- محمد: ٤.

٥- الفجر: ٢٦

٦- البقرة:٢٠٦، لقمان:٢٢.

٧- يوسف: ٦٦، و٨٠.

٨- يوسف:٦٦.

٩- البقرة:٨٣، آل عمران:٨١، ١٨٧، النساء:٩٢، المائدة:٧٠، الأعراف:١٦٩، الأنفال:٧٢، الرعد:٢٠.

١٠- النساء: ٢١، الأحزاب:٧، النساء:١٥٤.

١١- البقرة:٦٣، و٨٤، و٩٣، الحديد: ٨.

١٢- البقرة:٢٧، المائدة: ٧، الرعد:٢٥.

١٣- النساء: ١٥٤، و١٥٥، المائدة: ١٣، و١٤، الأحزاب: ٧.

١٤- سيأتي شرح هذا المفهوم لاحقًا ضمن سياق هذه الدراسة.

١٥- الموسوعة العربية الميسرة:١٩٤٤.

١٦- التشريعات الوثائقية:١١-١٣.

١٧- الأرشيف:٧٩.

١٨- الوثائق التاريخيّة.

١٩- المصدر نفسه:١٣.

٢٠- الدبلوماتيك أو علم تحقيق الوثائق:٢٣.

٢١- التشريعات الوثائقية:٢٥.

٢٢- الوثائق التاريخيّة: ١٥.

٢٣- التشريعات الوثائقية، مجلة الوثائق العربية، ع٨/١٩٨٢/٥-٦.

٢٤- الوثائق وأهميتها في دراسة وتدريس التاريخ، مجلة المؤرخ العربي، ع٥٥، ١٩٩٧م.

٢٥- التشريعات الخاصة بالوثائق، مجلة الوثائق العربية، ع٧/١٩٨١/٤٢-٤٤.

٢٦- دراسات في تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبيّة:١٢٩.

٢٧- محكمة الربى تعني المحكمة الخاصة بالطائفة اليهودية في طرابلس.

٢٨- دراسات في تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبيّة:١٣٠-١٣١.

٢٩- المصدر نفسه: ١٣٥-١٣٦.

٣٠- جريدة الشمس، ع١٤٢٧/ ١٨ آذار/١٩٩٨م.

٣١- الوثائق وأهميتها في دراسة التاريخ، مجلة المؤرخ العربي: ع٥٥ /س١٩٩٧/: ٣٨.

٣٢- التشريعات الوثائقية: ١٩-٢٠.

٣٣- التشريعات الخاصة بالوثائق:٤٤-٤٥.

٣٤- المصدر نفسه.

٣٥- المصدر نفسه.

٣٦- يراجع نص القانون في جريدة الوقائع العراقية، ع٢٩٤٧/١١ يوليو ١٩٨٣/.

٣٧- الوثائق:٨٠.

٣٨- المصدر نفسه.

٣٩- الأرشيف:٨٠.

٤٠- مجلة الوثائق العربية، ع٢/١٩٧٦/٥٣.

٤١- الوثائق:٨٠.

٤٢- Jenkinson -Hilary- The English Archivist- Anew Professon - London -1948- P.5.

٤٣- الوثائق التاريخيّة: ١٥-١٦.

٤٤- Jenkinson-OP.Cit-P.14.

٤٥- بين الوثيقة والإفادة، مجلة الوثائق والمخطوطات، ع٤/س٤، ١٩٩٨/٣٨٨.

٤٦- دراسات في المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبية:٢٥.

٤٧- نحو مصطلحات فنيَّة موحدة، مجلة الوثائق العربية ع٦، ١٩٨٠/١٨.

٤٨- المصدر نفسه:١٨.

٤٩- Cook-M., Archives Adminstration - Dawson-1977-pp.1-2.

٥٠- مجلة الوثائق العربية، ع٦، ١٩٨٠م/١٧-١٨.

٥١- مجلة الوثائق العربية، ع٣، ١٩٧٧م/ ١٢٠

٥٢- الوثائق التاريخيّة:١٢-١٣.

٥٣- Evans-F.P " The Administration of Archives", A Review of The American Archivist- October - 1973-P.541.

٥٤- الوثائق التاريخيّة: ١٤.

٥٥- Shellenbery -T.r., Modern Archives Principles and Techniques, University of Chicago Press -1956- P.16. Ibid.

٥٦- Ibid.

٥٧- الوثائق:٦.

٥٨- القاموس السياسي: ٥١٨.

٥٩- الدبلوماتيك:٩.

٦٠- المصدر نفسه: ١٠-١٤.

٦١- ينظر بحث الوثيقة والإفادة، مجلة الوثائق والمخطوطات، ع٤، ١٩٩٠م.

٦٢- تخطيط الطاقة البشرية للمعلومات، مجلة الوثائق العربية ع٥، ١٩٧٩، ١٣-٦٣.

٦٣- للتفاصيل عن الكناشات، ينظر دور الكناشات في الكتابة التاريخيّة المغربية، مجلة الوثائق والمخطوطات، ع٤، س٤، ١٩٩٠/٤٧٩-٣٨٨.

٦٤- مدخل في علم المعلومات والتوثيق:٣١.

٦٥- مجلة الوثائق العربية، ع٣، ١٩٧٧، ١٢٠ .

٦٦- إدارة الوثائق الأرشيفية:٦٥.

المصادر والمراجع

- **إدارة الوثائق الأرشيفيّة**، لمحمد محجوب مالك، ط١، دار الجيل، بيروت.
- **الأرشيف**، لسالم الألوسي، ومحمد محجوب مالك، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٩م.
- **التشريفات الوثائقية والنظم الحكومية**، لسالم الألوسي، بغداد، ١٩٨٤م.
- **الدبلوماتيك**، ، لسالم الألوسي، دار الحرية، بغداد.
- **دراسات في تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبية**، للدكتور عبد الله محمد الشريف، ومحمد أحمد الطوير، مصراتة، ١٩٨٧م.
- **القاموس السياسي**، لأحمد عطية الله، ط٣، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٨م.
- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- **مدخل في علم المعلومات والتوثيق**، لميخائيلوف، إ، آي، ورفيقه، تر. نزار محمد علي قاسم، الموصل، ١٩٨٢م.
- **الموسوعة العربية الميسّرة**، لمحمد شفيق غربال، مؤسسة فرانكين، القاهرة، ١٩٦٥م.
- **الوثائق**، لمصطفى الموسوي وآخرين، بغداد، ١٩٧٩م.

المصادر الأجنبية

- Cook-M., Archives Adminstration - Dawson1977.0
- Evans-F.P " The Administration of Archives", A Review of The American Archivist- October - 1973.
- Jenkinson -Hilary- The English Archivst- Anew Professon - London -1948.
- Shellenbery -T.r., Modern Archives Principles and Techniques, University of Chicago Press -1956.

عملية التبليغ بين الإلمام والإتقان مقدمة في التعليمية العربية

د. عبد القادر سلاَمي بن ميلود
جامعة تلمسان - الجزائر

مقالات

مقدمة:

نستعرض في هذه المقدمة المصطلحات ذات الصلة بموضوع البحث، وهي: التبليغ والتعليم والتحصيل، وذلك لفك التعاضل الاصطلاحي بين مفاهيمها وما يعتريها من تداخل وتلازم.

١- التبليغ بين اللغة والاصطلاح:

الباء واللام والغين أصل واحد، وهو الوصول إلى الشيء. يقال بلغتُ المكانَ، إذا وصلتُ إليه. وقد تُسمى المشارفة بلوغًا بحق المقاربة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[1]، ويقال تبلغت القلةُ بفلان إذا اشتدت، فلأنّ تناهيها به؛ وبلوغها الغاية. وبلغ الغلام: أدرك، وثناء أبلغ: مبلغ فيه، وشيء بلغ: جيد. والتّبلغة: حبل يوصل به الرشاء حتى يبلغ الماء، ومنه قولهم: أحمق بِلغ وبَلغ، أي إنه مع حماقته يبلغ ما يريده. واللهم سمع ولا بلغٌ، سمعًا لا بلغًا، أي: نسمع به ولا يتم، أو يقوله من سمع خبرًا لا يعجبه، وأمر الله بلغ: نافذٌ يبلغ أين أريد به. والبلغة ما يتبلغ به من عيش، كأنه يُراد أنّه يبلغ رتبة المكثر إذا رضي وقنع. والبليغ: الفصيح، يبلغ بعبارته كنه ضميره، وكذلك البلاغة، التي

يمدح بها الفصيح اللسان؛ لأنه يبلغ بها ما يريده. والبلاغ؛ الكفاية ، يقال: لي في هذا بلاغ؛ أي: كفايةٌ، والاسم الإبلاغ والتبليغ، وهما الإيصال، وفي الحديث: (كلُّ رافعةٍ رَفعَتْ علينا من البلاغ)[٢]؛ أي بلغ من القرآن الكريم والسُّنن الشريفة أو المعنى من ذوي البلاغ؛ أي التبليغ، أقام الاسم مقام المصدر ويُروى بالكسر؛ أي من المبالغين في التبليغ، من بالغ مبالغة، وبلاغًا: إذا اجتهد ولم يقصر. وكذلك البلاغة، التي يُمدح بها الفصيح اللسان؛ لأنه يبلغ بها ما يريده، والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ: ما بلغك، والبلاغ: الكفاية، تقول: له في هذا بلاغ وبلغةٌ، وتبلُّغ، أي كفاية، وبلغتُ الرسالة. والبلاغُ: الإبلاغ، وفي التنزيل: ﴿**إلا بَلاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ**﴾[٣]. أي لا أجد منجى إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به[٤]. والبلاغ: بيان يُذاع في رسالة ونحوها، وهو مما أقرّه مجمع اللغة العربية بالقاهرة[٥].

ويتضح مما سبق أن التبليغ يقوم على مبدأ الاجتهاد في الإيصال والتواصل النافذ بلسان عربي مبين، بما يمثّل كفاية، تخرج الكلام عند الضرورة من حيّز القوّة إلى حيز الفعل.

٢- التعليم بين اللغة والاصطلاح:

التعليم من علّم، يقال علَّم المتعلِّم العلمَ تعليمًا فتعلَّمهُ: أي علمه وأتقنه. وتعلم، بصيغة الأمر، اعلم، والمعلم: خلاف المجهل، والمعلِّم: من يتخذ مهنة التعليم. والمعلَّم: الملهم الصواب والخير. والعلم: نقيض الجهل، وقيل في حدِّه: معرفة المعلوم على ما هو عليه، فاعترض بلزوم الدور، فقيل: العلم صفة توجب تمييزًا لا يحتمل النَّقيض؛ وعلى هذا، هو الجزم المطابق للحق؛ وقياسه قياس العلم والعلامة، والدليل على أنهما من قياس واحد قراءة بعض القرّاء: ﴿**وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾[٦]. قالوا: يُراد به نزول عيسى عليه السلام، وإنّ بذلك يعلم قرب الساعة. ومن الباب: العالمون، وذلك أنّ كلَّ جنس من الخلق فهو في نفسه مَعْلم وعَلَم[٧].

ويرى علماء النفس والتربية أنّ التعليم المفضي إلى التعلُّم هو ذلك التغيير الذي يحدث في سلوك الإنسان، وفي معاملاته مع الآخرين، وفي اتصالاته بهم، وفي اكتسابه مهارات جديدة، وتنمية أخرى سابقة، والعمل على إنماء ما لديه من خلفيات معرفية، سواء كانت غريزية أو مكتسبة.

ومما تقدّم نصل إلى نتيجة أنّ التعلم تغيير في السلوك، وفي الخبرات السابقة، فيضيف إليها أشياء، أو يعدل بعضها حتى يتحسن سلوك الإنسان. فالتعلم إذًا تحسن[٨] وتحصيل واكتساب معرفة عن موضوع أو مهارة عن طريق الدراسة أو الخبرة، كما أنه يكتسب عن طريق التعليم المستمر نسبيًّا- في الميل السلوكي- وهو نتيجة لممارسة معززة[٩].

يتبين مما سبق أنّ التعليم والتعلم والاكتساب مفاهيم تشترك في معنى العلم واكتساب المعرفة والحثّ على تحصيلها.

٢- التحصيل بين اللغة والاصطلاح:

التحصيل مشتق من الفعل حصل، وهو: "الحاصل من كل شيء: ما بقي وثبت وذهب ما سواه، يكون من الحساب والأعمال ونحوها؛ حصل الشيء يحصل حصولاً. والتحصيل: تمييز ما يحصل، والاسم الحصيلة، والحصائل: البقايا، الواحدة حصيلة، وقد حصلت الشيء تحصيلاً، وحاصل الشيء ومحصوله: بقيته. قال الفراء[١٠]. (ت٢٠٧هـ) في قوله تعالى: ﴿**وَحُصِّلَ مَا فِي**

عملية التبليغ بين الإلمام والإتقان مقدمة في التعليمية العربية

الصُّدُورِ﴾[11]. أي بيّن؛ وقال غيره: ميز، وقال بعضهم: جُمع. وتحصَّلَ الشيء: تجمَّعَ وثبت. والمحصول: الحاصل، وهو أحد المصادر التي جاءت على مفعول كالمعقول والميسور والمعسور. وتحصيل الكلام: ردُّهُ إلى محصوله[12].

وعن مدلول التحصيل من وجهة نظر اصطلاحية، هو: مقدار المعرفة أو المهارة التي حصل عليها الفرد نتيجة التدريب والمرور بخبرات سابقة[13].

على أنّ من التربويين من يرى فيه تلك المعرفة أو المهارة المقتبسة، التي هي خلاف القدرة وذلك على أساس أنّ الإنجاز أمر فعلي وليس إمكانية[14].

أما بعض علماء النفس، فيرى فيه إنجازًا يكون في العادة تعليميًّا، ويعني بلوغ مستوى معين من الكفاءة في الدراسة، سواء في المدرسة أو الجامعة، وتحدد ذلك اختبارات التحصيل المقننة أو تقديرات المدرسين أو الاثنان معاً[15].

كما أنّ التحصيل الدراسي هو درجة الاكتساب التي يحققها فرد، أو مستوى النجاح الذي يحرزه أو يصل إليه في مادة دراسية أو مجال تعليمي أو تدريبي معيّن. فالاختبارات التي يطبقها الأستاذ على طلابه على مدار العام الدراسي يفترض أنها تقيس التحصيل الدراسي أو الأكاديمي، والهدف من تصميم هذه الاختبارات التحصيلية هو قياس مدى استيعاب الطلاب لبعض المعارف والمفاهيم والمهارات المتعلقة بالمادة الدراسية في وقت معين أو في نهاية مدة تعليمية معينة[16].

ويعد التحصيل الدراسي الهدف الأساس في تشكيل عملية التعليم وتحديدها، ويعدّ النجاح فيه عاملاً ذا أثر كبير في تكوين الشخصية؛ إذ يتبعه عادة الثقة بالنفس والارتياح، أما الرسوب والإخفاق المتكرر فيتبعه عادة تأنيب النفس ونقد من الآخرين. وكل هذه العوامل النفسيّة ستؤثر بشكل حاسم في عملية التحصيل.

أولاً: المبلّغ وما يجب أن يتوفر عليه:

١ - الاقتناع بما سخّره الله له:

قال أبوبكر بن مجاهد[17] (ت٣٢٤هـ): قال ثعلب[18] (ت٢٩١هـ): "يا أبا بكر، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا، وأصحاب الحديث بالحديث ففازوا، وأصحاب الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت بزيد وعمرو، فليت شعري ما يكون حالي! فانصرفت من عنده، فرأيت النبي ﷺ تلك الليلة، فقال لي: أقرئ أبا العباس مني السلام، وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل"[19].

٢ - التواضع العلمي:

عن أبي عمر الزّاهد[20] (ت٣٤٥هـ) أن أبا العباس ثعلب: سئل عن شيء، "فقال لا أدري، فقيل له: أتقولُ: لا أدري، وإليك تضرب أكباد الإبل من كل بلدٍ! فقال: لو كان لأمك بعدد ما لا أدري بعر، لاستغنت"[21].

ونظير ذلك ما أورد ابن السيد البطليوسي[22] (ت٥٢١هـ) في الفصل الذي سماه (الخلاف العارض من وجهة الحقيقة والمجاز" من كتابه الإنصاف قولاً نقله ابن نباته[23] (ت٤٠٥هـ) في (مطلع الفوائد ومجمع الفرائد) مفاده أنّ أعرابيًّا وقف على حلقة ثعلب فسأله عن قول صعصعة الهلالي:

الحمد لله الحميدِ المنَّانْ
صارَ الثَّريدُ في رؤوس العيدانْ

فالتفت ثعلب إلى الحاضرين، فقال: أفيكم من

يعرف معنى هذا؟ فقالوا: لا، فقال الأعرابي: ولا أنتَ!؟ فقال ثعلب: أراد السُّنبُل قد أفرك. فقال صدقت. وهذه من ألطف الكنايات وأبدعها: يعني أنّ القمح الذي يعمل منه الثَّريد قد صار في رؤوس قضبان زرعه. وأقام اسمه مقامه على عادتهم المعروفة بذلك"[٢٤].

٣- إتقان الحد الأدنى من العلم:

ويكون ذلك بتجاوز الفرع الذي يبدأ به التعلُّم من معرفة بالأسماء والصفات، إلى الأخذ بناصية الأصل في علم العربية، الذي يراه ابن فارس[٢٥] (٣٩٥هـ)، في القول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها، ثم على رسوم العرب في مخاطباتها ومالها من الافتنان تحقيقًا ومجازًا. فلو أنّ متوسمًا بالأدب لم يعلم ما إذا كانت العرب تتكلم في النفي بما لا تتكلم به في الإثبات لنقصه في شريعة الأدب عند أهل الأدب؛ لأنّ ذلك يُردد دينه أو يجرُّه لمأثم. كما أنّ متوسمًا بالنحو لو سئل عن أصل القسم وكم حروفه، وما الحروف الخمسة المشبهة بالأفعال التي يكون الاسم بعدها منصوبًا وخبره مرفوعًا؟ فلم يجب لحكم عليه بأنه لم يشامّ صناعة النحو قط[٢٦].

٤- الإيمان بأنّ العلم رسالة تبلغ:

ومن هذا ما ذكر عن الحسن البصري[٢٧] (ت١١٠هـ) أنه "مرَّ بمكتب[٢٨] فبكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: اعتباري من هؤلاء الصبيان كأنهم يقولون: انصرفوا، قد بعثنا أبدالكم"[٢٩]. ولله في خلقه شؤون.

ثانيًا: المبلغ وما يجب أن يتوفر عليه:

١- الأخلاق قبل العلم:

حكى أبو العباس المبرد[٣٠] (ت٢٨٥) عن أبي عثمان المازني[٣١] (ت٢٤٩هـ)، فقال: "كنت عند أبي عبيدة[٣٢] (ت٢١٠هـ)، فسأله رجل: كيف تقول: عنيتُ بالأمر؟ قال: كما قلت عُنيت (بالأمر)، قال: فكيف الأمر منه؟ قال: فغلط، وقال: أعن بالأمر، فأومأت إلى الرجل أنْ ليس كما قال، فرآني أبو عبيدة، فأمهلني قليلاً، ثم قال: ما تصنع عندي؟ قلت: ما يصنع غيري، قال: لست كغيرك، لا تجلس إليّ، قلت: ولم؟ قال: لأني رأيتك مع إنسان خوزي[٣٣] سرق مني قطيفة[٣٤]. فانصرفت وتحملت عليه بإخوانه، فلما جئته قال: أدب نفسك أولاً ثم تعلم الأدب"[٣٥].

٢- كثرة السماع وتقييده كتابة، والإنفاق في سبيل ذلك:

قال الجاحظ[٣٦] (٢٥٥هـ): "فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه، ولا يعلم، ولا يجمع العلم، ولا يختلف إليه، حتى يكون الإنفاق عليه من ماله، ألذ عنده من الإنفاق من مال عدوه. ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من إنفاق عشاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًا، وليس ينتفع بإنفاقه، حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه"[٣٧].

وقال أيضًا: "وقال بعضهم: كنت عند بعض العلماء، فكنت أكتب عنه بعضًا وأدع بعضًا، فقال لي: اكتب كل ما تسمع، فإنّ أخسَّ ما تسمع خير من مكانه أبيض"[٣٨].

٣- التخصص في العلم:

روى الجاحظ قول من قال: "إنّ الكتب لا تُحيي الموتى، ولا تحوِّل الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكيًا، ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول، فالكتب

تشحذ وتفتق، وترهف وتشفي، ومن أراد أن يعلّم كلَّ شيء، فينبغي لأهله أن يداووه! فإن ذلك إنما تصور له بشيء اعتراه!! فمن كان ذكيًا حافظًا فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالمًا بخواص، وغير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئًا إلا نسي ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد"(٣٩).

٤- تصدر حلقات العلم والمناظرة بحصول الإجازة:

"قال المبرد في سعة علم المازني:" لم يكن بعد سيبويه(٤٠) (١٨٠هـ) أعلم بالنحو من أبي عثمان، وأخذ عن الأخفش الأوسط(٤١) (ت٢١٥هـ)، وقيل لم يأخذ عنه إنما أخذ عن الجرمي(٤٢) (ت٢٢٥هـ) ثم اختلف وقد برع فكان يناظره(٤٣).

وكان أبو الفتح ابن جني(٤٤) (ت ٣٩٢) "من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وعلمه بالتصريف أقوى وأكمل من علمه بالنحو؛ وسببه أنه كان يقرأ النحو بجامع الموصل، فمر به أبو علي الفارسي(٤٥) (ت٣٧٧هـ)، فسأله عن مسألة في التصريف، فقصر فيها، فقال أبو علي: زببت قبل أن تحصرم، فلزمه وأخذ عنه أربعين سنة، واعتنى بالتصريف، ولما مات أبو علي تصدَّر ابن جني مكانه ببغداد.."(٤٦).

إلا أنه "لا ينبغي لمن قلّ علمه أن يدع تعليم من هو أقلُّ منه علمًا، وهو ما يراه الجاحظ(٤٧). وفي ذلك ما يهيىء الناشئة لتقبل مبادئ العلم المستطيل.

ثالثًا: الرسالة وكيفيّة تبليغها وظروف ذلك:

١- عدم استغلاق الرسالة:

تعرّض الأخفش الأوسط من معاصريه أو غيرهم إلى كثير من سهام الطعن، ونسبت إلى صياغاته في مؤلفاته المثالب(٤٨)؛ فقد قيل فيه مثلاً: إنه كان يتزيد في حب المال، وإنّ آية ذلك حرصه على أن لا يقرئ كتاب سيبويه للكسائي(٤٩) (ت١٨٩هـ) والجرمي والمازني إلا بالأجر الوفير، وأنه كان يبهم في كتبه، ويغمض في أساليبها حتى ضجّ من ذلك الكبار كالجاحظ، الذي ناقش الأخفش في سبب جعل كتبه في النحو غير مفهومة(٥٠)، ولامه على ذلك لومًا شديدًا، ودعاه إلى تبسيطها، وقد أجابه الأخفش قائلاً: أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعونني إليه - يقصد الوضع السهل - قلت حاجتهم إليّ فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما كسبت في هذا التدبير؛ إذ كنت إلى التكسب ذهبت"(٥١).

٢- اتباع الطريقة الجزئية في تبليغها وتحديد المواد المقررة:

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً بعنوان: (في أنّ كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل)، جاء فيه: أعلم أنه مما أضرَّ بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها - أو أكثرها ومراعاة طرقها. ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة

إذا تجرد لها، فيقع القصور، ولا بد دون رتبة التحصيل. ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلاً، وما كتب عليها من الشروح الفقهية، مثل كتاب ابن يونس[٥٢] واللخمي[٥٣] وابن بشير(ت٢٤٢هـ)[٥٤] والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية، وكذلك كتب ابن الحاجب[٥٥] (ت٦٤٦هـ)، وما كتب عليه. وثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد. والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها. ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط،، لكان الأمر ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً، ومأخذه قريبًا؛ ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها. ويمثل أيضًا علم العربية كتابُ سيبويه، وجميع ما كتب عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك[٥٦] (ت٦٨٢هـ) وجميع ما كتب في ذلك. وكيف يطالب به المتعلم، وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر؟! مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد، من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام[٥٧] (ت ٧٦١هـ) ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما، لعظم ملكته وما أحاط به من أصل ذلك الفن وتفريعه وحسن تصرفه فيه. ودلّ ذلك على أن الفضل ليس منحصرًا في المتقدمين ولاسيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف، ولكن ﴿**فضل الله يُؤتيه من يشاء**﴾[٥٨]. وهذا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟[٥٩].

٢- عوامل تبليغها:

أ- مراعاة المقام والظروف المحيطة:

لعل أهم موضوع عرض له أبو الفتح عثمان بن جني، مما يتصل بدراسة المعنى، هو الذي يطلق عليه المحدثون (سياق الحال)[٦٠]. أو السياق الاجتماعي"[٦١] أو ما يعرف في علم الدلالة اليوم باسم سياق الموقف؛ وهو ما سماه قدماء العرب من البلاغيين ب: "المقام"[٦٢]. وذكره ابن خلدون[٦٣] (ت٨٠٨هـ) باسم بساط الحال[٦٤]، وهو ما أكده ابن جني قبل فيرث (Firth) حين قال: إنّ المعاني قد لا يتوصل إليها إلا بالظروف التي أحاطت بها؛ ومن ثم لا ينبغي أن يكتفى في عملية التبليغ بالسماع، بل ينبغي أن يجمع إليها الحضور والمشاهدة؛ أي كل ما يحيط بظروف الكلام[٦٥].

كما أنّ الحضور والمشاهدة عند المفسرين واللغويين يعدان من أهم الظروف المؤثرة في المعنى. فمن هذه الإشارات ما أفرده الواحدي[٦٦] (ت٤٢٧هـ) لمعرفة أسباب نزول القرآن، إذ لا يمكن معرفة تفسير الآية من كتاب الله دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[٦٧]. ثم قال عنها: "إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية، وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. ولا يحلُّ القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب"[٦٨].

وبين السيوطي[٦٩] (ت٩١١هـ) فوائد ذلك،

فقال: ولمعرفة أسباب النزول فوائد، ، منها معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السبب، ومنها أنّ اللفظ قد يكون عامًّا ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته، فإنّ دخول صورة السبب قطعي وإخراجها بالاجتهاد ممنوع. ومنها الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال.. وقال ابن تيمية[٧٠] (٧٢٨هـ): معرفة أسباب النزول يعين على فهم الآية، فإنّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[٧١].

ويعني ذلك عند ابن جني ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل، وأن يكون الحاضر شاهد الحال، فعرف السبب الذي له ومن أجله وقعت عليه التسمية، والآخر لبعده عن الحال لم يعرف السبب للتسمية، والألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندر ما حديثها، وخير مثال قولهم: (رفع عقيرته) إذا رفع صوته. فلو ذهبنا نشتق لقولهم (ع ق ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جدًّا. فمعنى ذلك أنّ رجلاً قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال الناس: رفع عقيرته؛ أي رجله المعقورة[٧٢]، وهو ما ذكره ابن فارس ضمن (باب القول في أصول أسماء قيس عليها وألحق بها غيرها) من كتابه الصاحبي[٧٣].

كما يروي ابن جني عن بعض مشايخه قوله: "أنا لا أحسن أن أكلم إنسانًا في الظلمة" ويذكر أن الحمالين والحماميين[٧٤] والساسة[٧٥]، والوقادين[٧٦]، ومن يليهم ويعتدُّ منهم، يستوضحون من مشاهدة الأحوال مالا يحصله أبو عمرو[٧٧] (ت١٥٤هـ) من شعر الفرزدق (ت ١١٠هـ) إذا أخبر به عنه، ولم يحضره ينشده. أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصويره له في نفسه، استعطفه ليقبل عليه؛ فيقول له: يا فُلان، أين أنت؟ أرني وجهك؟ أقبل علي أحدثك؟ أما أنت مقبل ياهناه[٧٨]؟ فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع يحدّثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك، فلو كان استماع الأذن مغنيًا عن مقابلة العين، مجزئًا عنه، لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه"[٧٩].

ب- الاستعانة باللغة الجانبية:

تعرض الجاحظ إلى تأثير حركة الجسم أو الإشارة عمومًا في الدلالة، فقال: قد قلنا في الدلالة باللفظ، فأما الإشارة فباليد وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب[٨٠]، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف فيكون ذلك زاجرًا رادعًا، ويكون وعيدًا وتحذيرًا. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة. ولو أنّ تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

وفي العين غنًى للمر
ء أن تنطق الأفواه

وقال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها
من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة
حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط وحسن البلاغة الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل[٨١] والشكل[٨٢] والتقتل[٨٣] والتثني[٨٤]، واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور"[٨٥].

ج- مراعاة النبر والتنغيم:

دلل ابن جني في خصائصه على أنّ من أهم العوامل المؤثرة في المعنى هي: النبر[٨٦] (Prominence) والتنغيم[٨٧] (Intonation)، والاستعانة بإشارة من الوجه أو اليدين أو غير ذلك. يقول ابن جني: "وقد حذفت الصفة ودلّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب (يقصد سيبويه) من قولهم: "سير عليه ليل"، وهم يريدون: "ليل طويل"، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها. وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح[٨٨] والتطريح[٨٩] والتفخيم[٩٠] والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ ب (الله) هذه الكلمة، وتتمكن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها (وعليها)؛ أي رجلاً فاضلاً أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه! إنسانًا ! وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وضعه بقولك: إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو نحو ذلك، وكذلك إذا ذممته وصفته بالضيق، فقلت سألناه وكان إنسانًا وتزوي[٩١] وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا لحزًا[٩٢] أو مبخلاً أو نحو ذلك. فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة، فأما إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فإنّ حذفها لا يجوز"[٩٣]. ■

●●●

الحواشي

١- البقرة: ٢٣١.

٢- ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/ ١٥٢. والحديث فيه بتمامه (كل رافعة رفعت عنا من البلاغ فلتبلغ عنا)، وجاء فيه: "ويروى بفتح الباء وكسرها، فالفتح له وجهان: أحدهما أنه بلغ من القرآن والسنن، والآخر من ذوي البلاغ، أي الذين بلغونا، يعني: ذوي التبليغ؛ فأقام الاسم مقام المصدر الحقيقي، كما تقول: أعطيته عطاءً؛ وأما الكسر، فقال الهروي (ت٤٠١هـ): أراد من المبالغين في التبليغ. ينظر: المصدر نفسه: ١/١٥٢-١٥٣.

٣- الجن: ٢٣.

٤- ينظر: مقاييس اللغة :١/٢٠١-٢٠٢ مادة (بلغ)، والقاموس المحيط:٣/١٠٦-١٠٧، مادة (بلغ)، ولسان العرب:٨/٤١٩ (مادة بلغ)

٥- المعجم الوسيط: ١/ ٧٠. مادة (بلغ).

٦- في قوله تعالى (وأنه لَعِلمٌ للساعة) الزخرف:٦١.

٧- ينظر معجم مقاييس اللغة: ٤/ ١٠٩-١١٠مادة (علم)، والقاموس المحيط: ٤/١٥٥ مادة (علم)، والمعجم الوسيط:٢/٦٢٤ مادة (علم)، وتقريب الوصول إلى علم الأصول:٤٥.

٨- ينظر: الوسائل التعليمية في عملية التعليم: ٢٠.

٩- ينظر: أسس تعلم اللغة وتعليمها: ٢٥.

١٠- هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور أو مروان الديلمي أبو زكريا المعروف بالفرّاء. وقيل له كذلك؛ لأنّه كان يفري الكلام، إمام العربية. كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي (ت١٨٩هـ)، أخذ عنه وعليه اعتمد، وأخذ عن يونس بن حبيب (١٨٢هـ). كان محبًّا للكلام

ميالاً إلى الاعتزال، متدينًا ورعًا. كان أكثر مقامًا ببغداد، دائم التردد على الكوفة، يفرق على أهله ما جمعه. كان شديد المعاش، لا يأكل حتى يمسه الجوع، وجمع مالاً خلفه لابن له شاطر، صنف الفراء: معاني القرآن، وفيما تلحن فيه العامة، واللغات، والتثنية في القرآن، وآلة الكتابة، والمقصور والممدود، وفعل وأفعل، والمذكر والمؤنث، وله غير ذلك. ينظر: بغية الوعاء: ٢/٣٣٣، وطبقات النحويين واللغويين: ١٣١-١٣٣.

١١- العاديات: ١٠.

١٢- لسان العرب: ١١/١٥٣.

١٣- علم النفس بين النظرية والتطبيق: ١٦٦.

١٤- معجم علم النفس: ٤-١٦.

١٥- موسوعة علم النفس والتحليل النفسي: ٥.

١٦- القياس والتقويم التربوي والنفسي: ٣٠٥-٣٠٦.

١٧- هو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس المشهور بابن مجاهد، كان واحد عصره غير مدافع، وكان مع فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات وعلوم القرآن حسن الأدب رقيق الخلق، كثير المداعبة، ثاقب الفطنة جوادًا. ولد سنة ٢٤٥هـ بسوق العطش ببغداد.. ينظر: معرفة القراء الكبار: ١/٢١٦، والفهرست ١٥٣-١٥٤.

١٨- هو أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني مولاهم البغدادي، أبو العباس ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة. ولد سنة ٢٠٠هـ، وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ٢١٦هـ، وحفظ كتب الفرّاء (ت٢٠٧هـ) فلم يشذ منها حرف، وعني بالشعر أكثر من غيره، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعاني والغريب، ولازم ابن الأعرابي (ت٢٣١هـ) بضع عشرة سنة، وسمع من سلمة بن عاصم، وروى منه محمد بن العباس اليزيدي (ت٢٦٠هـ) وأبو الحسن علي ابن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر(ت٣١٥هـ) وأبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه (ت٣٢٣هـ)، وأبو عمر الزاهد (ت ٣٤٥هـ) قال فيه بعضهم: إنما فضل أبو العباس أهل عصره بالحفظ للعلوم التي تضيق عنها الصدور. صنف المصون في النحو ومعاني القرآن، ومعاني الشعر، والوقف والابتداء، وغريب القرآن، ومجالس ثعلب، والفصيح، وغيرها، ينظر: بغية الوعاة: ١/٣٩٧-٣٩٨.

١٩- بغية الوعاة: ١/٣٩٧.

٢٠- هو أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المطرز المعروف بالزاهد، صاحب أبي العباس ثعلب(ت٢٩١هـ) ولد سنة ١٦١هـ. له كتاب (الياقوت في اللغة). ينظر: الفهرست: ٣٤٠-٣٤١، ووفيات الأعيان: ٤/٣٢٩-٣٣٠.

٢١- وفيات الأعيان: ١/٣٩٧.

٢٢- هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي. ولد ونشأ بمدينة بطليوس فنسب إليها، ولد سنة ٤٤٤هـ، نزل بلنسية بشرق الأندلس، وكان عالمًا باللغات والآداب، متبحرًا فيهما، وله يد في العلوم القديمة. انتصب لإقراء النحو، واجتمع له الناس. توفي في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. وله تصانيف كثيرة منها: شرح سقط الزند، وشرح الموطأ، والإنصاف، وشرح ديوان المتنبي، والمسائل المنثورة في النحو، وكتب ورسائل لم تصل إلينا. ينظر: بغية الوعاة: ٢/٥٥-٥٦.

٢٣- هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن نباتة بن الحجاج بن مطر التميمي السعدي، كان شاعرًا مجيدًا، جمع بين حسن السبك وجودة المعنى طاف البلاد ومدح الملوك والوزراء والرؤساء، وله في سيف الدولة ابن حمدان غر القصائد ونخب المدائح ومعظم شعره جيد، وله ديوان كبير، وكانت ولادته سنة ٣٢٧هـ، وتوفي ببغداد ودفن- رحمه الله تعالى - قبل الظهر بمقبرة الخيزران من الجانب الشرقي، ينظر: وفيات الأعيان: ٣/١٩١-١٩٢، والفهرست: ٧٤١.

٢٤- ينظر: الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم: هامش٢٧ص٨١، نقلاً عن كنايات الجرجاني: ١٣٥، ويعد هذا أحد التعبيرات الاصطلاحية والسياقية المشكلة في اللغة العربية مثل ذلك الرجل الذي استعصى على فهمه وحير لبه طلوع الثريد في رؤوس العيدان. ينظر: التعابير الاصطلاحية والسياقية ومعجم عربي لها، المجلد السابع عشر: الجزء ١/١٨.

٢٥- هو أبو الحسن، زكريا القزويني الرازي. من أئمة اللغة والأدب، له رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة يعايي بها الفقهاء، وكان كريمًا جوادًا لا يبقي شيئًا، ربما سئل فيهب ثياب جسمه، وفرش بيته. أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري ومات فيها، قرأ عليه الصاحب ابن عباد (ت٣٨٥هـ) وبديع الزمان الهمداني (ت٣٩٨هـ) وغيرهما. له تصانيف كثيرة منها: المجمل ومعجم مقاييس اللغة، وهما معجما ألفاظ، الأول مختصر والثاني مفصّل، ومتخير الألفاظ، وهو معجم معاني، والصاحبي في فقه اللغة، وحلية الفقهاء، وكفاية المتعلمين في اختلاف النحويين، وكتاب الليل والنهار، وأصول الفقه، وينظر: معجم الأدباء: ٤/٨٠-٩٠، ووفيات الأعيان: ١/٣٥-٣٦، وإنباه الرواة على أنباه النحاة: ١/٨٦.

٢٦- الصاحبي في فقه اللغة: ٣٤-٣٥.

٢٧- هو الحسن بن أبي الحسين البصري، يكنى أبا سعيد، ولد في خلافة عمر (ت٢٣هـ)، رضي الله عنه، وحنكه

عمر بيده، وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ﷺ، فربما غابت، فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه فيدر عليه ثديها فيشربه، فكانوا يقولون: فصاحته من بركة ذلك. عاصر الحسن خلقًا من الصحابة، فأرسل الحديث على بعضهم، وسمع من بعضهم، كما يعد الحسن البصري أول خطاط في سلسلة الخطاطين الموجودين بعد علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ)، ينظر: صفوة الصفوة:٣/١٦٤-١٦٧، ومعجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين:١٤.

٢٨- المكتب: موضع التعليم، ويرى الفيروزآبادي(٨١٧هـ) أنّ في قول الجوهري(ت٣٥٨هـ): "الكتاب والمكتب واحد غلط". ينظر: القاموس المحيط:١/١٢٦، مادة (كتب).

٢٩- شرح مشكل شعر المتنبي: ٢١٨.

٣٠- هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري أبو العباس المبرد، بكسر الراء: المثبت للحق، فغيره الكوفيون ففتحوا الراء؛ كان أبو العباس الذي ولد سنة ٢١٠ إمام العربية ببغداد في زمانه، أخذ عن أبي عثمان المازني (ت٢٤٩هـ)، وأبي حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ)، وكان شاعرًا فصيحًا بليغًا مفوهًا، ثقة إخباريًّا علامة، صاحب نوادر وظرافة، وكان جميلاً، ولا سيما في صباه. من آثاره: معاني القرآن، والمقتضب، والكامل في اللغة والأدب، والمقصور والممدود، والاشتقاق، وإعراب القرآن، وما اتفق لفظه واختلف معناه، وطبقات النحويين البصريين، ينظر بغية الوعاة: ٢٦٩-٢٧٠، وطبقات النحويين واللغويين: ١٠١-١١٠.

٣١- هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني، أحد بني مازن بن شيبان بن ذهل، وقيل بني سدوس. قرأ على أبي الحسن الأخفش (ت٢١٥هـ) كتاب سيبويه، وعمله على الجرمي (ت٢٢٥هـ) ثم اختلف إليه، وقد برع فكان يناظره. وكان إمامًا في العربية متسعًا في الرواية، وكان لا يناظره أحد إلا قطعه لقدرته على الكلام. وقال المبرد(ت٢٨٥هـ): لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان، وله من التصانيف: كتاب في القرآن وعلل النحو، وتفاسير كتاب سيبويه، وما تلحن فيه العامة، وغيرها كثير، ينظر: المصدران السابقان: ٨٧-٩٣، ١/٤٦٣-٤٦٥.

٣٢- هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، مولى بني تَيْم: تيم قريش، رهط أبي بكر الصديق. أخذ عن أبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ)، ويونس بن حبيب (ت١٨٢هـ) النحو والشعر والغريب. ولد في البصرة سنة١١٢هـ على الأرجح، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد، وقرأ عليه أشياء من كتبه. وكان من أجمع الناس للعلم، وأعلمهم بأيام العرب وأخبارهم، وأكثر الناس رواية، وهو أول من صنف في غريب الحديث. وعن منزلته العلمية يقول الجاحظ(ت٢٥٥هـ): "لم يكن في الأرض خارجي (لأنه كان يقال: إنه كان خارجيًّا يرى رأي الخوارج الإباضية، وكان شعوبيًّا)، ولا جماعي أبصر منه بجميع العلوم من أبي عبيدة". صنّف المجاز في غريب القرآن، والأمثال في غريب الحديث، ومعاني القرآن، وأيام العرب، وخلق الإنسان، وما تلحن فيه العامة وغيرها كثير. ينظر طبقات النحويين واللغويين: ١٧٥-١٧٨، وبغية الوعاة:٢/٢٩٤-٢٩٦، والفهرست :٢٣٩، والبيان والتبيين:١/٣٣١، ووفيات الأعيان: ٥/٢٣٨، وإذا كان لنا أن نبدي رأيًا في أمر شعوبية أبي عبيدة وفق ما رآه الجاحظ، فإننا نستبعد هذا الأمر؛ لأنه لا يتعدى الآحاد، كما لا يعدو أن يكون رد فعل لحادثة معينة أو لأكثر من حادثة، وبخاصة أننا لا نعرف الظروف التي برز فيها مثل هذا التفضيل.

٣٣- خوزي: نسبة إلى الخوز، وهي اسم لجميع بلاد خوزستان، وهي البلاد التي تمتد بين فارس والبصرة، وهي بلاد كبيرة وعمل فسيح، وماؤها صحيح. يتكلم أهلها بالفارسية والعربية ولسان آخر يستعملونه بينهم، وزيهم زي أهل العراق يلبسون القمص والطيالسة، وفي أنفسهم وطباعهم الشر وتنافس بعضهم على بعض، وفي ألوانهم صفرة وسمرة، ينظر: الروض المعطار في خير الأقطار:٢٢٥مادة (خوزستان)، والقاموس المحيط:٢/١٨٢، مادة (الخوز). والطيالسة: جمع الطيلسان، أعجمي معرب، أصله تالسان، وهو ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، خالٍ من التفصيل والخياطة، والعمائم، وهو ما يعرف عند العامة بالشال. ويقال في الشتم: يا ابن الطيلسان أي إنك أعجمي. وفي الطيلسان لغتان أخريان الطيلس والطالسان. ينظر: القاموس المحيط:٢/٢٢٤-٢٢٥، والمعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم:٢٧٥، والمعجم الوسيط:٢/٥٦١-٥٦٢. مادة (طلس).

٣٤- القطيفة: دثار مخمل، أي ثوب أو كساء ذو أهداب، جمع قطائف. ينظر: القاموس المحيط:٣/١٩٢، مادة (قطف) والمعجم الوسيط:٢/٧٤٧، مادة (قطف).

٣٥- بغية الوعاة:١/٤٦٤.

٣٦- هو عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ، أحد شيوخ المعتزلة، ولد بالبصرة سنة ١٥٠هـ، عمّر أكثر من تسعين سنة، فعاصر الخلفاء هارون الرشيد(ت١٧٠هـ) والأمين (ت١٩٣هـ) والمأمون(ت١٩٨هـ) والمعتصم (ت٢١٨هـ) والواثق(ت٢٢٧هـ) والمتوكل(٢٣٢هـ) والمنتصر(٢٤٧هـ) والمستعين (ت ٢٤٨هـ)

والمعتز(ت٢٥٢هـ)، والمهتدي(ت٢٥٥هـ). استقى الجاحظ العلم من مناهل عديدة، فبالإضافة إلى المساجد والنوادي التي كان يرتادها وجلوسه إلى شيوخ البصرة من النحاة واللغويين أمثال قطرب (ت بعد ٢٠٦هـ) وأبي عبيدة (ت٢١٠هـ) وأبي زيد الأنصاري (ت٢١٥هـ) والأخفش الأوسط (ت٢١٥هـ) والأصمعي(ت٢١٣هـ)، وابن الأعرابي (ت٢٣١هـ)؛ وثمامة بن أشرس النميري (ت٢١٣هـ) وإبراهيم النظام(ت٢٢١هـ) من المعتزلة، قصد سوق المربد أين تلقف الفصاحة من الأعراب مشافهة وسماعًا، له كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكتاب العرجان والبرصان والقرعان، وغيرها. ينظر: معجم الأدباء:٥٦/٦، وبغية الوعاة: ٢٢٨/٢.

٣٧- الحيوان:٥٥/١ (السماع والكتابة).

٣٨- المصدر نفسه: ٥٨/١(فضل العلم).

٣٩- المصدر نفسه ٥٩/١-٦٠، (التخصص بضروب العلم).

٤٠- هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب بسيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط القول والتأليف فيه، بعد أن تتلمذ على الخليل، وأخذ عنه معظم كتابه (ت١٧٥هـ)، ولد في إحدى قرى شيراز سنة ١٤٨هـ، وقدم البصرة، فلزم الخليل. له كثير من المناظرات أهمها تلك التي جمعته بالكسائي (ت١٨٩هـ) واشتهرت بالمسألة الزنبورية، كان شابًا نظيفًا جميلاً، وكان في لسانه حبسة، وقلمه أبلغ من لسانه. ينظر: بغية الوعاة: ٢٢٩/٢-٢٣٠.

٤١- هو أشهر الأخافش المشهورين. وهو سعيد بن مسعده المجاشعي، مولى بني مشاجع؛ يكنى أبا الحسن، ويعرف بالأخفش الصغير أو الأصغر؛ لأنّ الأخفش الكبير عبد الحميد بن عبد المجيد، ويكنى أبا الخطاب (ت١٥٧هـ، أو ١٧٧هـ) فلما ظهر أبو الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر أو الصغير(ت٣١٥هـ)، أيضًا صار سعيد بن مسعدة وسطًا. سكن البصرة وكان أجلع لا تنطبق شفتاه على لسانه. قرأ النحو على سيبويه (ت١٨٠هـ)، وكان أسنّ منه، صحب الخليل (ت١٧٥هـ) قبل صحبته لسيبويه، وكان معلمًا لولد الكسائي (ت١٨٩هـ)، وكان معتزليًا، وروى عنه أبو حاتم السجستاني(٢٥٥هـ)، ودخل بغداد، وأقام بها مدة، وروى وصنف بها: الأوسط في النحو، ومعاني القرآن، والمقاييس في النحو، والمسائل الكبير، والقوافي، والأصوات، وغير ذلك. ينظر: طبقات النحويين واللغويين: ٧٢-٧٤، وبغية الوعاة: ٥٩٠/١-٥٩١. والخفش: صغر العين وضعف البصر خلقة أو فساد في الجفون بلا وجع، أو إبصار بالليل دون النهار، وفي يوم غيم دون صحو. ينظر القاموس المحيط:٢٨٣/٢، مادة (خفش).

٤٢- هو أبو عمر صالح بن إسحاق البجلي. مولى جرم بن زبان. نزل في جرم فنسب إليهم، وكان يلقب بالنباح لصياحه حال مناظرة أبي زيد الأنصاري (ت٢١٥هـ). أخذ عن أبي الحسن الأخفش. قال لأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) يومًا: "أنا لم أضع كتابًا في النحو؛ إنما اختصرت كتاب سيبويه" (ت١٨٠هـ)، قال له أبو حاتم: "وذاك لو كنت تحسن تختصره، وقال لأبي حاتم وهو يذم مختصر الجرمي: "ما أحد يأخذ ذلك الكتاب إلا رمى به، وذلك كان لا يحسن أن يضع كتابًا؟!." غير أنّ هناك من العلماء من أثنى عليه فيه. فقد قال أبو العباس ابن الفرج الرياشي البصري(ت٢٥١هـ)، وسأله ابنه: "أيهما أحب إليك؟ كتاب أبي عمر في النحو، أم كتاب الأخفش؟ (يقصد كتابه "المسائل الكبير في النحو")، فقال: "كتاب أبي عمر". وعن نفسه يقول الجرمي: "نظرت في كتاب سيبويه، فإذا فيه ألف وخمسون بيتًا، فأما الألف فعرفت أسماء قائليها، وأما الخمسون فلم أعرف قائليها: "وله من التصانيف: كتاب الأبنية ، وكتاب العروض، وغير ذلك، ينظر: طبقات النحويين واللغويين:٧٥، وبغية الوعاة: ٩/٨.

٤٣- بغية الوعاة:٤٦٤/١.

٤٤- هو عثمان بن جني - بسكون الياء معرب- كنشي أبو الفتح النحوي. ولد قبل سنة ٣٣٠هـ. وكان من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف. وكان المتنبي (ت٣٥٤هـ) يقول فيه: هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس. صنف الخصائص وسر الإعراب والمحتسب والفسر أو شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، وغيرها كثير. ينظر: بغية الوعاة: ١٣٢/٢.

٤٥- هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان. أبو علي الفارسي الفسوي النحوي. ولد في فسا، وهي مدينة من أعمال خراسان سنة ٢٢٧هـ، من أب فارسي، وأم عربية من قبيلة سدوس شيبان. كان أوحد زمانه في علم العربية، أخذ عن الزجاج(ت٣١١هـ) وابن السراج وغيرهما، وطوف بلاد الشام. وبرع من طلبته جماعة كابن جني (ت٣٩٢هـ) الذي حكى عنه قوله: أخطئ في مائة مسألة لغوية ولا أخطئ في واحدة قياسية، وأثنى على ما كان يستروح إليه من مسائل لغوية في كتابه الخصائص. تقدم عند عضد الدولة؛ وله صنف الإيضاح في النحو، والتكملة في التصريف. من آثاره: التذكرة والمسائل العضديات، وتعليقة على كتاب سيبويه، والمسائل الحلبية. ولم يقل من الشعر إلا ثلاثة أبيات هي:

خضبت الشيب لما كان عيبًا
وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل
ولا عتبًا خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميمًا
فصيرت الخضاب له عقابا

ينظر: بغية الوعاة: ١/٤٩٦-٤٩٨.

٤٦- المصدر نفسه:٢/١٣٢.

٤٧- الحيوان: ٦/٣٢. (ما يجب في التعليم).

٤٨- من نحو ما قال أبو العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ) لابن الخياط النحوي البغدادي (ت٣٢٩هـ) عن كتاب الأخفش: "المسائل الكبير في النحو": "ويحك! صاحبك هذا مجنون يتكلم بما لا يفهم"، فقال ابن خياط: "وأي شيء وقفت عليه من هذا؟ فقال ثعلب: كم منى مكان السارية رجل وكم منى مكان السارية ذراع؛ في غير هذا من المسائل.؟ فأجابه ابن خياط: "هذا رجل أشرف على بحر فهو يتكلم منه بما يريد فسكت". ينظر: طبقات النحويين واللغويين:٧٤.

٤٩- هو علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان أبو الحسن الكسائي الكوفي، مولى بني أسد، ولد في حدود سنة ١٢٠هـ. يعد إمامًا في اللغة والنحو وأحد القراء السبعة المشهورين. وسمي الكسائي لأنه أحرم في كساء، وقيل لغير ذلك. قرأ النحو على كبر، ورحل إلى البصرة وأخذ العربية عن الخليل، وتنقل في البادية، وأنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ، أخذ عن أبي جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي، ودخل الكوفة وهو غلام، كان مؤدب ولد الرشيد الأمين، وكان أثيرًا عنده، حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤنسين. كان الكسائي أعلم الناس، ضابطًا عالمًا بالعربية، قارئًا صدوقًا. وكان كثير المناظرة، أشهرها تلك التي جمعته بسيبويه والتي عرفت بالمسألة الزنبورية. سكن بغداد ومات في الري. صنف معاني القرآن، ومختصرًا في النحو، والقراءات، والنوادر الكبير والأوسط، والأصغر، وما تلحن فيه العامة، وغيرها، ينظر: معرفة القراء الكبار:١/١٠٠-١٠٧، بغية الوعاة:٢/١٦٢-١٦٤، وطبقات النحويين واللغويين: ١٢٧.

٥٠- الحيوان: ١/٩١-٩٢ باب (استغلاق كتب أبي الحسن الأخفش)، وقد جاء فيه: وقلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو؛ فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضًا ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟!

٥١- المصدر السابق:١/٩٢.

٥٢- هو محمد بن يونس الحضرمي البغدادي المطرز المقرئ، متصدر مشهور، أخذ القراءة عرضًا وسماعًا عن الجماعة، ينظر: معرفة القراء الكبار:١/٢٢٨.

٥٣- لعل ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) قصد به عروة بن رؤيم اللخمي. كان كثير الحديث. توفي سنة ١٣٢هـ، ينظر الطبقات الكبرى: ٧/٦٦٠. غير أنه لا يستبعد أن يكون المعني هو: إبراهيم بن خلاد اللخمي. من أهل البيرة (بين القبلة والشرق من قرطبة) من القراء السبعة الذين كانوا بألبيرة – في وقت واحد– من رواة سحنون بن الهيثم المقرئ (ت ٩٠هـ) . توفي سنة ١٧٠، ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس: ١/١٨، والروض المعطار في خبر الأقطار:٢٨، أو أحمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي الفاضل الخير، سمع من أبيه واستقضى بقرطبة وولي صلاة الجماعة بها ثم عزل وخرج حاجًّا، فتوفي بمصر سنة ٢٠٥هـ (ينظر تاريخ الرواة للعلم بالأندلس:١/٣٣. أو هو أحمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن حبيب ، ينظر: المصدر نفسه: ١/٣٩، أو أحمد بن عبد السلام بن زياد اللخمي من أهل رية (في قبلي قرطبة). كان عالمًا فاضلاً، ذا عفاف وزهد، وولي الصلاة بموضعه وكف بصره في آخر عمره، المصدر نفسه: ١/٢٦٥، والروض المعطار في خبر الأقطار: ٢٧٩، أو أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن كنانة اللخمي من أهل قرطبة؛ يعرف بابن العنان، ويكنى أبا عمر (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس:١/٦٩)، أو طليب بن الكامل اللخمي، يكنى أبا خالد. وهو أيضًا عبد الله بن كامل، له اسمان. أندلسي سكن الاسكندرية، توفي سنة ١٧٣هـ (ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس:١/٢٤٦. أو عبد الله بن خلف اللخمي العباسي. من أهل إشبيلية (مدينة موفية على النهر بينها وبين قرطبة ثمانون ميلاً)، ولي القضاء بها في أيام الأمير عبد الله سنتين، ثم عزل عنه، وأقام الصلاة إلى أن توفي نحو ٢٣٣هـ. ينظر المصدر نفسه:١/٢٦٦، والروض المعطار في خبر الأقطار:٥٨-٥٩، أو عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمي المعروف بابن الباجي، من أهل إشبيلية؛ يكنَّى أبا محمد، رحل إلى البيرة فسمع بها من أبي سعيد عثمان بن جرير بن حميد الكلابي (ت١٣٣هـ)، وكان ضابطًا لروايته، ثقة، صدوقًا حافظًا للحديث،

عملية التبليغ بين الإلمام والإتقان مقدمة في التعليمية العربية

بصيرًا بمعانيه، كثير الضبط له، حدَّث نحوًا من خمسين سنة، وسمع الناس منه كثيرًا ذكر ابن الفرضي (ت٤٠٣هـ) أنه سمع منه بقرطبة، ورحل إليه إلى إشبيلية رحلتين. توفي سنة ٣٧٨هـ، ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس:١/٢٨١، أو عزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن عبد الواحد بن صبيح اللَّخمي. دخل مع موسى بن نصير (٢٠-٨٩هـ). من فقهاء مالقة (مدينة بالأندلس على شاطئ البحر، عليها سور صخر)؛ يكنَّى أبا هريرة. كان فقيهًا عالمًا متفننًا بصيرًا بالمسائل موثقًا. (ينظر: المصدر نفسه: ١/٣٨٥، والروض المعطار في خبر الأقطار: ٥١٧، أو علي بن رباح بن قصير اللخمي، مصري بضم العين وفتح اللام، ثقة، ويقال إنّ ابنه موسى كان يحرج على من يصغّر عليًا ، ينظر: الاقتراح في بيان الاصطلاح:٦٤، أو هو أبو العباس أحمد ابن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطيئة اللخمي الفاسي، من مشاهير العلماء وأعيانهم، وكان رأسًا في القراءات السبع، وكان جيد الخط، حسن الضبط، والكتب التي توجد بخطه مرغوب فيها للتبرك بها ولإتقانها، ولد سنة ٤٧٨هـ بفاس، وانتقل إلى الديار المصرية، ولأهلها فيه اعتقاد كبير لما رأوه من صلاحه، وكان قد حج ودخل الشام واستوطن خارج مصرفي جامع راشدة، وكان لا يقبل لأحد شيئًا ولا يرتزق على الإقراء. توفي سنة ٥٦٠هـ بمصر، ودفن في القرافة الصغرى، وقبره يزار بها، ينظر: وفيات الأعيان: ١/١٧٠-١٧١، أو علي بن المفضل بن علي، الإمام الحافظ، أبو الحسن اللخمي المقدسي الفقيه المالكي، توفي سنة ٦١١هـ. ينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب:٥/٤٧.

٥٤- هو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان أبو عمرو، وأبو محمد النهرواني، مقرئ دمشق وإمام الجامع، لم يكن بالعراق ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان مثله في زمانه، ينظر: معرفة القراء الكبار: ١/١٦٣-١٦٥.

٥٥- هو جمال الدين عثمان بن عمر أبو عمرو بن الحاجب الكردي الدويني الأصل الإسنائي المولد (من الصعيد بمصر)، المقرئ النحوي المالكي الأصولي الفقيه - صاحب التآليف المنقحة - ولد سنة ٥٧٠هـ أو ٥٧١هـ، حفظ القرآن، وأخذ بعض القراءات عن الشاطبي (ت٥٩٠هـ) وتأدب عليه وعلى ابن البناء (ت٥٧١هـ)، وسمع من البوصيري، ولزم الاشتغال حتى برع في الأصول والعربية، وكان من أذكياء العالم اشتغل في صغره بالقاهرة، وقدم بغداد في كبره، ودرس بجامعها في زاوية المالكية، وأكبّ الفضلاء على الأخذ منه، وكان الأغلب عليه النحو. صنّف في الأصول والفقه مختصرا ومجملا، وفي النحو "الكافية وشرحها ونظمها، وفي التصريف:" الشافية وشرحها وغيرها كثير. كان إذا سئل في علم العربية يجيب بسكون كثير، وتثبُّت تام. توفي بالاسكندرية، ينظر: بغية الوعاة:٢/١٣٤-١٣٥.

٥٦- هو أبو عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله بن مالك الطائي نسبًا، الجياني منشأ المالكي مذهبًا حين كان بالمغرب، الشافعي حين انتقل إلى المشرق، النحوي. ولد سنة ٦٠٠هـ بجيان إحدى مدن الأندلس شرقي قرطبة، وينتسب إلى قبيلة طيّئ. كان بارعًا في الأصول والعربية . درس بالأسدية بحلب، وبعدها انتقل إلى القاهرة، ثم عاد إلى دمشق، وبها مات . وكان أحد أئمة المعقول، حسن الشيبة. توفي بدمشق، وله مصنفات عدّة أشهرها: منظومته النحوية التي عرفت بـ"الألفية"، وقد شرحها كثيرون، ومنها: لامية الأفعال، والتسهيل، وغيرها، ينظر: نفح الطيب:٣/٢٤٨، بغية الوعاة: ٢/٥٤.

٥٧- هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام: من أئمة العربية، ولد بمصر سنة ٧٠٨هـ، وفيها توفي سنة ٧٦١هـ. من كتبه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، الذي اشتهر في حياته وأقبل الناس عليه، و"عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب"، وغيرهما كثير. ينظر: بغية الوعاة: ٢/٦٨-٦٩.

٥٨- المائدة:٥٤.

٥٩- مقدمة ابن خلدون: ٥٢٧-٥٢٨.

٦٠- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي:٣٠٩-٣١٠، وفقه اللغة في الكتب العربية: ٦٧، وعوامل التطور اللغوي: ١٥٦.

٦١- ينظر: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث: ١٢١، والمعجم العربي بحوث في المنهج والمادة والتطبيق:٢٥٤، وعوامل التطور اللغوي:١٥٧.

٦٢- لاحظ بعض المحدثين على القدماء في استخدامهم لمصطلح (المقام) أنّ نظرتهم إليه اتسمت بالمعيارية، فقضوا أن يأتي الكلام مؤكدًا للمنكر وجوبًا، وللمتردد استحسانًا، أوجبوا أن يأتي الكلام خلوًا من التأكيد إذا لم يكن المخاطب منكرا ولم ينزل منزلته وهكذا، ينظر:وصف اللغة العربية دلاليًا:١٣٧.

٦٣- هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن، ابن خلدون نسبة إلى جدّه خالد المعروف بخلدون. ويكنى أبا زيد. ويلقب بولي الدين لتوليه قضاء المالكية بمصر، وينتهي نسبه إلى وائل بن حجر من عرب اليمن. ولد ابن خلدون بتونس سنة ٧٣٢هـ، وأجداده أندلسيون من إشبيلية. درس على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا من تونس، واستقروا فيها،

فقرأ عليهم القرآن الكريم بالقراءات السبع إفرادًا وجمعًا في إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعها في ختمة واحدة، وعرض بعد ذلك قصيدتي أبي القاسم بن فيرة ابن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي (٥٩٠هـ) اللامية والرائية وكتاب التفصي لأحاديث الموطأ لابن عبد البر (٤٦٣هـ)، ودارسهم كتبًا عدّة نحو كتاب التسهيل لابن مالك (٦٨٢هـ)، ومختصر ابن الحاجب (٦٤٦هـ) في الفقه، ثم تعلم صناعة العربية، وحفظ كتاب الأشعار الستة والحماسة ليوسف بن سليمان الشنتمري المعروف بالأعلم (ت٤٧٦هـ)، وطائفة من شعر المتنبي ومن أشعار كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، وقرأ مختصر المدونة وكتاب المالكية، كما أخذ النحو والفقه عن إمام المحدثين والنحاة بالمغرب أبي محمد بن عبد المهيمن الحضرمي (ت٧٤٠هـ)، وأخذ العلوم العقلية من منطق وحكمة عن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي (ت٧٥٧هـ). إلا أنه لما بلغ (ابن خلدون) السابعة من عمره أي في سنة ٧٤٩هـ انتشر وباء الطاعون الذي ذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة، وأبويه، الأمر الذي حال دون متابعته دروسه، وقد نشأ مكبًا على تحصيل العلم حريصًا على اقتناء الفضائل متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته. وفي شبابه انغمر ابن خلدون في حياة سياسية حافلة في بلاط الحفصيين في تونس، أو في بني عبد الواد في تلمسان واجتذبه بلاط بني مرين في فاس للخدمة فيه، وهناك اتصل ابن خلدون بالوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) حينما نفي مع سلطانه إلى المغرب، وتوطّدت صداقة متينة بينهما امتدت إلى حين وفاة ابن الخطيب في محبسه: آثر بعدها ابن خلدون الاعتزال والانطواء، أربع سنوات (٧٧٦هـ-٧٨٠هـ) قضاها في قلعة بني سلامة أو قلعة توغزوت التي تقع بعد خمسة كيلومترات من مدينة فرندة الحالية في ولاية تيهارت غربي الجزائر، وبها مغارة كبيرة يظن أنّ ابن خلدون كتب مقدمته فيها. ومن أشهر مصنفاته: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، والتعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، وتلخيص محصل كتاب فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، وتقييد المنطق، وهو كتاب في الحساب، ولخص كثيرًا من كتب ابن رشد (ت٥٩٥هـ)، وشرح قصيدة البردة للبوصيري، وشرح أرجوزة في الفقه للسان الدين بن الخطيب. كما كانت له قصائد في السلاطين تتراوح بين الجودة والرداءة، ينظر: التعريف بابن خلدون:٣-٣٦٥، ونفح الطيب:٨/٢٧٧-٢٨٦.

٦٤- ينظر علم اللغة بين القديم والحديث: ٢١٤.

٦٥- الخصائص:١/٢٤٨.

٦٦- هو علي بن أحمد ، ويكنى أبا الحسن، نحوي ومفسّر. من أهم كتبه التي وصلت إلينا (أسباب النزول)، ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة:١/١٩.

٦٧- أسباب النزول: ١٠، ولم يكن الواحدي، كما قال صبحي الصالح، مبالغًا في اشتراطه المعرفة بالقصة؛ لأنّ التعبير عن سبب النزول (بالقصة) لينم عن ذوق رفيع، ويكاد يشي هنا بالغاية الفنيّة إلى جانب الغرض الديني النبيل: فما سبب النزول إلا قصة تستمد من الواقع عرضها وحلها، وعقدتها وحبكتها، وأشخاصها وأحداثها، وتجعل آيات القرآن تتلى في كل زمان ومكان بشغف وولوع، وتطرد السأمة عن جميع القارئين بما توالى عرضه من حكايات أمثالهم وأقاصيص أسلافهم، كأنها حكاياتهم هم؛ إذ يرتلون آيات الله، أو أقاصيصهم هم ساعة يطربون لألحان السماء! من أجل هذا كان جهل الناس بأسباب النزول كثيرًا ما يوقعهم في اللبس والإبهام، فيفهمون الآيات على غير وجهها، ولا يصيبون الحكمة الإلهية من تنزيلها. ولولا بيان سبب النزول لظلّ الناس إلى يومنا هذا يبيحون تناول المسكرات أخذًا بظاهر بعض آي القرآن الكريم. ولولا أسباب النزول لأباح الناس لأنفسهم التوجّه إلى الصلاة إلى الناحية التي يرغبون، عملاً بالمتبادر من أقواله تعالى، ينظر تفصيل ذلك وأمثلته من القرآن الكريم وسير الأولين: الإتقان في علم القرآن: ١/٢٨-٢٩، ومباحث في علوم القرآن: ١٣٠-١٣١.

٦٨- المصدر السابق نفسه.

٦٩- هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بكر بن محمد ابن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد ابن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبو الصلاح أيوب ابن ناصر الدين محمد بن الشيخ الهمام الخضيري، الأسيوطي نسبة، ويكنى بأبي الفضل، ولد في مستهل رجب من سنة ٨٤٩هـ ونشأ في بيت زهد وعلم وتقوى، وقد تفتحت عيناه ووجد والده يختم القرآن الكريم كل أسبوع، ومن حيث يرى كتب العلم أمامه في كل ركن من أركان البيت، وهو المدرسة الأولى التي يخرج فيها الخريجون. تتلمذ على يد الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٦٢هـ) وله منه إجازة. شرع في حفظ القرآن في سن مبكرة على يد والده ثم مات والده وهو صغير ورعته والدته، التي اسندت وصايته، من بعده إلى جماعة منهم الكمال بن الهمام (ت٨٦١هـ)، فقرره في وظيفة الشيخونية ولحظه بنظره. واستمرت رحلته بحفظ متون العلم فتبحر في علوم: التفسير والحديث والفقه والفرائض والقراءات والنحو واللغة، والمعاني والبديع، وغيرها كثير، اشتغل طوال حياته بالتدريس والفتيا إلى أن حال بينه وبينهما

الضعف والتقدم في السن، فألف كتابه (التنفيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس)، فتجرد للعبادة والتأليف فخلف العديد من المؤلفات وصل إلينا جلّها. فقد ذكر ابن إياس (ت٩٣٠هـ) أنّ مؤلفاته بلغت ستمائة مؤلف، منها: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، والإتقان في علوم القرآن، وتفسير الجلالين، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، وتاريخ الخلفاء، وطبقات الحفاظ. ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ١٥٢/٨، وطبقات الحفاظ:٥٤٨/١٢.

٧٠- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني الدمشقي، تقي الدين، أبو العباس ابن تيمية، الإمام الفقيه المفسر الحافظ المحدث، شيخ الإسلام، ولد في حرّان سنة ٦٦١هـ وتحول به أبوه إلى دمشق ٦٦٧هـ فنبغ واشتهر وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها، فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية، ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠، وأطلق، وأعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التدين، والذكر والصيانة والنزاهة عن حطام هذه الدار، مقبلاً على الفقه ودقائقه. وأما أصول الدين ومعرفة أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمبتدعة فكان لا يشق له فيها غبار، مع ما كان عليه من الكرم الذي لم يشاهد مثله، والشجاعة المفرطة، والفراغ عن ملاذ النفس. أما تصانيفه، فقد ذكر الكتبي (ت٧٦٤هـ) أنها تبلغ ثلاثمائة مجلد، في التفسير، وإصلاح الراعي والرعيّه، والواسطة بين الحق والخلق، والصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ. ينظر: فوات الوفيات: ٧٤/١-٧٨، والأعلام: ١٤٤/١.

٧١- الإتقان في علوم القرآن:٢٨/١.

٧٢- الخصائص: ١/ ٢٤٨.

٧٣- الصاحبي: في فقه اللغة: ٩٦- ٩٧.

٧٤- الحماميون: هم أصحاب الحمامات كما يطلق على العاملين فيه. ينظر: المعجم الوسيط:٢٠٠/١، مادة (حم)، وأساس البلاغة:١٤٧، مادة (حمي) والقاموس المحيط:٤/ ١٠١-١٠٢مادة (حم)، أما إذا كان المقصود "الحماميون" فهم مربو الحمام، أو لعلّه بمعنى الحامة وهم العامة (ينظر: لسان العرب:١٥٤/١٢، مادة حمم، وهو ما قد يستجيب كذلك لسياق النص، إن كان الجوهري جعلها للخاصة. يقال: حامّة الرجل: أقرباؤه. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ١٩٠٧، مادة حمم.

٧٥- يريد ساسة الدواب القائمين عليها. ينظر: القاموس المحيط:٢٣٠/٢، (مادة السّوس) وأساس البلاغة:٣١٢، مادة (سوس).

٧٦- الوقادون: جمع وقّاد، وهم الذين يسرجون السُّرج. ينظر: القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب:٤٨.

٧٧- هو أبو عمرو بن العلاء المازني المقرئ النحوي البصري الإمام مقرئ أهل البصرة، اسمه زبان- على الأصح بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التيمي المازني. وقيل اسمه العريان، وقيل يحيى، وقيل محبوب، وقيل جنيد، وقيل عيينة، وقيل عثمان، وقيل عياد. وقال الأصمعي(ت٢١٣هـ) وعمر بن شبه (ت٢٦٢هـ): اسمه كنيته. قال أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) يقال: إنه ولد بمكة سنة ٦٨هـ، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة وإليه انتهت الإمامة في القراءة بالبصرة، قال الأصمعي: سمعت أبا عمرو يقول: كنت رأسًا والحسن البصري (ت ١١٠هـ) حي، وقال أحمد بن محمد اليزيدي (ت٢٦٠هـ)، كان أبو عمرو قد عرف القراءات، فقرأ من كل قراءة أحسنها، وبما يختار العرب، ومما بلغه من لغة النبي ﷺ، وجاء تصديقه في كتاب الله عز وجلّ. وقال أبو العيناء(ت٢٨٣هـ) عن أبي عبيدة(٢١٠هـ): كان أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب، والشعر وأيام الناس. وكان لأبي عمرو بيت مملوء بالكتب حتى السقف فتنسك فأحرقها.. ينظر: معرفة القراء الكبار: ٨٣-٨٧، وطبقات النحويين واللغويين:٣٥/ ٤٠.

٧٨- هناه: كناية عن الرجل. ويقال: يا هن ويا هناه أقبل، ولها يا هنة أقبلي. ولا تستعمل إلا في النداء. المعجم الوسيط:٩٩٨/٢، مادة (الهن) والقاموس المحيط ٤٠٧/٤، مادة (الهنو) وأوردها الجاحظ مثالاً للاستعانة المخلّة بالبلاغة ورد استعمالها عند مقاطع الكلام إلى عيٍّ وفسادٍ. ينظر: البيان والتبيين: ١/ ١١٣.

٧٩- الخصائص:٢٤٦/١-٢٤٧.

٨٠- المنكب: مجتمع الرأس والعضد والكتف وطرف الترقوة، ينظر: المخصص:١٥٩/١. باب المنكب والكتف وما فيهما؟

٨١- الدلّ: إظهار المرأة الجرأة والتغنج والملاحة. ينظر: أساس البلاغة: ١٩٣، مادة (دلل)، ومعجم مقاييس اللغة:٢٦٠/١.

٨٢- الشكل: دلّ المرأة وغنجها وغزلها. القاموس المحيط:٤١٣/٣، مادة (الشكل).

٨٣- التقتل: الاختيال والتثني في المشية: المصدر نفسه:٣٦/٤، مادة (قتل).

٨٤- التثني: التكسر في المشي، المصدر نفسه: ٣١٠/٤، مادة (ثني) وأساس البلاغة: ٧٨ مادة (ثني).

٨٥- البيان والتبيين: ٧٧/١-٧٩.

٨٦- النبر: أو الارتكاز أو الضغط وهو درجة قوة النفس التي ينطق بها صوت أو مقطع. فدرجة قوة النفس في نطق الأصوات والمقاطع المختلفة تتفاوت تفاوتًا بينًا. فالصوت أو المقطع الذي ينطق بارتكاز أكبر يتضمن طاقة أعظم نسبيًّا ويتطلب من أعضاء النطق الخاصة جهدًا أقوى بالإضافة إلى زيادة النفس. وعلى هذا فالنبر ينقسم إلى أولي (قوي) و(ضعيف) و(ثانوي) ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٨٩-١٩٠، ومناهج البحث في اللغة: ١٩٤-١٩٧، وفقه اللغات السامية: ٤٥-٤٧، والتطور النحوي للغة العربية: ٧١-٧٣، ومناهج البحث في اللغة: ١٦٠-١٦٤، وعلى الرغم من أنّ اللغويين القدماء لم يدركوا (النبر) لبعض الضغط على مقاطع الكلام (ينظر: ظاهرة التنغيم في البحث الصوتي بين القديم والحديث: ٣٥، إلا أنّ بعضهم لاحظ أثره في تطويل بعض حركات الكلام، وهو ما عالج ابن جني بعض أمثلته ضمن (باب مطل الحركات)، فقال: "وحكى القرّاء عنهم: "أكلت لحما شاة" أراد لحم شاة فمطل الفتحة، فأنشأ عنها ألفًا، الخصائص: ١٢٣/٣.

٨٧- التنغيم: هو المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) و(الانخفاض) الهبوط في درجة الجهر في الكلام. وهذا التغير في الدرجة يرجع إلى التغير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين التي تحدث نغمة موسيقيّة. ولذا يدل التنغيم على العنصر الموسيقي في الكلام ويدل على لحنه . على أن الفرق بين النغمة واللحن هو أنّ النغمة يتصف بها مقطع من المقاطع، فيوصف من إحدى الكلمات بأنه ينطق بنغمة صاعدة، وذاك بأن ينطق بنغمة هابطة أو مستوية. أما اللحن، فهو ما ينشأ عن ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلاميّة. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٩٢، وينظر: التطور النحوي للغة العربية: ٧١-٧٣، مناهج البحث في اللغة :١٩٨ -٢٠٤. وقد بيّن الجاحظ فوائد التنغيم وهو يشير إلى قوة صوت العباس بن عبد المطلب وارتفاعه وجهارته في عملية التوصيل، فقال: "وقد كان العباس بن عبد المطلب (ت٣٢هـ) جهيرًا (أي: ذا منظر وهيئة حسنة)، ينظر: القاموس المحيط: ٤٠٩/١، مادة الجهر، جهير الصوت، وقد مدح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله ﷺ، فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله. فتراجع القوم وأنزل الله عز وجل النصر وأتى بالفتح (ينظر: البيان والتبيين: ١٢٣/١)، ويتضح مما سبق أنّ التنغيم وثيق الصلة بالنبر، إلا أنّ الفرق بينهما يكمن في أنّ النبر ضغط على الكلمة المفردة أو في سياقها، في حين أن التنغيم تشكيل صوتي للجملة أو العبارة كلّها. والرابط بين التنغيم والنبر يكمن في أنّ النبر، وإن كان ضغطًا على مقطع من مقاطع الكلمة، فإن حصيلة ذلك تشكل (التنغيم). ولذا يطلق مصطلح التنغيم من باب المجاز والتجوز على النبر وعلى كل ظاهرة صوتية يتشكل من مجموعها ما يسمى بموسيقا الكلام كالسكتة والوقفة وغيرهما.. وينظر: ظاهره التنغيم في البحث الصوتي بين القديم والحديث: ٣٣، وعلم اللغة : ٩٣.

٨٨- التطويح: بعد المهوى، والإلقاء بعيدًا في الهواء، القاموس المحيط: ٢٤٧/١ مادة طاح.

٨٩- التطريح: التطويل. يقال طرح بناءه تطريحًا: طوله. ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٧/١ مادة (طرح).

٩٠- التفخيم: ترك الإمالة والاستعلاء والتعظيم. ينظر: المصدر نفسه: ١٦٠/٤، مادة فخم، والجدير بالملاحظة هنا أنّ أحمد بن أبي جمعة المغراوي (ت٩٢٠هـ) جعله من شروط المعلم والصفات الأساسية للتجويد والكتابة، فقال فيما رواه عن بعض شيوخه: "المعلم الذي لا يعرف الإظهار والإدغام والإهمال والإعجام والتفخيم والترقيق وغير ذلك لا تجيز له الحذقة: حفظ القرآن الكريم وختمه والمهارة فيه مع اعتبار حسن الخطّ: ينظر: جامع جوامع الاختصار والتبيان: ٢٤. والحذقة: حفظ القرآن الكريم وختمه والمهارة فيه مع اعتبار حسن الخط ينظر: القاموس المحيط: ٢٢٦/٣-٢٢٧، مادة (حذق) ومقدمة تحقيق: جامع جوامع الاختصار والتبيان: ٨.

٩١- تزوي: تقبض، يقال زوى الرجل ما بين عينيه: إذا قبضه. ينظر: مقاييس اللغة : ٣٤/٣، مادة (زوى).

٩٢- لحز: الرجل الضيق الخلق، ينظر القاموس المحيط: ١٩٧/٢، مادة اللحز، ومعجم مقاييس اللغة: ٢٣٧/٥، مادة (لحز).

٩٣- الخصائص: ٣٧٠/٢-٣٧١. وهو ما أكد الجاحظ على أهميته، فقال: والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركة اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف. ينظر : البيان والتبيين: ٧٩/١.

المصادر والمراجع

(❖❖) القرآن الكريم.

- **الإتقان في علوم القرآن**، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاّني، دار مكتبة الهلال، بيروت - لبنان.
- **أساس البلاغة**، لأبي القاسم محمود الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- **أسباب النزول**، لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، وبهامشه (الناسخ والمنسوخ)، لأبي القاسم هبة الله بن سلامة أبي النصر، دار الضياء، قسنطينة، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر.
- **أسس تعلم اللغة وتعليمها**، لدوجلاس براون، تر. عبده الراجحي، وعلي أحمد شعبان، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.
- **الأعلام**، قاموس تراجم، لخير الدين الزركلي، ط٢، القاهرة.
- **الاقتراح في بيان الاصطلاح وما أضيف إلى ذلك من الأحاديث المعدودة من الصحّاح**، لتقي الدين بن دقيق العيد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- **الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم**، لأبي محمد عبد الله بن البطليوسي، تح. محمد رضوان الداية، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة العصرية، صيدا - لبنان.
- **البيان والتبيين**، للجاحظ، تح. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **تاريخ العلماء والرواة بالأندلس**، لأبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي، تح. السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.
- **التطور النحوي للغة العربية**، محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٩م المستشرق الألماني برجستراسر، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- **التعابير الاصطلاحية والسياقية ومعجم عربي لها**، لعلي القاسمي، مجلة اللسان العربي، المجلد ١٧، ج١، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط، المملكة المغربية.
- **التعريف بابن خلدون، ورحلته غربًا وشرقًا**، لعبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ١٩٧٩م.
- **تقريب الوصول إلى علم الأصول**، لأبي القاسم محمد بن أحمد الغرناطي، دراسة وتحقيق محمد فركوس، ط١، دار التراث الإسلامي للنشر والتوزيع، حيدرة، الجزائر ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- **جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان**، لأحمد بن أبي جمعة المغراوي، تح. أحمد جلولي البدوي ورابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- **الحيوان**، للجاحظ، تح. عبد السلام هارون ، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ١٣٨٨هـ -١٩٦٩م.
- **الخصائص**، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح. محمد علي النجار، ط٢، مصورة، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت.
- **الروض المعطار في خبر الأقطار**، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تح. إحسان عباس،ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي ، ط٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.
- **شرح مشكل شعر المتنبي**، لأبي الحسن علي بن سيده الأندلسي، تح. محمد رضوان الداية. منشورات دار المأمون للتراث ، دمشق، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.
- **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تح. عمر فاروق الطباع، ط١، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٨٣م.
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، لإسماعيل بن حمّاد الجوهري، تح. أحمد عبد الغفور عطّار، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ١٩٨٤م.

مقالات

- **صفوة الصفوة**، لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، تح. عبد الرحمن اللادقي وحياة شيحا اللادقي، ط٣، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- **طبقات الحفاظ**، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح. علي محمد عمر، مكتبة وهبة، ١٩٧٣م.
- **طبقات النحويين واللغويين**، لأبي بكر الزبيدي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- **ظاهرة التنغيم في البحث الصوتي بين القديم والحديث**، لأمينة بن ملك، مجلة الآداب واللغة العربية بجامعة قسنطينة، الجزائر، ع٢، ١٤١٦هـ.
- **علم اللغة**، لماريو باي، تر. أحمد مختار عمر، ط٢، القاهرة/ ١٩٨٣م.
- **علم اللغة بين القديم والحديث**، لعاطف مدكور، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٦م.
- **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، لمحمود السعران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- **علم النفس بين النظرية والتطبيق**، لعبد الرحمن العيسوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.
- **عوامل التطور اللغوي، دراسة في نمو الثروة اللغوية**، لأحمد عبد الرحمن حماد، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.
- **فقه اللغات السامية**، لكارل بروكلمان، ترجمة رمضان عبد التواب، جامعة عين شمس،١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- **فقه اللغة في الكتب العربية**، لعبده الراجحي، دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٩م.
- **الفهرست**، لمحمد بن إسحاق النديم، تح. مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥م.
- **فوات الوفيات والذيل عليه**، لمحمد بن شاكر الكتبي، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- **القاموس المحيط**، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة فن الطباعة، مصر.
- **القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب**، لمحمد بن أبي السرور الصديق الشافعي، تح. السيد إبراهيم سالم، مراجعة إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، دار الفكر، ١٩٦٢م.
- **القياس والتقويم التربوي والنفسي**، لصلاح الدين محمود علام، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠ عليه السلام م.
- **لسان العرب**، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠م.
- **مباحث في علوم القرآن**، لصبحي الصالح، ط١٤، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٨٢.
- **المخصص**، لأبي الحسن علي بن سيده، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، ١٣١٧-١٣١٢هـ.
- **المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث**، لمحمد أحمد أبو الفرج، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
- **معجم الأدباء**، لياقوت بن عبد الله الحموي، الطبعة الأخيرة، دار المأمون.
- **المعجم العربي، بحوث في المنهج والمادة والتطبيق**، لرياض زكي قاسم، ط١، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- **معجم علم النفس**، لفاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م.
- **معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين**، لعفيف البهنسي، مكتبة لبنان.
- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن زكريا بن فارس، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.
- **المعجم الوسيط**، لإبراهيم أنيس وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد، دار الفكر، بيروت.
- **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم**، لأبي منصور الجواليقي، تح. أحمد محمد شاكر، ط٢، دار الكتب المصرية، ١٣٣٩هـ/١٩٦٩م.
- **معرفة القراء الكبار**، لشمس الدين الذهبي، تح. محمد سيد جاد الحق، ط١، دار الكتب الحديثة.
- **مقدمة ابن خلدون**، لأبي عبد الرحمن محمد بن خلدون، تح. درويش الجويدي، ط٢، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- **مناهج البحث في اللغة**، لتمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٤٠٠هـ -١٩٧٩م.

- **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي**، لعبد المنعم الحفني، ط٢، مكتبة مدبولي، ١٩٧٩م.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأحمد بن محمد المقري، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لمحيي الدين أبي السعادات بن الأثير، تح. محمود الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
- **الوسائل التعليمية في عملية التعليم وفي تعليم اللغة العربية للأجانب خاصة**، لمحمد وطاس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٨م.
- **وصف اللغة العربية دلاليًا في ضوء الدلالة المركزية - دراسة حول المعنى وظلال المعنى-** لمحمد محمد يونس علي، ط١، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس - ليبيا، ١٩٩٣م.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.



ظواهر سلبية في الخطاب النقدي الروائي: التخندق، التحيّز، المعياريّة

د. محمد إقبال عروي
وجدة - المغرب

إن المتأمل في خطاب النقد الروائي المعاصر يقف على مجموعة من الظواهر والملحوظات، التي من الممكن أن يقع حولها الخلاف بسبب اختلاف وجهات النظر المعرفية والفكرية، لكن من المؤكد أنها تتقاطع في بعض الجوانب المتميزة، منها:

١- تخندق هذا الخطاب النقدي المتعلق بالرواية، تنظيرًا وممارسة، داخل دائرة الدراسات الغربية في مجال تناول الشخصيات والرؤى والفضاء والتشكيل اللغوي، وغيرها من قضايا الرواية.

ولا يجد الدارس أيَّ صعوبة في وضع اليد على هذه الظاهرة؛ إذ إنّ كتابات المختصين في المجال ناطقة بالميل المطلق جهة المرجعيات الأجنبية، والانتماء الكامل للمناهج الغربية، وهذه أمثلة شاهدة بمنطوقها ومفهومها.

يقول سعيد يقطين، وهو بصدد توضيح منهجه في دراسة الرواية العربية: "نسلك في تحليلنا هذا مسلكًا واحدًا، ننطلق فيه من السرديات البنيويّة، كما تتجسد من خلال الاتجاه البويطيقي، الذي يعمل الباحثون على تطويره وبلورته بشكل دائم ومستمر"(١).

ويقول حسن بحراوي في السياق نفسه: "ولتحقيق هذه الغاية المتوخاة اتخذنا البنيوية الشكليّة إطارًا عامًّا، وتعاملنا معها بوصفها أسلوبًا في العمل ومنهجًا لبناء النماذج والتصورات"[٢].

ويقول أحمد اليابوري عن مشروعه المنجز في "دينامية النص الروائي": "ولا يخفى أنّ هذا العمل استفاد من السيميائيات والسيميائية الدينامية،والسوسيونقد والتحليل النصي في إطار لا شعور النص، ومن نظرية التلقي وغيرها من المناهج التي تسعى إلى تأسيس مقاربة ملائمة للنصوص الأدبيّة عامّة والروائية بصفة خاصة"[٣].

فهذه الأقوال تتفق في توجيه بوصلة الإفادة المنهجيّة من الإنجازات الغربية في مجال تحليل الخطاب، ويكاد النقد الروائي العربي يجمع على "تبديه" هذه الظاهرة، انطلاقًا من استحالة قيام نقد روائي عربي على أسس خاصة بالاجتهاد العربي في ميادين تحليل الخطاب والكشف عن بلاغته قديمًا وحديثًا؛ إذ إنّ تلك الأسس، بنظرهم، خاصة بتحليل خطاب الشعر.

بل بلغ أمر الاتباع حدًّا مقرفًا أصبح يدعو إلى الاحتجاج والإنكار من قبل بعض الدارسين، حتى أصبح من المألوف أن نجد مثل هذا الاحتجاج الذي صاغه أحد الدارسين في سؤاله: "وهل نبقى نمسك بالمصطلحات الأدبيّة والنقديّة الأوربيّة فنقتطعها من جذورها الأدبيّة لنزرعها في الأرض العربية من غير تعديل أو تغيير أو مراعاة لطبيعة الأرض وخصائصها ومناخها؟؟. لاشك في أن نقدنا الأدبي المعاصر نقد متأثر في أغلبه بالنقد الغربي في معظم ما يأتي به، فهو كما يرى إحسان عباس "قد بدأ أوربيًّا واستمر أوربيًّا ولا يزال أوربيًّا"[٤]، ودعا، في المقابل، إلى صياغة نظرية نقدية عربية متعددة الجوانب، تمتح من التراث النقدي، ولا يمثل النقد المعاصر سوى رافد من روافدها.

٢- التركيز على الخصائص النوعيّة لفن الرواية بدلاً من البحث في أسلوبية الرو ائي، تفسير ذلك أنّ النقد الرو ائي المعاصر يحرص على معالجة ظواهر عامة تمسّ الرواية بوصفها نوعًا أدبيًّا متميّزًا عن النوع الشعري مثلاً، فيقف عند السرد والشخصية والزمان والمكان، وهي قضايا عامة تحضر في كل تجربة روائية بشكل أو بآخر، مما يجعل من تحليلها ونقدها أمرًا مُوقِعًا في التشابه في المعالجة والتناول والاستشهاد، مادام كل روائي يتعامل مع السرد، ويوظف شخصياته ويحركها داخل فضاء زماني ومكاني محدد.

وفي ظل هذا الاهتمام بالخصائص العامة للنوع الروائي تغيب خصوصيات كل روائي، أو تتلاشى في سياق الحديث المفصل عن تلك التقنيات.

وتتضاعف حدّة هذه الظاهرة حين نعلم أنّ بعض الدراسات النقدية تهدف، أساسًا، بوعي منها أو بدون وعي، إلى الاحتفاء بأمر التقنيات وحشد المقولات والآراء النظرية المتعلقة بها، وبخاصة في ظل حركيّة الإبداع النقدي الغربي وملاحقة النقد العربي لترجمة ذلك وتمكينه داخل خطابه، فيتحول النقد من معالجة الرواية إلى معالجة القضايا النظرية المرتبطة بفن الرواية بوصفه جنسًا متميّزًا.

وأغرب من هذا أنّ النقد الروائي المعاصر يسعى، وقد يكون هذا الأمر هو الآخر بوعي أو بدون وعي، إلى إيلاء النتائج النظرية صفة التعميم الكلي الذي قد يحوّل النقد الروائي إلى موقف معياري شبيه بالذي انتُقدت البلاغة لأجله، ذلك أنه حين يصرح بعض المهتمين بأن هدفه هو "تكوين تصور متكامل نسير فيه مزاوجين بين المحلل البويطيقي وهو يبحث عن الكليات المجردة، والناقد وهو يدقق كلياته ويبلورها من خلال تجربة محددة"[٥]، أو حين يعلق آخر بأنه قد تعامل مع البنيوية الشكليّة بوصفها "أسلوبًا في العمل، ومنهجًا لبناء النماذج والتصورات"[٦]، فقد يؤدي التركيز على النماذج والكليات إلى منهج معياري، مادامت النتائج المحصل عليها يراد لها أن تأخذ طابع العموم أو قوة الشاهد على الجزئيات، وهو شأن مخالف للتلقي بوصفه أثرًا متجددًا في الزمان والمكان، كما أنه مناقض للخصوصيات الروائية الناتجة عن الخصوصيات الحضارية.

ونحن لا نلقي هذا الكلام ادعاء، بل إنّ المشتغلين بالنقد الروائي يلمسون الخطر المحدق به حين يتحول التحليل إلى تقنين، والافتراض إلى فريضة، وتصير الوسيلة غاية. يقول د. عبد الملك مرتاض: "إنّ الشكل الروائي متحول دائمًا، فكيف نستطيع أن نزعم أننا قادرون على وضع قانون ثابت يقيده تقييدًا، ويكبله تكبيلاً، فيغتدي ثابتا، وقد كتب عليه أن يظل متحولاً؟"[٧].

ويضيف قائلاً: "إنّ أي نقد إنما هو نتيجة لقراءة نصوص معينة، أي إن ذلك النقد، إن حاز صفة التنظير، فهو يختص بالنصوص التي وقعت تحت نقده، أما أن تنطبق نتائج ذلك النقد على مختلف النصوص السرديّة، فذلك غير صحيح، بل غير ممكن"، ثم يختم نقده بقوله: "إنّ الاجتهاد في "مكننة" الأدب بإخضاع الكتابة فيه بتقنين نظامها تقنينًا صارمًا، وضبط بنائها ضبطًا دقيقًا، لا يحسب أنها تفضي إلى نتيجة مثمرة"[٨].

ومع الحرص على التقنين والتقعيد واستخلاص المعايير تغيب خصوصيات الروائي، مع أنها مناط التحليل، وهدف الاشتغال النقدي.

إنّ التحليل الروائي المعاصر يسعى إلى إسقاط محور النوع الأدبي على محور التجارب الروائية، مع أنّ الأصل إسقاط محور التجارب على محور النوع، حتى يتم الوقوف على الخصوصيات درءًا للأحكام المعيارية التي تبحث في العام، وتذرُ الخاص عرضة للتهميش أو الإلغاء.

ومن المفيد أن نشير، هنا، إلى وعي روائي متميز بهذا الإشكال في الكتابة الروائية، وهو نجيب الكيلاني، فبعدما أكّد، في مناسبة، أبدية الخلاف حول الصورة الفنيّة حتى بالنسبة للمدرسة الأدبيّة والفنيّة الواحدة، وبعدما رأى أنّ القصة يتناولها كل كاتب بأسلوبه وطريقته الخاصة، مما يعني أنه، حتى في حالة التقليد، لا بد من أن تظهر خصوصيات المقلد، علق قائلاً: "أما خصوصية الكاتب المبدع وتميزه، فتجعله ينجب عملاً فنيًّا مرتبطًا بفكره وذوقه وإمكاناته الخاصّة. وقد نتصفح عددًا من دواوين الشعراء العموديين مثلاً، فنجدهم يكتبون وفق قواعد عامة متفق عليها، لكننا نجد أحمد شوقي غير حافظ غير البارودي غير محمد الأسمر غير الجوهري غير الزهاوي أو العقاد، وهكذا،... والشيء نفسه

ظواهر سلبية في الخطاب النقدي الروائي: التخندق، التحيّز، المعياريّة

بالنسبة لمن يسمون بأعلام الشعر الحديث أو الحر، وإذا انتقلنا إلى المسرح، أو القصة القصيرة، تواجهنا الحقيقة نفسها التي لا يمكن الهروب منها. ماذا يعني ذلك كله؟؟

إنه يعني أنّ قضية الشكل الفني أو الصورة الفنيّة مفتوحة"[٩].

ومن الواجب على كل باحث في السرد الروائي أن يبرز الطابع المفتوح عند الروائي بخصوص بنائه الفني وخصائصه الأسلوبية. ولعلّ ابن رشيق حين صاغ حكمه النقدي الموجز حول بعض الشعراء كان يقصد إلى بيان أن وظيفة الخطاب النقدي هي الوقوف، أصالة، عند التنوع في تجربة الشعراء على الرغم من اتكائهم جميعًا على جنس أدبي واحد، يقول: "....مع أنه لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه، فينقاد إليها بطبعه، ويسهل عليه تناولها، كأبي نواس في الخمر، وأبي تمام في التصنيع، والبحتري في الطيف، وأبي الطيب في الأمثال وذمّ الزمان وأهله"[١٠].

٣- من الأوضاع المثيرة للاستغراب في حقل الدراسة النقديّة المعاصرة أن أصحابها يسعون إلى رسم خريطة دقيقة للرواية العربية، وهم، حين يجدون في ذلك، يتركون مناطق لا يُدْخِلونها في أساس التشكيل النهائي لملامح تلك الخريطة، فيكونون كمن رام وضع خريطة لفرنسا دون أن يذكر نهر السين، أو كمن سعى إلى وضع طوبوغرافية لمدينة "موستار" دون ذكر الشطر الذي يقطنه المسلمون، أي إنّ هؤلاء الدارسين يستخلصون النماذج والكليات، بعيدًا عن اهتمام بالتجارب الروائية لروادها.

ومن هذا المنطلق، وجب نقد هذا التحيز، والانفتاح على كل موقع روائي مُتحيّزٍ ضده، بهضابه وسهوله، بجليده وحرارته، من قبل الباحثين الذين استطاعوا التخلص من داء التحيز النقدي والإيديولوجي، خدمة لخريطة الرواية العربية التي تظل فوق كل اهتمام، ورفقًا بالأجيال المقبلة التي يوجب علينا منطق الاهتمام بها أن نقدم لها الصورة كاملة دون غبش أو تزيد أو تنقص؛ ليكون حكمها الذوقي قائمًا على أثارة من العلم والبرهان.

إنّ القصد من وراء الوقوف على هذه الظاهرة التصدّي لأدواء التحيز في النقد الروائي، فقد لا يجد الدارس تفسيرًا لبعض الظواهر المتفشية في ساحة النقد الروائي، إلا أن يأخذه العجب كل مأخذ، أو أن يتخطفه الاستياء؛ إذ كيف يعقل، في مقاييس العلم ومواضعات النقد، أن يتم الاحتفاء بعدد من الروائيين ممن يخطون بداياتهم الأولى في مجال الإنتاج الروائي، وبعضهم لم يتجاوز عطاؤه ثلاث روايات أو أربع، وتنجز حولهم الدراسات العليا والأطروحات العلمية، في حين يتم تهميش روائيين آخرين ممن امتلأت الساحة الأدبية بعطاءاتهم الغزيرة التي فاقت عشرين عملاً روائيًّا.

وليس لهذا النهج من تفسير سوى أن نقول بالتحيز الإيديولوجي جهة فئة من الروائيين دون أخرى، فالدلائل شاهدة على هذا التحيز الآخذ بحجُزات الهوى الإيديولوجي، والواقف على حلبة مُتعَسف المواقف، دون بصيرة من نظر، أو أثارة من علم.

وإلا كيف تفسر خلو الدراسات المعاصرة من

أي إشارة إلى أعمال نجيب الكيلاني الروائية، مع أنّ في إنتاجه ما يقدّم نماذج تطبيقيّة للموضوعات المعالجة في تلك الدراسات.

فقد نشر شكري عزيز ماضي كتابه: "انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية"[١١]، دون أن يكلف نفسه "مشقة" الإشارة إلى رواية نجيب الكيلاني "عمر يظهر في القدس"[١٢]. وهي الرواية التي تقوم ناقدة للأوضاع الفكريّة والسياسية التي قادت إلى النكسة، ومعلنة عن بدائل النهوض والاستقلال، مستحضرة، لإنجاز ذلك، شخصية "عمر بن الخطاب" رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رمزًا لوجوب النهوض، وإمكانية الانتصار. بل إنها الرواية الوحيدة، حسب علمي، التي تنبأت بالانتفاضة، واستعملت مصطلح "الانتفاضة"[١٣] قبل أن يسود في الصحافة ووسائل الإعلام.

وأصدر د. محمد حسن عبد الله مؤلفه "الريف في الرواية العربية"[١٤]، وذكر روائيين من الشرق والغرب، ولم يشر بكلمة واحدة إلى نجيب الكيلاني، علمًا بأن رواياته لا تمتاز باعتماد الريف فضاء للأحداث والشخصيات فحسب ، بل تتفوق بنقد القيم السائدة في الريف، مثل الثأر، والاستبداد بالرأي، وإهمال شأن المرأة، وإضعاف كرامتها في التعلم واختيار الزوج المناسب، إضافة إلى طغيان الإقطاع والصراعات القبلية.

ونشر د. مصطفى عبد الغني مؤلفه "الاتجاه القومي في الرواية"[١٥]، ولم يرد فيه ذكر للكيلاني، محمودًا أو منقودًا، مع أنّ له روايات تتعلق بالحس القومي الإيجابي مثل "مواكب الأحرار" و"في الظلام" وغيرهما.

وطلعت علينا مجلة "الهلال" المصرية بدراسة لصاحبها إبراهيم فتحي في موضوع "الرواية المصرية في قرن"[١٦]، وقد عرضت لمختلف الأسماء الروائية بأرض النيل، مكثرهم ومقلهم، غير أنها لم تشر إطلاقًا إلى تجربة الكيلاني الروائية، مع أنه من أغزر الروائيين المصريين إنتاجًا.

إنّ هذه الظواهر الثلاث كفيلة بأن تستدعي منطقا في النظر، ومنطلقًا في المعالجة، نقدًا لأعراضها التي نلخصها في : التخندق، والتحيز، والمعيارية. وعلى الدارسين أن يفتحوا حوارات مسؤولة تخص هذه الإشكالات تخليصًا للخطاب النقدي من هنات ماحقة، وكشفا لطغيان فكري وإيديولوجي سافر.

إنّ خلاصة المشكلة تكمن في تحيزين اثنين: تحيز للنقد الغربي المعاصر على حساب الاجتهاد العربي في البلاغة وتحليل الخطاب، مفاهيمَ ومصطلحات، وتحيز لبعض الروائيين على حساب آخرين من أمثال نجيب الكيلاني، وعلى الخطاب النقدي المعاصر أن يتخلص، على وجه الاستعجال، من هذه الأدواء القاتلة، ويدلل على إيديولوجية هذا التحيز المزدوج، ويتوجه إليه بالنقد العلمي، ويقترح لبنات تسهم في إنقاذ النقد العربي المعاصر من وضعيته التي تتنافى مع انفتاحية التلقي وأهداف البحث العلمي.

والقول بانفتاحية التلقي مدخل استراتيجي للنقد العربي المعاصر؛ للتخلص من سلبيات الارتهان إلى الخطاب النقدي الغربي، ذلك أنّ القول بانفتاحية التلقي قول بتعدد القراءات والمناهج، شريطة أن تعمل تلك القراءات والمناهج على إضاءة الأبعاد المتنوعة في النص

المقروء قد لا تحفل بها القراءات البنيوية والشكلانية والواقعية والسيميائية وغيرها مما تعجّ به الساحة النقديّة المعاصرة ترجمة وتمثلاً واستحياء.

إنّ الارتهان إلى منهج محدد في القراءة نقص للقراءة ذاتها على أساس أنّ القراءة، في أعمق مفاهيمها، هي "إنتاج يوازي النص، ويخلق معرفته الخاصة التي لا بد أن تفرز أنواعًا من القراءات المختلفة باختلاف أجهزتها، وقدرة هذه الأجهزة على استيعاب مستويات النص وأبعاده(١٧).

وقد لمس د. عز الدين إسماعيل طابع الانفتاح في نظرية التلقي، واستخلص إمكانية إسهام النقد العربي، قديمه وحديثه، في منح النظرية طابعًا خاصًا ينسجم مع الفكر العربي، وانتهى إلى أنه إذا كان "روبير هولاب" قد وفق في صياغة نظرية التلقي في المحيط الألماني، فإنّ النظرية نفسها "تظل قابلة للصياغة وإعادة الصياغة من منظورات فكريّة وثقافيّة متعددة"(١٨).

وينبع التركيز على هذا التحديد الانفتاحي من ضرورة التوجّه بالنقد المنهجي إلى من ينفون قراءات مخصوصة لصالح قراءة معينة، فلعل هذا المسلك يكون قاصرًا؛ لأنه يقيم تراتبية تؤول إلى تفضيل قراءته على بقية القراءات، وبخاصة تلك التي تراهن على الإفادة من الاجتهاد العربي الناقد لمنهج الارتهان والتبعيّة للدراسات الغربية، مثل صنيع د. حميد لحمداني، الذي وضع تراتبية بين القراءة الحدسية والقراءة الإيديولوجية والقراءة المنهجيّة، وجعل الأخيرة ممثلة للرقي المعرفي ومساوقة له، في حين نسب إلى غيرها أوصافًا تتجه صوب التهميش أو الوهم(١٩)، من غير أن يقدم معيارًا للتفاضل، أو منهجًا يحتكم إليه في الموازنة والتمايز.

ومن شدّة الولع بنسبة المنهجيّة إلى النقد الغربي استنتج حميد لحميداني صعوبة هذه الإفادة التي يمكن للبلاغة، بوصفها إنتاجًا معرفيًّا وذوقيًّا، وفنيًّا، وجماليًّا عربيًّا خالصًا، وبوصفها مفاهيم ومصطلحات، أنّ تقدمها في مجال الوقوف على الخصائص الأسلوبية للرواية، وقرر أنّه "لا أحد يجرؤ على الادعاء بأنه يمكن، استنادًا إلى البلاغيّة التقليديّة، عربية كانت أم غربية، أن يبني نقدًا بلاغيًّا، أو أسلوبيًّا للرواية الحديثة والمعاصرة، لذلك فالتفكير في وضع بلاغة للرواية في العالم العربي أو غير العالم العربي مدين بالشيء الكثير للأبحاث الأسلوبية التي تطورت للأسف خارج البلاد العربية"(٢٠). لكنه يعود ليستدرك بأنه "لا يرتمي ارتماءً كاملاً في أحضان النظريات النقديّة الغربية، كما أنه لا يتجاهل بعض المعالم والمباحث البلاغية العربية التي إذا أعيد النظر فيها يصبح في الإمكان الاستفادة منها في صياغة بلاغة جديدة للرواية"(٢١). لكن هذا الاستدراك لم يتجاوز حدود الصياغة الشكليّة، ولم يتحول إلى عمل دؤوب للإسهام في إنتاج خطاب نقدي عربي غير خاضع أو تابع للخطاب النقدي الغربي إلا في حدود ما تقتضيه العمليّة الحضارية المتمثلة في الأخذ والعطاء على أرض الندية والمشترك الإنساني شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً.

وقد يعتقد البعض أننا نطالب، هنا، بالإفادة من البلاغة ردًّا على التحيز المنهجي والاحتفاء المطلق بالمرجعيات الأجنبية، أو طلبًا

للاستقلالية التامّة، مما يفرغ طلبنا من حاجته العلميّة وضرورته النقدية، والواقع أنّ هذا الاعتقاد يحتاج إلى نقد شامل؛ إذ من المؤكد أنه "لا الرفض بحد ذاته قادر على إضعاف حضور تلك المناهج في سياقات حضارية غير سياقاتها، ولا القبول المحض متمكن من منح تلك المناهج صفة الحياد الذي يمكنها من الانسجام الكامل داخل أطر غير أطرها الأصلية"[٢٢]، وإنما الأمر الذي يلامس جوهر العدل ومواضعات الموقف العلمي أن نلفت النظر إلى أنّ النقد الروائي العربي محتاج، في بعض جوانبه، إلى الانفتاح على الدرس البلاغي بغية الإفادة، كما انفتح على علوم أخرى مثل علم النفس والأنتربولوجيا وعلم الاجتماع وغيرها، وليس يعيب النقد الروائي أن يهتم بهذا الأمر الذي يمنحه صفة الإنتاج المعرفي الأصيل، بدل الاكتفاء بتبني المفاهيم الغربية، وترديد آلياتها، كأن منتهى ما سما إليه مثقفو الأمة أن يولعوا بمحاكاة دور الببغاء في معترك المداولة الحضارية للمعارف والأفكار.

هذا، دون أن نلغي الصفة العلميّة لمبدأ الخصوصية الحضارية الداعي إلى القول بالتحيز أو عدمه، وذلك أن القول بتحيز مناهج النقد الأدبي هو أولاً "قول بتحيز المناهج النقدية كلها، وليس في الغرب الأدبي هو أولا" قول بتحيز المناهج النقدية كلها، وليس في الغرب وحده، بل إنه التحيز الذي نعنيه حين نشير إلى مفهوم مثل الخصوصية الحضارية، وهو المفهوم الذي لا نستطيع بدونه أن نتحدث عن حضارة غربية أو عربية إسلامية، أو غير ذلك من التحديدات القائمة على القناعة باختلاف السياقات الحضارية"[٢٣].

إنّ التراث البلاغي للأمة الإسلامية عطاء علمي خدم لغة القرآن الكريم وبلاغته، واستطاع أن يمكن علماء الأمة من الأدوات والمناهج التي تساعد على إبراز جوانب الإعجاز البياني للخطاب القرآني بأنواعه. وإنه أمام الهجمات الخفيّة والمعلنة ضد هذا التراث، لمن أوجب الواجبات على علماء الأمة وطلبتها أن يعتنوا به، وأن يعاودوا النظر فيه من حين لآخر، لاستخلاص الفوائد التي يمكن أن يقدمها لطرائق التحليل، وأنماط المعالجات الأدبيّة في مستوياتها المنهجيّة والاصطلاحية والإجرائيّة. وهذا السبب وحده كافٍ للتدليل على ضرورة الاهتمام بمثل موضوع التلقي البلاغي للرواية؛ لأنه مجال لاستدعاء الدرس البلاغي، والوقوف على مصطلحاته القمينة باستنباتها في حقل النقد الروائي المعاصر، والبحث عن سبل خدمة ذلك التراث من جهة، واستجابة لمنطق الاستقلال الفكري المنهجي، والمدافعة الحضارية من جهة أخرى. وإنّ الباحث ليطمئن إلى صدور أصوات أصيلة في النقد العربي الحديث تستنكر إهمال البلاغة، وتدعو إلى اكتشافها من جديد، مثل د. مصطفى ناصف الذي يقول: "لكن المحدثين اتهموا التراث العظيم المسمى بالبلاغة بالشكلية، كان هذا حكمًا سريعًا أدل على اختلاط مطلب الفهم بمطلب التغيير، إنّ الذي عدّ أمرًا شكليًّا هو، في جوهره، أمر روحي لم يفض سره"[٢٤].

وإذا كان للمفاهيم التراثية أبعادها البلاغية المرتبطة بخطاب القرآن والشعر، فلا سلطة تمنع من توسيع دلالاتها ونماذجها لتتجاوز "نحو الجملة" والبيت والقصيد والآية والسورة، إلى "نحو الرواية" إذا جاز القياس، وبخاصة في مستويات المفاهيم والمصطلحات والبنيات.

والملاحظ أنّ تأمل هذه المحددات والموجهات، التي حاولت جهد المستطاع أن أعرض لها سالفًا، يضاعف من حدة الشعور بالإشفاق على الوضعية التي يعيشها النقد الروائي؛ إذ قلما يخطئ النظر الندرة القائمة في مجال نقد التخندق داخل حصون المناهج الغربية والمرجعيات والآليات الأجنبية، أما إذا تجاوزنا ذلك إلى حصيلة الدراسة الهادفة إلى تلمس مستويات الإفادة التي من الراجح أن تقدمها البلاغة، أو العطاء الإسلامي بصفة عامّة في مجال تحليل الخطاب، للدرس الروائي، فإنّ الحصيلة منعدمة أو تكاد.

وإذا ارتقينا صوب البحث في الدراسات المنجزة حول الروائي نجيب الكيلاني، والكاسرة لمنطق التحيز، فإنّ قصارى ما نجده دراسات ومقالات اقتفت آثار الكليات الواردة في حقل النقد الروائي، فتحدثت عن الشخصيات أو الفضاء أو الرؤية السردية عند نجيب الكيلاني، أما أن نعثر على دراسات تلامس الخصوصية الأسلوبية والبنائية عنده وفق رؤية نقدية مجتهدة في المفاهيم والمصطلحات والمناهج، فهذا لم نعثر على مثيل له في حدود اطلاعنا، ويمكن الوقوف على هذا الأمر من خلال تأمل سريع في عناوين الرسائل والدراسات المنجزة حول نجيب الكيلاني، وفهارس موضوعاتها(٢٥).

إنّ النقد؛ أي نقد، مطالب بأن يضع اليد على الخصائص الفردية داخل النوع الأدبي الواحد، لا أن يقتصر على إسقاط محور خصائص النوع الأدبي على محور تجربة الأديب الفردية؛ إذ إنّ النقد يبحث عن الخاص على ضوء العام، وليس العكس، إلا أن يكون صاحب النقد مهتمًا بالكليات والنماذج، وذلك آيل، أخيرًا، إلى النوع الأدبي نفسه؛ إذ الأصل أنّ: "الأديب، في حدود هذا الفن، ومع التزامه خواصه الأدبية العامة، يطبع الأسلوب طابعًا آخر ممتازًا، وخاصًا به هو، بحيث لا يتوافر لصاحبه في نفس الفن أو الموضوع، وبذلك يتحقق للأسلوب ميزتان: ميّزة عامة من حيث هو خطابة أو شعر أو كتابة، وميّزة خاصة من حيث هو أثر لأديب ممتاز"(٢٦).

وهذا يعني أنّ الاختيار الذي يبني عليه الروائي أسلوبه في التشكيل والصياغة، إنما هو نتيجة لميول خياله ومقاصده الفكريّة والجماليّة، وهو ما عبر عنه بروست في قوله:" إنّ الأسلوب بالنسبة للكاتب، كما هو بالنسبة للرسام، ليس مسألة تقنية، بل مسألة رؤيا"(٢٧).

ويتعين على النقد الروائي أن يبرز هذا الطابع الخاص في أسلوب الكتابة الروائية عند كل روائي، وهو ما يتعين على الدارسين تلمسه في طرائق السرد، بانتهاج المناهج والقراءات الممكنة التي تتوقف فاعليتها على شرط إضاءتها لأبعاد التجربة الروائية الخاصة بكل روائي، وليس بإسقاط محور العموميات والكليات والمعايير على الخصوصيات والأنواع والحالات، وذلك استجابة لواجب حضاري، وخدمة لجوانب خصبة في حقل الرواية العربية المعاصرة، كي تكون الصورة مكتملة، وحتى يصل ضوء الدراسات والتحليل إلى مناطقها وأرخبيلاتها، وإضافة إلى هذا وذاك هذا الوجوب الذي ندعيه إنما هو من فرائض المنطق وضرورات الاستدلال؛ إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ومن ثمّ، لا يمكن الحكم على واقع الرواية العربية/

الفرع، إلا بعد تحقق الأصل، وهو هنا فعاليات الرواية العربية المتنوعة، وبخاصة من يمثل جيل الرواد؛ أي إنّ الحكم العلمي متعذر في ظل تهميش هذه الرؤية أو تلك.

وإلا فستكون الأحكام قاصرة ومتعسفة، تضيع في ثنايا زخرفها الأسلوبي والمصطلحي حقائق جوهرية من مثل الإسهام الفعال الذي شارك به المرحوم الكيلاني من أجل توطيد دعائم الرواية العربية، وتأسيس علاقة تقدير بينها وبين آلاف القراء، على عكس ما وقع مع الشعر الحر الذي لا يزال يتعرض إلى نقد من قبل بعض الأوساط العربية والإسلامية، ثم من أجل إبلاغ صوت الشرق إلى الغرب عبر ترجمة بعض رواياته إلى لغات أجنبية، ومن أجل خدمة أنواع صغرى داخل هذا الحقل الفني الكبير مثل الرواية التاريخية، والسيرة الذاتية، بل الرواية البوليسية، كما يقترح هو لروايته "قضية أبو الفتح الشرقاوي".

وهذا الإسهام محتاج إلى دراسات تجلي الجوانب السردية المتعددة، والأبعاد التأويلية، تجلية تمكن من رسم معالم العالم الروائي لهذا الرائد، تمهيدًا لشتى المقارنات التي يتيحها الدرس الروائي. وهذا العمل الحضاري غير ممكن إلا بتدافع قوي من قبل أصلاء النقاد ينحسر، بموجبه، أشكال التخندق والتحيّز والمعيارية، التي تفترس العديد من جوانب النقد الروائي المعاصر.

بل إنّ هذه الحقيقة حاضرة عند أقطاب الرواية العربية أنفسهم، وهو ما نلمسه عند عبد الرحمن منيف، فبعدما قرر أن همَّ تأسيس رواية عربية وتطويرها وتجديدها يتوجب عليه أن يعتمد على التقاليد المحليّة مع الاستفادة من التراث العالمي، وهو موقف الكيلاني في جوهريته، صاغ سؤالاً حضاريًّا كبيرًا وهو: كيف نعطي لصوتنا النغم الخاص لكي يتميز بوضوح حين تسمع الأصوات؟[٢٨]، وما من شك في أنّ دلالة النغم، هنا تتوجه إلى صوت الروائي الواحد بين أصوات الروائيين المتعددة، كما تتوجه إلى مجموع أصواتهم داخل العالم العربي في مقابلتهم مع روائيي الحضارة الأخرى.

ثم إنّه يصف الذين تفترسهم النزعة الاتباعية في تناول الموضوعات، وبسط القضايا بأنهم "يستعيرون أصابع الآخرين"؟

ومن أجل تنمية قدرات أصابع العرب والمسلمين الذاتية وتطوير خبراتها ومهاراتها؛ لتحقق في ميادين المنهج والقراءة ما يوازي ما حققه أسلافهم في ميادين اللغة والشعر والبلاغة والزخرفة والمعمار والموسيقا، كانت هذه الورقة النقدية لبعض الظواهر السلبية في الخطاب النقدي الروائي عند العرب. والله الموفق للفلاح، ومنه، عز وجل، طلبُ النجاة من الجور في ما يفوه به اللسان، أو يخطه البيان. ■

الحواشي

١- تحليل الخطاب الروائي:٨.

٢- بنية الشكل الروائي :٢٢.

٣- دينامية النص الروائي:٦.

٤- النص والتلقي الأدبي، مجلة الفكر العربي، ع٨٩/س١٨/صيف ١٩٧٧ :١٣.

٥- تحليل الخطاب الروائي:٩.

٦- بنية الشكل الروائي:٢٢.

٧- في نظرية الرواية:٢٥١.

٨- المرجع نفسه: ٢٦٩.

٩- مدخل إلى الأدب الإسلامي:١٩-٢٠.

١٠- العمدة في محاسن الشعر: ٤٨٨/١.

١١- انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية.

١٢- الصادرة عن مؤسسة الرسالة، وقد نقلها إلى اللغة الإنجليزية قسم الترجمة بدار ابن حزم، وصدرت في طبعتها الأولى سنة ١٩٨٩.

١٣- يتضح ذلك في المقطع الذي ورد على لسان السارد في حكمه على رسالة عمر بن الخطاب بعد النكسة: "جاء كالصدمة الكهربائية التي تهز رأس المريض وجسده فينتفض، ثم يفيق، وقد زال عنه الروع والداء... كصفارة الأمان التي تهيب بالناس أن يخرجوا من ظلمات الخنادق والكهوف إلى الحياة والنور... إنّ دورنا ينصب الآن على استيعاب كلماته... وبعدها نخوض الانتفاضة الكبرى... ونجابه الزيف والاستسلام..". عمر يظهر في القدس:١٣٨.

١٤- الريف في الرواية العربية.

١٥- الاتجاه القومي في الرواية.

١٦- الرواية المصرية في قرن، "مجلة الهلال": الهلال المصرية ، يونيو ١٩٩٩، :١١٨-١٢٩.

١٧ المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام:٢٧٩،

١٨- من مقدمة عز الدين إسماعيل للترجمة العربية التي أنجزها للكتاب. نظرية التلقي:٢٩.

١٩- مستويات التلقي:١٢٨.

٢٠- أسلوبية الرواية، مدخل نظري: ٦

٢١- المرجع نفسه:٦-٧.

٢٢- ما وراء المنهج، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الكويت، ع:٣٨ م١٠،ربيع ١٩٩٠م/٦٢.

٢٣- المرجع نفسه: ٦٣.

٢٤- النقد العربي: نحو نظرية ثانية: ١٩.

٢٥- مثل أطروحة د. محمد بنعزوز حول "الشخصية في روايات نجيب الكيلاني": ودراسة حلمي محمد القاعود حول "الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني: ومحاور العددين الخاصين به من مجلتي : الأدب الإسلامي" التي تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، والمشكاة المغربية.

٢٦- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية: ١٢٢-١٢٣.

٢٧- الصورة الأدبيّة، بعض الأسئلة المنهجية، مجلة دراسات أدبية لسانية، فاس، عدد ٤، ١٩٩-/ ١٢٣.

٢٨- الكاتب والمنفى: هموم وآفاق الرواية العربية:١٨٧.

المصادر والمراجع

- **الاتجاه القومي في الرواية**، للدكتور / مصطفى عبد الغني، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤م.
- **الأسلوب**، لأحمد الشايب، ط ١٩٦٦م.
- **أسلوبية الرواية**، لحميد لحمداني، ط١، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٨٩م.
- **انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية**، لشكري عزيز ماضي، المؤسسة العربية للدراسات ١٩٧٨م.
- **بنية الشكل الروائي**، لحسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، البيضاء - المغرب، ١٩٩٠م.
- **تحليل الخطاب الروائي**، لسعيد يقطين، ط١، المركز الثقافي العربي، البيضاء - المغرب، ١٩٨٩م.
- **دينامية النص الروائي**، لأحمد اليابوري، ط١، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٣م.
- **الرواية المصرية في قرن**، لإبراهيم فتحي، مجلة الهلال، مصر، ١٩٩٩م.
- **الريف في الرواية العربية**، لمحمد حسن عبد الله، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٩م.
- **الصورة الأدبيّة**، لستيفن أولمان، تر. محمد أنقار، ومحمد مشبال، مجلة دراسات أدبية، ع٤، فاس، ١٩٩٠م.
- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، لابن رشيق، تح. محمد قرقزان، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م.
- **عمر يظهر في القدس**، لنجيب الكيلاني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
- **في نظرية الرواية**، لعبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- **الكاتب والمنفى**، لعبد الرحمن منيف، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٩٢م.
- **ما وراء المنهج**، تحيزات النقد العربي، لسعيد عبد الرحمن البازعي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع٣٨/مج١٠/ جامعة الكويت، ١٩٩٠م.
- **المختارات الشعرية**، وأجهزة تلقيها عند العرب،/ لإدريس بلمليح، ط١، كلية الآداب، الرباط ، ١٩٩٥م.
- **مدخل إلى الأدب الإسلامي**، للدكتور نجيب الكيلاني، سلسلة كتاب الأمة، قطر، ١٤٠٧.
- **النص والتلقي الأدبي**، لمحمود محمد عبد الجابر، مجلة الفكر العربي، ع٨٩/س١٨، بيروت، ١٩٧٧م.
- **نظرية التلقي**، لروبير هولاب، تر.د. عز الدين إسماعيل، ط١، النادي الأدبي، جدة، ١٩٩٤م.
- **نظرية التلقي**، إشكاليات وتطبيقات، لمجموعة من المؤلفين، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٣م.
- **النقد العربي نحو نظرية ثانية**، لمصطفى ناصف، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٠م.



الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي مؤرخًا

أ. د. فاروق عمر فوزي
جامعة آل البيت - الأردن

تمهيد:

طلع علينا أواخر الشهر الأخير (كانون الأول) من سنة ٢٠٠٣م نبأ وفاة المؤرخ العراقي الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي في بغداد، فحجب عن محبيه رؤية الرجل، ولكن ذكراه التي لا تموت، ستبقى في القلوب والعقول.

وسواء غاب صالح العلي عن مسرح الحياة أم ظلّ أمدًا أطول سيبقى مثله مثل أدوارد سعيد وفدوى طوقان وأحمد صدقي الدجاني الذين وافاهم الأجل في السنة نفسها[١]، علمًا من الأعلام، ورمزًا من الرموز، ورجلاً من الرجال السابقين، الذين يسمى العصر بأسمائهم.

ففي حديث الرسول ﷺ أنّ الله تعالى جعل في كل قرن سابقين من هذه الأمة، واختص في كل عصر مقربين من العلماء والأعيان والأئمة؛ حيث إنّ الأزمنة تنقضي فلا يبقى من آثارها سوى أخبار هذه الطائفة وآثارها. وقد أشاد رسول الله ﷺ بمقامهم الرفيع فقال: "ألا لكل قرن من أمتي سابقون"[٢].

ملامح من سيرته الذاتية:

في سيرة صالح العلي الذاتية سأحاول أن أركّز على الخصائص والمنعطفات المهمَّة. فقد ولد صالح العلي في مدينة الموصل (أم الربيعين) بالعراق سنة ١٩١٨م، وتخرّج في دار المعلمين الابتدائية فيها، ثم يمم شطر بغداد للالتحاق بدار المعلمين العالية، وهناك التقى عبد العزيز الدوري وحصل التعارف، ويبدو أن اللقاء كان قصيرًا، فقد حصل الدوري على البعثة العلميَّة لمتابعة دراسته في (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية) التي تفرّدت عن كليات جامعة لندن بدراسة التاريخ العربي الإسلامي، في حين سافر صالح العلي إلى مصر، والتحق

بجامعة القاهرة، وحصل على البكالوريوس بالتاريخ ١٩٤٣م.

ولم تثنه الحرب العالمية الثانية، وما رافقها من صعوبات، عن متابعة دراسته العليا، فتوجه نحو المملكة المتحدة، والتحق بجامعة أكسفورد، حيث كان أستاذه المشرف هاملتون جب، المؤرخ الضليع بدراسات التاريخ العربي الإسلامي. وقد اختار صالح العلي مدينة (البصرة وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية في القرن الأول الهجري)، لتكون أطروحة نيل الدكتوراه، ونجح في كتابة رسالة مميزة كانت ولا تزال مرجعًا للباحثين لدقتها وثرائها وموضوعيتها. وفي أكسفورد التقى صالح العلي سيد مقبول أحمد، الجغرافي المسلم الهندي المرموق، صاحب كتاب (الجغرافية العربية الإسلامية)، فكانا طالبين للأستاذ المشرف نفسه عدّة سنوات، وحمل كل منهما ذكريات جميلة عن الآخر.

عاد صالح العلي بعد تخرجه في جامعة أكسفورد سنة ١٩٤٩م إلى وطنه العراق. وفي السنة نفسها كانت قد اختمرت فكرة تأسيس جامعة بغداد، لتضم تدريجيًا الكليات التي أنشئت في السنوات السابقة. وكانت كلية الآداب والعلوم النواة الأولى لجامعة بغداد التي أعلن عن إنشائها بعد ثورة تموز ١٩٥٨م. وقد عُين صالح العلي، الذي نال الدكتوراه حديثًا، عضوًا في هيئة التدريس في هذه الكلية، وبهذا عاد ارتباطه بعبد العزيز الدوري، الذي عيّن عميدًا لكلية الآداب والعلوم. وكان صالح العلي في أوج نشاطه؛ حيث باشر البحث والتأليف إضافة إلى التدريس، وشغل منصب رئاسة قسم التأريخ مرات عديدة.

وبخاصة بعد انفصال كلية الآداب عن كلية العلوم، وأصبحت كل منهما كلية مستقلة بذاتها.

ساهم صالح العلي في الإعداد للدراسات العليا بكلية الآداب، وكان سندًا للدوري في إعداد الأنظمة والخطط والبرنامج لدراسة الماجستير في كلية الآداب في جامعة بغداد، ثم عين عميدًا لمعهد الدراسات العليا بالجامعة فيما بعد.

لقد كانت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م عاصفة هزّت الكثير من الثوابت عند العراقيين وبقدر علاقة الأمر بمؤسسات التعليم العالي، وجامعة بغداد، نجح الفوضويون: الذين أصبح لهم نفوذ في السلطة بسبب ظروف سياسية طارئة في إبعاد رموز عديدة عن مؤسسات الجامعة، كما غمرت السياسة العديد من الأساتذة الجامعيين، الذين تعاونوا مع أحزاب سياسية متنوعة، إلا أن صالحاً العلي ظلّ محافظًا على موقف اتصف بالشفافية والاعتدال من غير أن يمس ذلك من موقفه العام المتسم بنزعة عربية إسلامية. وقد أصاب صالح العلي من سياسة "الفوضويين" شظايا، حيث اعتقل مدة قصيرة، ثم أعيد إلى داره، واضطر إلى قضاء بعض الوقت خارج العراق. ويبدو تمسكه بثوابته ورصانة موقفه في جملة مقالات، كان يكتبها باسم مستعار في جريدة (الحرية)[٣] البغدادية، ذات النزعة القومية المعتدلة، حيث كان ينتقد سياسات السلطة المتقلبة في إدارة العراق، وسيطرة "الفوضويين" على مؤسسات الدولة، وإلى حد ما الجامعة. وما أعقب ذلك من مجازر في الموصل وكركوك ارتكبت تحت شعار الدفاع عن الثورة.

إلا أن صالح العلي لم يلبث أن عاد إلى كلية الآداب في جامعة بغداد يدرس في قسم التاريخ

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي مؤرخًا

فيها، مما يعد مؤشرًا على أنّ حكومة ١٤ تموز أعادت النظر في سياستها، ومنها تقديرها للبارزين من الأساتذة الجامعيين، وتقديرها لمكانتهم العلميّة وإخلاصهم للوطن. وقد تبلورت الدراسات العليا بالجامعة وتأسيس (معهد الدراسات العليا) فيها، وعين صالح العلي عميدًا له في هذه المدة.

وعلى الرغم من توالي الانقلابات العسكرية على العراق، إلا أنّ صالحًا العلي ظل بعيدًا عن السياسة، مدركًا لأهميّة عدم التشابك معها، ومن هنا يمكن أن توصف علاقته بالسلطة بالاحترام المتبادل عن بعد، يشوبه الترقّب والحذر. وفي آخر الستينات، وما بعدها ظلّ محتفظًا بمنصبه عميدًا لمعهد الدراسات العليا إضافة إلى ترؤسه (مركز إحياء التراث العلمي العربي)، الذي كان قد تأسس حديثًا، وكذلك عضوا ثم رئيسًا للمجمع العلمي العراقي، الذي جعل منه ورشة عمل نشطة ومنتجة، ولا أدل على ذلك من عدد البحوث والكتب والترجمات التي ظهرت خلال مدة ترؤسه للمجمع، كما عمل في لجنة إعادة كتابة التاريخ، التي ألفتها وزارة الثقافة العراقية في الثمانينات لإشاعة الثقافة التاريخيّة ونشر الوعي بتاريخ العرب والإسلام وتاريخ العراق بين الناس. وكان صالح العلي ضرورة ملحّة في هذه اللجنة؛ لضبط الانحرافات في الكتابة التاريخيّة وتحجيمها، إلا أنّ نفرًا من ضيقي النظر، ممن يرغبون بتسييس المؤسسات العلميّة، ومنها المجمع العلمي العراقي، وصفوا نشاط المجمع بالجمود والتقليدية، ونجحوا في إقصاء صالح العلي ومجموعة من أعضاء المجمّع بطريقة غير لائقة. وعلى الرغم من هول الصدمة على الكثيرين الذين يقدرون مواهبه وخدماته ونتاجه، إلاّ أنّ صالحًا العلي لم يقبع بداره، بل عاد إلى قسم التاريخ بكلية الآداب، يزاول البحث والتدريس والإشراف على الدراسات العليا في القسم.

إنّ هذه الحال لم تقلل من قيمة صالح العلي لدى زملائه العراقيين، الذين لم تخلُ داره من زياراتهم المستمرة له، كما أنها - وعلى عكس ما هدف منه المغرضون - عززت مكانته عند النخبة المثقفة، فقد شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات التاريخيّة، وغدا عضوًا نشطًا في المجامع العلميّة العربية، ومساهمًا في نشاطات اليونسكو، وعضوًا في مؤسسة آل البيت، وحاز في سنة ١٩٨٩م جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية، وجائزة العويس (الإمارات العربية المتحدة) في الدراسات الإسلامية في سنة ٢٠٠٠م.

إن الظروف التي مرّ بها العراق ابتداءً من ثمانينات القرن المنصرم بدخوله ثلاث حروب مدمّرة، وكذلك تعرّضه للحصار الطويل، الذي دام أكثر من ١٢ سنة، كانت صعبة، إلا أنها لم تفتّ من عضد صالح العلي، فكان من حسناته أنه بقي صامدًا في العراق، واستمر في العطاء والبحث دون كلل أو ملل، حتى إنه عندما باتت حركته صعبة طلب من طلبته في الدراسات العليا المجيء إلى داره لتلقي المحاضرات، مما يدل على إحساسه العظيم بالمسؤولية وعطائه الثر.

إلا أنّ ما حدث في بدايات القرن الحالي، الواحد والعشرين، وبالذات في نيسان ٢٠٠٣م، وبعده من احتلال أعاد العراق إلى زمن الاحتلال الأول في بدايات القرن العشرين. وما واجهته

حبيبته بغداد، التي وصفها في إحدى مقالاته "بتاج العراق ودرّته"، من ظروف عسيرة وخراب ونهب وسلب تعدّ من آثار الحرب ونتائجها، وما رافق ذلك من حالات معاشية صعبة، وظروف نفسية قاهرة ووجود قوات عسكرية أجنبية... كل ذلك وغيره زعزع القامة الشامخة، صالحًا العلي، فلم يقو على الصمود أكثر من ذلك، وسئم تكاليف الحياة القاسية، فغاب بصمت، حيث توفي في بغداد، في شهر كانون الأول، من سنة ٢٠٠٣م.

منذ العام ١٩٩٣م، الذي غادرت فيه العراق، لم ألتقِ صالحًا العلي إلا مرتين، كلاهما في عمان بالأردن، الأولى، في سنة ١٩٩٦م، حين حضر اجتماعًا دوريًّا لمؤسسة آل البيت، كونه عضوًا فيها، والثانية في سنة ٢٠٠٠م حين مرّ بعمّان في طريقه إلى الإمارات العربية المتحدة؛ لتسلم جائزة العويس للدراسات الإسلامية، وفي هذه المرّة رأيته يتحامل على نفسه، وقد أخذ المرض منه جهدًا، وشكى من بطءٍ في الحركة وضعف في النظر. وتذكرت وأنا جالس معه ما قاله المؤرخ ابن خلكان الأربلي في (وفيات الأعيان) عن شيخه وأستاذه المؤرخ بهاء الدين بن شداد الموصلي، صاحب صلاح الدين الأيوبي، بعد أن كبر في العمر. يقول ابن خلكان وهو يقدّم[٤] صورة رائعة للعالم الشيخ الذي أضعفه المرض وعانى من الشيخوخة:

"وكنا نسمع عليه الحديث، ونتردد إليه في داره، وقد كانت له قبة تختص به، وهي شتوية لا يجلس في الصيف أو الشتاء إلا فيها؛ لأنّ الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف، لا يقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة، وكانت النزلات تعتريه في دماغه، فلا يفارق تلك القبة، وفي الشتاء يكون عنده موقد كبير فيه من الفحم والنار شيء كثير، ومع هذا كلّه لا يزال مزكومًا، وعليه الثياب الكثيرة، وتحته الطرّاحة الوثيرة، بحيث إنّا كنّا نجد عنده الحر والكرب وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف، وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط. وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده الحديث عليه، وكان يعجبه ذلك...وكان حسن المحاضرة، جميل الذاكرة، والأدب غالب عليه".

إن هذا القول من المؤرخ ابن خلكان، وما استعرضناه من منعطفات بارزة في سيرة صالح العلي، يعود بنا إلى ما قلناه قبل قليل إن هناك رجالاً متميزين في كل قرن من الزمان سماهم الرسول ﷺ بـ(السابقون)؛ لأنّ الأزمنة تنقضي ومنجزاتهم تبقى.

ولعلنا نطلق عليهم في العصر الحاضر "العلماء الرساليين"، فالعالم الرسالي كالشمعة المضيئة، يحترق من أجل إيصال أفكاره من خلال كتبه وبحوثه ومحاضراته. فهو لا يمارس البحث والتدريس على أنهما مهنة أكاديمية، ولا يطلب من خلالهما منصبًا أو مكافأة، بل كان يمارسهما؛ لأنه لم يكن بإمكانه إلا أن يفعل ذلك. وهذا هو العالم الذي له رسالة محددة، يعمل طوال حياته لإيصالها إلى الناس القريبين والبعيدين.

لقد كان صالح العلي من هؤلاء المؤرخين المفكرين ذوي الرسالة، خاض معركته ضد الفهم الخاطئ لتاريخ العرب والإسلام، سواء كان من قبل المتشددين، أو من قبل من يسميهم هو

"شعوبيي العصر الحديث"[٥] والديماغوغيين المتسترين وراء التقدمية، مقدمًا تفاسيره التي تلائم العصر الذي عاش فيه بكل معطياته. فكما وظف المؤرخون الأقدمون الروايات التاريخيّة ليقدموا صورة للتاريخ العربي الإسلامي أو يصوغوا تفسيرًا يناسب واقعهم، من حق المؤرخين المحدثين أن يصوغوا تفاسير تلائم الواقع الجديد بكل تعقيداته؛ لأنّ من حق كل جيل أن يحاول كتابة تاريخه بنظرة يعبّر فيها عن فهمه للتاريخ.

لعلنا نلخص مما ذكرناه عن سيرة صالح العلي الذاتية أن بيئته الموصلية أثرت في صقل شخصيته وسجاياه الخلقية، مثلما أثرت في منهجه في الكتابة التاريخيّة، وعلى رأس الصفات التي تحلى بها الصدق والاستقامة، وهي صفات أساسية لكل من يريد أن ينجح في حقل التاريخ، وإذا كان للأسرة والتربية ثم الدراسة في الموصل أثر في صالح العلي، فإنّ البيئة الثقافية في العراق عامة وما أضيف إليها من خبرات في أثناء دراسته في القاهرة وأكسفورد كان لها هي الأخرى أثرها في مسلكه وتوجهاته ومنهجه.

إن صالح العلي كان منسجمًا مع نفسه، صادقًا في موقفه، كما كان راضيًا ومقتنعًا في سني حياته الأخيرة بأستاذيته في كلية الآداب وعضويته بالمجمع العلمي العراقي بعد أن نحي عن رئاسته. وكان بإمكانه في مناسبات عديدة أن يتقرب إلى السلطة، ولكنه لم يفعل، بل نجح في الابتعاد عنها من غير أن يثير شكوكها، وهو الموقف التقليدي الثابت للعلماء الأصلاء، الذي يذكرنا بموقف عمرو ابن عبيد وأبي حنيفة وجعفر الصادق وغيرهم[٦].

أما الظاهرة الأخرى التي لا بد من إبرازها، فهي أنّ صالحًا العلي ظلّ صامدًا في بغداد، مقررًا مواجهة حال التردي والضعف والتعسف الذي عاشته البلاد، دون أن يفكر في الانتقال إلى أقطار أخرى، على الرغم من العروض التي قُدّمت له، والتي أعلم بعضها. ويبدو لي أن صالحًا العلي بعد أن نجح في مواجهة الحالة الصعبة ذاتيًّا مع نفسه صمم على المواجهة العامة بطريقته الخاصة، وكان ذلك بعدم العزلة واستمرار التواصل مع الناس، وبنقل آرائه وعلمه إلى زملائه وطلابه، فقد استمر، على الرغم من مرضه، مستقبلاً زواره من أصدقاء وزملاء أكاديميين وطلبة. وكان استمراره في العطاء لإدراكه حاجة الناس، وهم يعيشون في عصر صعب، شهدوا فيه أشد الأزمات، حاجتهم إلى التذكرة بماضي الأمة وتجارب صمودها أمام المحن، وأن يصبروا، وكان شعاره العنوان الذي اختاره الغرناطي، الذي عاش في أواخر عصر ملوك الطوائف، وشهد محنة الأندلس وهو" جنة الرضا فيما قدر الله وقضى"[٧]. وكانت تعليقاته تنم دائمًا عن نظرة وطنيّة صادقة، تتراجع أمامها المفاهيم الإقليميّة والعرقيّة والطائفيّة الضيّقة. وكان يعدّ تاريخ الأمة أداة أساسيّة في نشر الثقافة الوسطية المتسامحة المعتدلة. وكأنه يشارك المؤرخ البغدادي العراقي ابن الجوزي رجاءه إلى الله تعالى بأن "يعيد النعم ويزيل النقم"[٨]، وفي كل ذلك كان في كلامه معنى إنسانيٌّ هدفه التخفيف عن العراقيين الذين داهمهم الزمان بصروفه ومصائبه، وشعورهم بالمحنة الخانقة، والتذكير بما أصاب سابقيهم من البلاء، فعالجوه بالصبر والصمود حتى جاء الفرج.

بين صالح العلي وعبد العزيز الدوري:

إنّ المتتبع للدراسات التاريخيّة يلاحظ أنّ

النقّاد والمحللين للنتاج التاريخي لدى المؤرخين المعاصرين يربطون بطريقة أو بأخرى بين صالح العلي رحمه الله وعبد العزيز الدوري أطال الله في عمره، فهم حين يتكلمون عن سيرة أحدهما أو منهجه في التاريخ لا بد من أن يشيروا إلى الآخر. ولعلّي أشير هنا إلى ملاحظات الدكتور إبراهيم بيضون[٩] والدكتور هشام[١٠] جعيط والدكتور وجيه كوثراني[١١]، وغيرهم.

والواقع أنّ هناك قواسم مشتركة بين الرجلين، فظروف النشأة الأولى في مجتمع عربي - إسلامي محافظ في مدينة الموصل بالنسبة للعلي والدور بالنسبة للدوري، ثم التحصيل العلمي والثقافي في العراق أولاً، ثم في إنكلترا ثانيًا، كونت لديهما توجهات ثقافية وفكرية متقاربة، إضافة إلى منهج علمي موضوعي واضح في مجال البحث التاريخي في تخصصهما الدقيق.

وقد أشار إبراهيم بيضون إلى هذه الرابطة في معرض كلامه عن الدوري فقال:

"إنّ ثمة مؤرخًا آخر يشاركه في الكثير من الرؤية، إضافةً إلى ن تشابه في الظروف بين الاثنين، وكذلك الثقافة والتوجّه الفكري"[١٢].

ويستطرد إبراهيم بيضون قائلاً:

"والمقارنة بين المؤرخين الكبيرين لا تقف عند حدود، فالدوري قد يتمايز منهجًا عن العلي الذي برع في التقصي والتنقيب، وكان له باع طويل في جمع المادة من أصولها، إضافة إلى طواعية في اللغة له، وذلك في دأبه - أي الدوري - على تفكيك النص وإعادة تركيبه في ضوء رؤية عمليّة تحليليّة، تفسح مجالاً للاجتهاد والوصول إلى نتائج مقنعة. وفي المحصلة كلاهما مؤرخ ومفكر كبير، ولكليهما نظرة إلى التاريخ بأنه ليس مجرد تراكم وجمع للمعطيات بقدر ما هو استشراف للماضي بإيجابياته وسلبياته ومقاربة للحقائق في ثناياه.."[١٣].

أما هشام جعيط فقد عدّ كليهما من المؤرخين العرب القلائل الذين:

"تعدّ كتاباتهم الوحيدة تقريبًا في كل النتاج العربي في ميدان العلوم الإنسانية المعترف بها عالميًّا كبحوث جديّة مسيطر على مادتها... فلا يمكن التشكيك حتى من جانب الغربيين في أن هؤلاء مؤرخون أصلاء، لا يقلون أهميّة عن أفضل مؤرخي الغرب"[١٤].

أما رأي كل منهما بالآخر بعد زمالة دامت أكثر من نصف قرن من الزمان، فيعبر عنها صالح العلي في مقالة شارك فيها ضمن سلسلة (محور العدد) الذي تعده مجلة الجديد التي تصدر عن دار الشروق للنشر في عمان صيف ١٩٩٧م، حيث رأى في مسيرة الدوري بأنها مسيرة مفعمة بالأحداث وغنية بالعطاء مبرزًا ما يتميّز به "من ذكاء حاد وبصيرة نفاذة وحيوية دافقة، وشغف فطري بالعمل في ميادين متعددة، تمتد من الحياة العلميّة إلى الإدارة ومتابعة تيارات الحياة العامة.."[١٥].

وفي ندوة مؤسسة شومان وضمن سلسلة الندوات التي تعقدها هذه المؤسسة تحت عنوان (ضيف العام) كان عبد العزيز الدوري ضيفًا سنة ٢٠٠٠م، وشارك صالح العلي في تكريم عبد العزيز الدوري، بإرسال مقالته لتقرأ نيابة عنه، حيث لم يتمكن من الحضور لمرضه. وقد قال صالح العلي عن الدوري في جملة ما قال بعد إبراز سجاياه الخلقية الثابتة:

"كان (الدوري) في توجهه العقائدي مؤمنًا

بالقومية العربية بمفهومها الرحب الإيجابي الواسع بعيدًا عن التعصب الضيق الذي يحد من مكانها الحقيقي في التيار الحضاري العالمي المتطور، فهو يقدر مزايا العرب وخصائصهم وإسهاماتهم الغنيّة في الميادين التي أغنوها بإخلاص واعتدال. ولم يندفع في توجهه القومي إلى المس بالإسلام ومكانته.. فقد كان يرى الإسلام أعظم مصلح للعرب وموحدهم[١٦].

وفي المقابل جاء رأي الدوري في العلي بعد بلوغه نبأ غيابه عن الحياة الدنيا ورحيله إلى الحياة الآخرة، حيث قال ما نصّه:

"إنّ صالحًا العلي من أوائل من أدركو الوعي ووفاته بالنسبة لي تعني رحيل صديق عزيز قضيت معه سنين طويلة، وهو زميل ومؤرخ، كرس حياته لخدمة التاريخ العربي بعامة، وبصورة خاصة الجانب الحضاري للمدينة العربية الإسلامية، وكتب رسالته للدكتوراه عن البصرة، ثم كتب عن عدّة مدن عربية، إضافة إلى جهود الرجل البحثية في السيرة وتاريخ العرب، وترجم العديد من الكتب والدراسات.

المهم أنه كشخص كان رجلاً دمثًا في علاقاته مع زملائه والآخرين. وهو لطيف جدًّا، ومن حسناته أنه بقي في العراق على الرغم من الظروف الصعبة، وهو صاحب آراء حول الوضع العام، ولكن كانت نظرته دائمًا أكاديمية وشفافة.

وصالح العلي صاحب عطاء متواصل إلى حد بعيد، حتى إنه عندما أقعده المرض طلب من الطلبة الحضور لبيته لإلقاء المحاضرات، وهذا دليل على صدق الرجل وعطائه الكبير، وعندما أنظر إلى ما نشره أشعر بأنه بذل حياته ليقدّم ما يستطيع من خدمة للتاريخ إضافة إلى جهوده في تدريسه.

كان صالح العلي بعيدًا عن السياسة ومدركًا لأهميّة عدم التشابك معها، وظلَّ باقيًا وصامدًا في العراق حتى النهاية... أنا اشعر بافتقاده بشدة"[١٧].

لقد كان يجمعهما وشائج ربما كان منها تماثل في البيئة التي ربتهما على السجايا الرفيعة وتماثل في الاختصاص وهو التاريخ العربي الإسلامي، وتماثل في حب العمل وروح المثابرة والتواصل في الجهد، وتماثل في النزعة السياسية العروبية ذات السمة الحضارية المتصلة بالإسلام، الذي جعل مفهوم القومية العربية رحبًا واسعًا لا يعرف التعصب.

انطباعات شخصية:

أما انطباعاتي من خلال علاقتي الشخصية بالدكتور صالح العلي فلا بد أن أشير إلى أنه تربطني به وشائج منها التلمذة، ومنها الرابطة الفكرية، ومنها رابطة القربى. وحين أتكلم عنه استاذًا ومربيًا أدين له بالفضل الشخصي والعلمي. ومع أنني لم أتلقَّ الدرس منه شخصيًّا في قاعة المحاضرة فقد تتلمذت على كتبه وبحوثه في مدة عمرية شكلت جزءًا رئيسًا من ثقافتي التاريخيّة. فهو واحد من أفضل من كتب في التاريخ الحضاري للمدن العربية الإسلامية، وبخاصة في المظاهر الاجتماعية لهذه المدن.

أما فكريًّا فقد تأثرت بدقة آرائه وتحليلاته وجهده في البحث عن الرواية الأكثر ثقة والأقرب إلى الصحة، وتمتعه بخصائص جعلت منه المربي إضافة إلى المؤرخ المفكر، فله آراؤه ونظراته في الحياة العامة والأحداث لا يمكن إغفالها.

وقد ساعدتني رابطة القربى أن أكون أكثر

استفادة من خبراته، ولعلّ ما يلفت النظر في صالح العلي أنّه ظل منذ عودته من أكسفورد مرتبطًا بالحياة الجامعية الأكاديمية، فلم يتحول عنها إلى مسلك آخر. وكان صاحب نخوة علمية، يقدّم المساعدة والمشورة لمن يحتاج إليها من الزملاء والطلبة دون ضجر أو منَّة.

وإن كنت أنسى العديد من مواقفه الطيبة معي بالذات، فلا أنسى موقفه وأنا طالب في السنة الأولى في جامعة بغداد، حيث كان خياري الأول قسم التاريخ، ولكن الإقبال على التاريخ من قبل الطلبة كان كبيرًا مما اضطر إدارة الكلية إلى نقل عدد من طلبة قسم التاريخ إلى قسم اللغة الإنكليزية بسبب علاماتهم العالية في اللغة الإنكليزية في امتحان الثانوية العامة. وكنت أنا من بين الطلبة المنقولين، فحزنت حزنًا شديدًا، وأنا الغريب في بغداد، حيث تركت مدينتي الموصل منذ مدة قصيرة. ولم أفكر إلا في زوج خالتي صالح العلي، الذي كان عضوًا حديث العهد بهيئة التدريس بالجامعة، فاستجاب لاستغاثتي بعد أن أدرك صدق مشاعري، وعمل في اليوم التالي على إعادتي إلى قواعدي بقسم التاريخ.

أما الموقف الذي يدعو إلى الاعتزاز، ويدل على حبه للمساعدة، فكان حين كنت أحضر لأطروحة الدكتوراه عن "الثورة العباسية"، وما حدث في أعقابها، وكان عليّ حسب الأصول المتبعة في الجامعات الأوربيّة أن أكتب أطروحة أصيلة فيها فكرة جديدة أو تفسير مبتكر. وقد بذلت جهدًا في قراءة المصادر الأصلية عن الثورة العباسية، وقرأت بين سطور الفقرات والجمل، ونجحت في الحصول على عدد من الروايات الدالة التي تؤكد على أنّ الثورة العباسية كانت عربية في قيادتها وقوتها الضاربة، ولكنني كنت أطمع بالمزيد من الدلائل، وجاءني الغيث من صالح العلي حيث أرسل لي نسخة مكتوبة من مخطوطة أخبار الدولة العباسية (أخبار العباس وولده)[18]. وفيها من الروايات الموثوقة ما يبرهن على أنّها أشبه بوثيقة سياسية رسمية، استفدت منها في تعزيز التفسير الجديد للثورة، بحيث أتمكن من مواجهة لجنة المناقشة بثقة واطمئنان أكبر.

مؤلفاتـه:

إن أعمال صالح العلي من كتب وبحوث باللغة العربية واللغة الإنكليزية كثيرة، لم تذكر فهارس المكتبات الجامعية والوطنية أو فهارس المؤلفين والكتاب العراقيين أو العرب إلا عددًا منها[19].

والمهم أن معظم كتاباته ركزت على حقبة التاريخ العربي الإسلامية في العصر الوسيط، والنسبة الغالبة من هذه المؤلفات والبحوث اختصت بالتاريخ الحضاري للمدن الإسلامية، خلال نشاطه البحثي منذ الخمسينات من القرن العشرين حتى وفاته.

ومن أجل متابعة مؤلفاته وبحوثه التي تمكننا من الوصول إليها آثرنا تصنيفها حسب الموضوعات، واستنادا إلى هذا التصنيف يكون بالإمكان الإشارة إلى ست مجموعات، مع أننا ندرك أنّ التاريخ لا يمكن تجزئته، ومدى التداخل بين الحقب الزمنيّة والموضوعات في مؤلفات صالح العلي، أما المجموعات الست فهي:

أولاً - مجموعة التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي.

ثانيًا - مجموعة التاريخ الحضاري للمدن الإسلامية.

ثالثًا - مجموعة التاريخ العربي الإسلامي في العصر الوسيط.

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي مؤرخًا

رابعًا - مجموعة تأريخ علم التاريخ وتفسيره والتدوين التاريخي عند المسلمين.

خامسًا - مجموعة تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين.

سادسًا - مجموعة تاريخ العرب الحديث.

وتغطي هذه المجموعات، بطبيعة الحال، ما ألفه من كتب وبحوث ومقالات باللغات العربية والأجنبية ونشره في الدوريات والكتب المرجعية ودوائر المعارف (الموسوعات)، وما ألقاه في المؤتمرات والندوات التاريخيّة. وما حققه من مخطوطات، وما ترجمه من كتب أو بحوث من اللغة الإنكليزية إلى العربية. هذا إذا استثنينا الأطروحات التي أشرف عليها.

أما المجموعة الأولى: فقد كان صالح العلي من المتميزين بين المؤرخين العرب في القراءة الاجتماعية/ الاقتصادية للتاريخ العربي الإسلامي. كانت أطروحته للدكتوراه باللغة الإنكليزية أول نتاج له في هذا الحقل ١٩٤٩م، ثم نشرها معربة في بغداد ١٩٥٣م بعنوان: "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري"، وقد طبعت عدّة طبعات.

وتضم هذه المجموعة من جملة ما تضم كتبًا وبحوثًا كثيرة. ففي التاريخ الاجتماعي نشير إلى:

- امتداد العرب في صدر الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨١م.
- تعداد سكان العراق في العهود الإسلامية الأولى، بغداد، ١٩٩٧م.
- الأسرة العباسية في بغداد، مجلة سومر، م٣١، ١٩٧٥م.
- الإسلام والبداوة في صدر الإسلام، مجلة الآداب والتربية، بغداد، عدد٧، ١٩٧٥م.
- أصول ومقومات الحضارة العربية، حاجتها إلى إعادة التقييم، مجلة المورد، بغداد، م٨، ١٩٧٩م.
- أقوال العرب ومؤلفاتهم في خصائص الشعوب والبلدان، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٤١، بغداد، ١٩٩٢م.
- ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي، مج ٢٦، بغداد، ١٩٧٥م، مج ٢٧، ١٩٧٦م.
- الخضاب، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢٩، بغداد، ١٩٧٧م.
- الأنسجة في القرنين الأول والثاني الهجري، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦١م.
- ملامح من الحضارة الإسلامية، مجلة المورد، ٨، ١٩٧٩م.
- قضاة بغداد في العصر العباسي، مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٨، ١٩٦٩م.

- أما في التاريخ الاقتصادي فقد كتب صالح العلي:

- الخراج في العراق في العهود الإسلامية الأولى، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٩٠م (كتاب).
- تنظيم جباية الصدقات في القرن الأول الهجري، مجلة العرب، ج١٠، الرياض، ١٩٦٩م.
- مراكز السَّك الساسانية في العراق وأهمية دراستها، مجلة المسكوكات، عدد٣، بغداد، ١٩٧٢م.
- الخراج وكتاب أبي يوسف فيه، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد، العدد٢، ١٩٧٤م.

- الحمى في القرن الأول الهجري، مجلة العرب، ج٧، الرياض، ١٣٨٩هـ.
- العطاء في الحجاز وتنظيمه في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٠، بغداد، ١٩٧٠م.
- ملكيات الأراضي في الحجاز في القرن الأول الهجري، مجلة العرب، الرياض، ١٩٦٩م.

والمتمعن في محتويات كتب هذه المجموعة وبحوثها يلحظ أنّ صالحًا العلي قدم الشأن الاجتماعي على الشأن الاقتصادي، مركزًا على تطور الأحوال الاجتماعية واستيطان القبائل العربية وخططها وعلاقة بعضها مع بعض ومع السلطة، وكذلك مع أهل البلاد المفتوحة، وهذا يتجلى في كتابيه (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة)، وكذلك في (امتداد العرب في صدر الإسلام)، ولا ينسى في كل ذلك الطابع الثقافي العربي الإسلامي، الذي غلب على الأمصار والمدن التي امتد إليها العرب المسلمون، وبراعته في تصوير هذه المدن كمراكز إشعاع لبث القيم العربية ومبادئ الإسلام في الأقاليم الجديدة، وإبرازه سجايا العرب التي أهلتهم على الاندماج والاختلاط مع سكان البلاد المفتوحة وكشفه لدورهم الإيجابي في التاريخ.

أما المجموعة الثانية: فهي تضم تاريخ المدن الإسلامية والعمران العربي الإسلامي، ويبدو أنّ هذا المجال ظل بين اهتماماته الأساسية، والمجال المفضل لديه، بحيث أصبح رائدًا على المستوى العربي في قراءة تاريخ المدن الإسلامية ابتداء من نشأتها وتطورها خلال العهود الإسلامية المتتابعة راصدًا بدقّة تحولات العمران العربي وبصفة خاصة في مدن العراق، ومن الكتب والبحوث التي ألفها في هذا المجال:

- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بغداد، ١٩٥٣م، حيث يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة بالإضافة إلى المجموعة الأولى.
- بغداد مدينة السلام، ج١، الجانب الغربي، مجلدان، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٥م.
- بغداد مدينة السلام، ج٢، الجانب الشرقي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٥م.
- خطط البصرة ومنطقتها، وهي دراسة في أصولها العمرانية والماليّة في العهود الإسلامية الأولى، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦م.
- خطط البصرة، مجلة سومر، م٨، بغداد، ١٩٥٢م.
- معالم بغداد الإدارية والعمرانية، دراسة تخطيطية، بغداد، ١٩٨٨م.
- معالم العراق العمرانية، دراسة في المعالم الجغرافية والسكانيّة مستمدة من المصادر الأدبيّة، بغداد، ١٩٨٩م.
- المعالم العمرانية في مكة المكرمة في القرنين الأول والثاني الهجريين، بغداد، ١٩٨٩، ١٩٩٠م.
- خطط المدينة المنورة، مجلة العرب، الرياض، ج١٢، ١٣٨٧هـ.
- رصافة بغداد وأطرافها، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد،م٢١، ج٢ ،١٩٩٠م.
- طرق المواصلات في بلاد العرب، مجلة العرب، الرياض، ج١١، ١٣٨٨هـ.
- القيروان في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ج١، ١٩٩٦م.

- منطقة واسط، دراسة طبوغرافية مستندة إلى المصادر العربية، مجلة سومر، بغداد، مجلد ٢٦، ١٩٧٠م.
- نهر عيسى في العهود العباسية، مجلة سومر، بغداد، مجلد ٤٧، ١٩٨١م.
- منطقة الكوفة، مجلة سومر، م٢١، ج١، ج٢، بغداد/ ١٩٦٥م.
- الأحواز في العهود الإسلامية الأولى، دراسة في الأحوال الجغرافية والسكانيّة والإدارية، بغداد، ١٩٧٠م.

كما ترجم صالح العلي عددًا من الكتب الأجنبية عن مدينة بغداد وخططها وعمرانها ومنها:

- أطراف بغداد، تاريخ الاستيطان في سهول ديالى، تأليف: روبرت ماك آدمز، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤م.
- خطط بغداد في العهود العباسية الأولى، تأليف: يعقوب لاسنر، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤م.

خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، تأليف: جورج مقدسي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤م.

والواقع أنّ بغداد والمدن الرئيسة العراقية الأخرى كانت محظوظة، بحيث تيسر لها أن يكتب عن تطور عمرانها مؤرخ متميّز مثل صالح العلي. وإذا عدنا إلى السلف من المؤرخين رأينا أن بعضهم قد جعل كتابة المؤرخ لتاريخ مدينته واجبًا ملزمًا. يقول السلامي (ت٣٧٤هـ) في كتابه (أخبار ولاة خراسان)[٢٠]:

"إنّ الواجب على صاحب المعرفة من أهلها (أي المدينة) أن يعلم جلّ أبنائها، ويحفظ أيام أمرائها، ولا شيء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه، ولعلّه يطلب أخبار غيرها، ويكون بذلك كمن ترك الواجب واتبع النوافل".

لقد وجد المؤرخون الأوائل أنّ هناك من المدن العربية الإسلامية ما يستحق تسجيل أحداثها وتطورات نموها. فإضافة إلى مقولة السلامي آنفة الذكر نشير إلى ملاحظة المسعودي[٢١] من أنّ "لكل قطر عجائب يقتصر علمها على أهلها"، وملاحظة صالح بن أحمد التميمي (ت٣٨٤هـ) في كتابه طبقات الهمذانيين:

"ينبغي لطالب الحديث ومن عُني به أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله... ثم يشتغل بعد ذلك بحديث البلدان"[٢٢].

إنّ ظهور هذه النزعة للكتابة عن تاريخ المدن وتطور عمرانها دلالة واضحة على شعور المؤرخين في الماضي والحاضر بدور سكان هذه المدينة، وأهمية إسهاماتهم في المجال الحضاري، وهو بالتأكيد عند صالح العلي يعكس اهتماماته بالتاريخ الحضاري والفكري وبخاصة لمدينة بغداد، وهو دلالة على إدراكه للقيم الفكريّة التي نمت وتطورت في هذه المدن، وتقديره لقيمة الإنسان، وعمله ومسؤوليته عن ذلك العمل.

أما المجموعة الثالثة: التي تتعلق بالتاريخ العربي - الإسلامي في العصر الوسيط. وتشمل باقة من المراجع والبحوث منها:

- محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، ١٩٦٨م، وقد طبع عدة مرات. وينقسم إلى قسمين رئيسين الأول تاريخ العرب قبل الإسلام. والثاني السيرة النبوية في مكة فقط.
- الدولة في عهد الرسول ﷺ، المجلد الأول،

تكوين الدولة وتنظيمها، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٨م.

- الدولة في عهد الرسول ﷺ، المجلد الثاني، تثبيت الدولة وتوطيدها في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨م.
- إدارة بغداد ومراكزها في العهود العباسية الأولى، مجلة سومر، مجلد ٣٣، بغداد، ١٩٧٧م.
- إدارة خراسان في العهود الإسلامية الأولى، مجلة كلية الآداب، بغداد، العدد ١٥، ١٩٧٢م.
- دراسات في الإدارة العربية الإسلامية، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٩م.
- دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، بيروت، ١٩٨٣م.
- العراق في التاريخ، بالاشتراك، بغداد، ١٩٨٣م.
- الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، بيروت، ٢٠٠٢م، وربما كان هذا الكتاب من أواخر نتاجاته من الكتب.

أما المجموعة الرابعة، فتعالج علم التاريخ عند المسلمين من حيث النشأة، والتدوين والتفسير، وتضم هذه المجموعة عددًا من الكتب المؤلفة والمترجمة وبعض البحوث منها:

- علم التاريخ عند المسلمين، تأليف روزنثال، ترجمة العلي، بيروت، ١٩٨٣م. (وفيه ملحق لكتاب السخاوي الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ).
- الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخيّة، تأليف جفري باركلو، ترجمة العلي، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.
- المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز، (مجلة المجمع العلمي العراقي)، بغداد، ١٩٦٤م.
- تفسير التاريخ، (بالاشتراك)، بغداد، د.ت.
- دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، عمان، ١٩٨٣م.
- أقوال العرب ومؤلفاتهم في خصائص الشعوب والبلدان، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، مجلد،٤١، ١٩٩٢م.
- تاريخ العلماء وفهارس المصنفات في المصادر العربية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٤٣، ١٩٨٣م.
- التدوين وظهور الكتب المصنفة في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٣١، ١٩٨١م.
- الرواية والأسانيد وأثرهما في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد٣١، ١٩٨٠م.
- متطلبات البحث العلمي، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، مجلد ٣٧، ١٩٨٦م.
- مسوّغات تجديد كتابة التاريخ، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٣٩، ١٩٨٨م.
- مشاكل تتطلب الحل في إعادة كتابة التاريخ العربي، مجلة الباحث، مج ٣، ١٩٨١م.
- مصادر دراسة تاريخ الكوفة في القرون الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٢٤، ١٩٧٤م.
- سيرة ﷺ ومدونوها الأوائل، مجلة آفاق

الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد، دبي، ٢٠٠٣ (لعلها آخر مقالة نشرت له).

المجموعة الخامسة، تشمل تاريخ العلوم عند المسلمين، وتضم عددًا من الكتب التراثية في مجال العلوم العقليّة والنقلية، التي قام بتحقيقها ونشرها، إضافة إلى عدد من البحوث والمقالات في الإطار نفسه.

- مكانة العقل في الفكر العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٩٦م.
- البوزجاني (ت٣٨٨هـ) ما يحتاج إليه الصانع في علم الهندسة، مطبوعات مركز إحياء التراث العلمي العربي، تحقيق وتقديم: صالح العلي، بغداد، ١٩٧٩م.
- الأدب العربي في آثار الدارسين (بالاشتراك)، بيروت، ١٩٦١م.
- الجاحظ، البلدان، تحقيق وتقديم: صالح العلي، بغداد، ١٩٧٠م.
- ابن الفقيه الهمداني، بغداد مدينة السلام، تحقيق: صالح العلي، بغداد، ١٩٧٧م.
- العلوم عند العرب، عمان، ١٩٨٩م.
- المدخل إلى الآرثماطيق، لأبي الوفاء البوزجاني، بغداد، د.ت.
- تاريخ العلم عند العرب (مجلة المجمع العلمي العراقي)، م٣٣، بغداد، ١٩٨٢م.
- دراسة العلوم الرياضية ومكانتها في الحضارة الإسلامية، مجلة المورد، مجلد ٣، ١٩٧٤م.
- مكانة العلم ودوره في حضارتنا بين الماضي والمستقبل (ضمن كتاب رحلة في الفكر والتراث، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٠م).
- مفردات اللغة العربية منابع دراستها وأصولها، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، م٤١، ١٩٩٠م.
- نقل كتب العلوم إلى العربية، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، مجلد ٣٤، بغداد، ١٩٨٣م.

أما المجموعة السادسة والأخيرة فتضم كتبًا في التاريخ الحديث مما له علاقة بالعرب وتاريخهم، وكذلك بعض المقالات حول الموضوع نفسه، ومنها:

- تطور الفكر القومي العربي، ندوة مركز دراسات الوحدة العربية عقدت في بغداد، ١٩٨٦م.
- إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب، ندوة مركز دراسات الوحدة العربية، بغداد، ١٩٧٧م.
- أرنست رامروز، تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م، ترجمة: صالح العلي، تقديم ومراجعة: نقولا زيادة، بيروت، ١٩٦٠م.
- إيران: منظور تاريخي للشخصة الإيرانية، بغداد، ١٩٨٣م (بالاشتراك).

منهج صالح العلي في الكتابة التاريخية من خلال نماذج من كتبه:

إنّ ما ألّفه صالح العلي من كتب وبحوث في مجالات التاريخ متنوعة وبخاصة في مجال التاريخ العربي الإسلامي في القرون الإسلامية الأولى، جعلت علم التاريخ عند العرب والمسلمين يدين له بوصفه من الرواد في التاريخ المعاصر، الذين منحوه قيمة حقيقية؛ لأنها دراسات جادّة تتسم

بالموضوعية، ذلك لأنه من المؤرخين العرب الذين تعدّ أعمالهم من أكثر الأعمال تميّزًا في مجالها في النصف الثاني من القرن العشرين.

ينطلق صالح العلي في تفسيره للتاريخ من رؤية عربية- إسلامية إنسانية متفتحة على كل العوامل التي يمكن أن تؤثر في الحدث التاريخ. وهي رؤية واقعية؛ لأنّ من شأنها الوصول إلى نتائج أقرب ما تكون إلى الصحة، كما نلاحظ في كتب العلي وبحوثه ربطه بين روايات المؤرخين وتخريجات الفقهاء وقصائد الشعراء وانطباعات الأدباء عن الحقبة التي يدرسها. بل إنه في كتبه عن عهد الرسالة استند على آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في رسم معالم وأحداث تلك المدة، وهي قراءة منهجية لم يتبعها إلا عدد قليل جدًا من المؤرخين المحدثين. ثم إنّ استعانة المؤرخ المفكر بكل هذه الثروة القرآنية والحديثية والفقهيّة والأدبيّة تساعده على توضيح المبهم من الأحداث التاريخيّة التي يعود سببه إلى ثغرات في الروايات التاريخيّة أو غموض فيها.

ليس بالإمكان رصد كل الطروحات والتفسيرات التي قدّمها صالح العلي في جملة دراساته.. ولكننا سنحاول فيما يأتي أن نختار نماذج من أعماله متتبعين تسلسل المدة الزمنية التي عالجتها تلك الأعمال من حقبة التاريخ العربي الإسلامي الوسيط. وقد وقع الاختيار على أربعة كتب هي:

- محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، ١٩٦٨م.
- الدولة في عهد الرسول ﷺ، جزءان، بغداد، ١٩٨٨م.
- امتداد العرب في صدر الإسلام، بغداد، ١٩٨١م.
- بغداد مدينة السلام، جزءان، ١٩٨٥م.

أما الثلاثة الأولى فلأنها متسقة في موضوعها الذي يتعلق بالشأن السياسي - الاجتماعي - الإداري، ولأنها - كما أشار المؤلف نفسه - تكمل بعضها بعضًا في التعاقب الزمني. أما الرابع فلأنه يتعلق بموضوع تألق فيه صالح العلي؛ ألا وهو موضوع التاريخ الحضاري للمدينة الإسلامية وبخاصة بغداد.

أما الكتاب الأول (محاضرات في تاريخ العرب)، فيغطي حاجة واضحة في حقل تاريخ العرب القديم وسيرة الرسول ﷺ، وبدء الدعوة في مكة المكرمة، وقد قسم المؤلف الكتاب على ثلاثة أقسام، يتألف كل منها من عدّة فصول. كرس القسم الأول للدول العربية القديمة. أما القسم الثاني فتكلم عن الحياة البدوية، ونظمها قبل الإسلام، وفصل في الدين الجاهلي من حيث المعبودات والطقوس. وتناول القسم الثالث حياة الرسول ﷺ والدعوة في مكة. وإذا كان الباحث يعتمد في القسم الأول على جملة مراجع لمؤرخين محدثين يشير إليها في الهوامش، فإنه يستقي المعلومات التاريخيّة للقسمين الثاني والثالث من مصادرها الأساسية، وبخاصة آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتفاسير القرآن، والمؤلفات التاريخيّة. ففي القسم الثاني استفاد من آيات القرآن الكريم في الكشف عن العادات والتقاليد لعرب ما قبل الإسلام، وبدرجة أوسع في توضيح الديانة الجاهلية.

أما في القسم الثالث الخاص بسيرة الرسول ﷺ ودعوته في مكة المكرمة، فإنّ استفادته من القرآن بالدرجة الأولى والحديث كانت واضحة، وقد أخذ على الباحثين الذين سبقوه في الكتابة عن سيرة الرسول ودعوته عدم اعتمادهم على القرآن ما عدا محمد عزة دروزة الذي سبقه في

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي مؤرخًا

اتخاذ القرآن الكريم مصدرًا أساسيًّا للدراسة، واستخدمه بمهارة مكملاً ذلك بالروايات التاريخيّة فطلع بنتائج مهمَّة. ويقول صالح العلي عن منهجه في هذا الشأن:

"إن محاولتي هنا هي دراسة القرآن كمصدر أساسي، ثم عرض بعض ما أراه من آراء المستشرقين والباحثين المحدثين، واستخلاص صورة لتطور حياة الرسول ﷺ والعقائد الإسلامية في العهد المكي"[٢٣].

ويوضح صالح العلي موقفه فيما كتبه المستشرقون عن حياة الرسول ﷺ ومبادئ الدعوة الإسلامية، فقد تعرّفها عن كثب ووظف بعضها في ثنايا دراسته هذه ودراساته الأخرى، وأشار إلى استفادته من بعض الآراء التي أوردوها، ولخص موقفه بالقول:

"لا شك أنّ التعصب الديني الذي كان مسيطرًا بتأثير الحروب الصليبيّة، ونظرًا لضعف معرفتهم باللغة العربية، وقلة المصادر المتوافرة لديهم. غير أنه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين امتدحوا الإسلام"[٢٤].

وقد امتدح تور أندريه في كتابه (محمد الرجل وعقيدته)، ومنتكمري وات في كتابه (محمد في مكة)، وأشار إلى كايتاني ومنهجه في إيراد الروايات كافة، المعروفة عن كل حادثة، ثم يتلوها بإيراد من بحث فيها من المستشرقين كافة ثم يحللها، ويستخلص منها ما يراه، فكان كتابه، من أوسع الكتب وأشملها، وإن لم تكن تفاصيل أبحاثه نهائية أو متفقًا عليها[٢٥].

كما أشار صالح العلي إلى الصعوبات التي تصادف الباحث عند محاولة الاستفادة من القرآن الكريم لدراسة حياة الرسول ﷺ وتاريخ الدعوة. ذلك لأنّ القرآن لم يشمل بالذكر الحوادث كافة التي مرّ بها الإسلام، أو كل الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ. ثم إنّ كثيرًا من المؤسسات والنظم الجاهلية التي أشار إليها القرآن زالت بعد مجيء الإسلام، ويرى صالح العلي أن أكبر صعوبة تصادف الباحث عند محاولة الاستفادة من القرآن في دراسة تاريخ الرسول ﷺ، والدعوة وبخاصة في الدور المكي هي إشكالية معرفة زمن نزول الآيات، ذلك أنّ العلماء المسلمين الأوائل بحثوا في آيات محدودة، وليس كل الآيات، وتناول صالح العلي بحوث بعض المستشرقين ومحاولاتهم تعيين زمن النزول، وعلى رأسهم نولدكه في كتابه (تاريخ القرآن) وريتشارد بل في مقدمة ترجمته للقرآن. فقد اتخذ الأول الأسلوب معيارًا لمعرفة زمن النزول، أما الثاني فقد اعتمد على الموضوعات التي تناولتها الآيات ومعانيها[٢٦]. وفضل العلي الباحث الثاني، مشيرًا إلى أنّ استنتاجاته تثير التفكير، ولكن أحكامه ليست نهائية. ويوضح صالح العلي منهجه أكثر حين يقول: " حاولت في بحثي عن الدعوة الإسلامية أن أجمع الآيات التي تدور حول الموضوع الواحد مستعينًا بما رواه المؤرخون عن خطوات الدعوة وما يقتضيه منطق الحوادث في استنتاج سير تطورها"[٢٧].

والواقع أنّ هذا القسم (الثالث) من الكتاب يعد عملاً تاسيسيًّا في مجاله، تطرق فيه إضافة إلى السيرة إلى الوحي ومبادئ الإسلام الأولى والأدلّة القرآنية على تطور الدعوة والكفاح ضد المشركين. وقد نجح منطق العرض لديه في إقرار توازن متكافئ ومترابط من الآيات القرآنية والروايات التاريخيّة، كل ذلك بلغة سهلة تعبر عن هدفها بتلقائية مؤرخ محترف لكتابة التاريخ.

لقد كان كتاب (محاضرات في تاريخ العرب)

الذي ناقشناه آنفًا هو الجزء الأول من الكتاب، حيث وعدنا صالح العلي أن يتمه بجزء ثانٍ عن الإسلام في المدينة المنورة. إلا أنّ هذا الجزء لم يصدر، وصدر بدلاً عنه وبعد مدة طويلة كتاب بعنوان (الدولة في عهد الرسول ﷺ). وقد أوضح المؤلف ذلك في تقديمه للكتاب بقوله[٢٨]:

"يضم هذا الكتاب دراسات عن قيام دولة الإسلام في المدينة وتطور تنظيمها وتوسعها وامتدادها وتثبيتها في شبه الجزيرة العربية إبان حياة الرسول ﷺ.. وهو مكمل لدراستنا التي نشرناها منذ سنوات عن تاريخ العرب قبل الإسلام والدعوة الإسلامية في مكة، وممهد لكتاب عن امتداد الدولة وتطوراتها في صدر الإسلام".

يبدو أنّ المؤلف كانت لديه خطّة لتأليف سلسلة من الكتب تبدأ من تاريخ العرب قبل الإسلام، ثم الدعوة الإسلامية والدولة في عهد الرسول ﷺ، ثم امتداد العرب في صدر الإسلام، ثم يردفها بكتب أخرى عن العهدين الأموي والعباسي متابعًا تطور التاريخ العربي الإسلامي. وقد أنجز بالفعل الكتب الثلاثة الأولى فقط ونشرها.

اقتصر كتاب (الدولة في عهد الرسول ﷺ) على جوانب محددة تتعلق بإقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، واتسع الكتاب ليشمل عهد الخليفة أبي بكر الصديق؛ لأنّ الصديق، كما يقول المؤلف، أتم بناء الدولة وعمل على امتدادها. ويضيف صالح العلي قائلاً في تسويغ إضافته عهد أبي بكر الصديق:

"والواقع أنه واجه قضايا خطيرة، كانت معالجته الموفقة لها عاملاً حاسمًا في بقاء الكيان الذي شيده الرسول ﷺ، وإعداده للدور الواسع في العالم، وكان دليله في هذه المعالجة مبادئ الإسلام التي تشبع بها، وتفهمه العميق لأفكار الرسول ﷺ، وصحبته الطويلة واتصاله الوثيق... فإنّ الأحداث التي واجهها كانت امتدادًا وثيق الاتصال بالتطورات في السنين الأخيرة من حياة الرسول ﷺ، بحيث يكون فصلهما مصطنعًا ومربكًا[٢٩]".

ولعل الذي يطالع الكتاب يدرك أنّ هناك ميزة توافرت في صالح العلي هي انفتاحه على معلومات متنوعة عن سيرة الرسول ﷺ وتاريخ الدولة الإسلامية. وهذه المعلومات تنبع من مصادر أساسية عديدة منها القرآن الكريم، وكتب الحديث، وكتب التفسير، ثم كتب السيرة والأنساب والتراجم وكتب البلدان، وهو لا يهمل بعد ذلك مؤلفات المؤرخين المحدثين من عرب ومستشرقين. وهذه المعلومات متداخلة، بحيث يستعصي فك ارتباطها، ولكنها في النهاية تفضي إلى صورة واضحة للتاريخ السياسي والاجتماعي والإداري والديني للإسلام، الأمر الذي رتب على المؤرخ مهام جسام تنوء بثقلها مجموعة مؤرخين.

بعد مقدمة موجزة للتعريف بمصادره ومراجعه قسم المؤلف كتابه على خمسة أقسام:

الأول: عن أهل المدينة والدعوة الإسلامية، ولعلّ أهم ما في هذا القسم الفصل الثاني عن خطط المدينة المنورة وعشائرها عند الهجرة. والفصل السادس الذي يتكلم فيه عن بدء الفرائض الإسلامية الأولى. أما القسم الثاني، فيعالج تأمين السيادة في المدينة المنورة، ويوضح القبائل المؤيدة والمعارضة للإسلام مفصّلاً في جماعة المنافقين واليهود. ويتطرق القسم الثالث إلى الجهاد واستخدام السلاح، ويفصل في أهم المعارك مع قريش واليهود. أما أهم فصول هذا القسم فتلك التي تتكلم عن أحوال العشائر في

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي مؤرخًا

أواسط الحجاز، وامتداد الإسلام إليها. أما القسم الرابع، فيضم فصولاً تتحدث عن انتشار الإسلام في شمالي الحجاز، ثم عن رسائل الرسول ﷺ، والوفود المتبادلة بينه وبين هذه العشائر. ويدلل الفصلان الثاني والعشرون والثالث والعشرون من القسم نفسه اللذان يتطرقان إلى التنظيمات الإدارية والمالية في الدولة الإسلامية الجديدة، إلى أنّ الدولة استقرت منذ البداية على ثوابت معينة في المفاهيم والمؤسسات والأعراف.

أما القسم الخامس والأخير من الكتاب فيتناول (رسالة الإسلام) من حيث الدين وعلاقته بالأمة وبالفرد، ثم الأخلاق والعلاقات الاجتماعية وسجايا الرسول ﷺ وتأثيرها بوصفه القدوة، ولا ريب في أنّ موضوع الكتاب يكتسب أهمية واضحة؛ لأن الحقبة التي عالجها اتسمت بتطورات جذرية كان لها أثرها في مسار المجتمع والدولة فيما بعد. كما تأتي أهميته الاستثنائية في نظرته الشمولية إلى الأحداث الكبيرة في تلك الحقبة، وقد عبر صالح العلي عن هذه المنهجيّة بالقول:

"استهدفت ربط الحوادث المنفردة بالأحوال العامة، مما يعين على فهم أسلم لمكانتها وأهميتها ومساراتها... وتلاحمها مع الأوضاع العامة القائمة. ولم تقتصر (المنهجية) على سرد الحوادث، بل امتدت إلى تقدير أهميتها وإلى معالجة الجوانب الاجتماعية والإدارية والأخلاقية التي أبرزت بعد دراسة دقيقة وتأمل هادئ..[٣٠].

وأخيرًا الملاحظ أنّ صالحًا العلي يوظف في هذا الكتاب مجموعة البحوث والدراسات التي قام بها قبل تأليف الكتاب، والتي لها علاقة بموضوع الكتاب وزمنه، ويدخلها ضمن فصول الكتاب، وبشكل متناسق. وكانت طريقته التي اتبعها أن ينشر البحوث في المجلات، ويتلقى عليها الملاحظات النقديّة والتعليقات، فيضيف إليها ويعدلها ثم يستخدمها في كتبه الجديدة. وهي لا شك طريقة ذكيّة ونافعة، استخدمها في كتب أخرى كذلك.

أما الكتاب الثالث في هذه السلسلة المتتابعة فهو (امتداد العرب في صدر الإسلام)، الذي صدر ببغداد ١٩٨١م، ويضم الكتاب عددًا من المحاور، أولها: أوضاع العرب في شبه جزيرتهم قبيل الإسلام وبعده، ويتناول في الثاني امتداد الدولة الإسلامية إلى أقاليم الجوار، ويفصل في الثالث في امتداد العرب في العراق، أما في الرابع - إلى السادس فيتكلم عن انتشارهم في المشرق (أذربيجان، الهضبة الإيرانية، خراسان). أما السابع فيتطرق بالتفصيل إلى انتشارهم في بلاد الشام. وفي الثامن امتدادهم في الجزيرة الفراتية، وأخيرًا استيطانهم الثغور وأرمينية. وقد تناول المؤلف الهجرات التي تمت في أثناء الفتح، وكذلك الهجرات السلمية المنظمة وغير المنظمة، كما أنه لم يقتصر على ذكر الأحداث السياسية والعسكرية، بل ركّز بالدرجة الأولى على المظاهر الاجتماعية والثقافية والإدارية، مؤكدًا على دور الأمصار، ودور الهجرة في هذه الأقاليم التي غدت مركز إشعاع لنشر الإسلام واللغة العربية، إضافةً إلى كونها بوتقة انصهرت فيها الفئات العربية والأعجمية، وتبادل القيم والمثل والعادات الخلقية والحضارية.

وتتجلى في هذا الكتاب مقدرة العلي في النظرة إلى الأحداث السياسية والعسكرة للفتوح التي ملأت العديد من كتب المؤرخين الأوائل بنظرة شمولية تؤكد على التفسير الحضاري لامتداد العرب التاريخي في رقعة واسعة خلال وقت قصير، وعدم ربط هذه الظاهرة بعامل واحد، بل

بعدد من العوامل التي يتداخل بعضها مع بعض لتكون الحدث التاريخي، ورفضه النظرة الأحادية التي قال بها بعض المستشرقين وغيرهم، وكذلك "المبالغات" والتوجهات المقبولة التي حاول بعضهم صب الأحداث بها"[٣١].

ويرى صالح العلي أن إعارة المظاهر والتطورات الاجتماعية والاقتصادية لظاهرة المد العربي الإسلامي وما تبعه من تأسيس الأمصار، ودور الهجرة التي امتزج فيها العرب بسكان البلاد المفتوحة، تعطي صورة صادقة لما كان يجري من " حياة تعاونية مدنية تسير على نظام متزن، وتتعرض لتطور هادئ، وتتجلى فيها مرونة العرب في الإدارة، وقابليتهم على التكيف للحضارة، وسعة صدرهم في مواجهة النظم الجديدة التي لم يألفوها"[٣١]. فقد برزت التعددية في الدين والمذهب، والتعددية في العنصر، والتعددية في القيم والأعراف والآراء. ويرى أن ظهور الدراسات العلميّة الأولى في الأمصار والمدن الإسلامية شجع إلى حد كبير على بلورة منهج في التفكير التاريخي والمنطقي المنظم في المجتمع[٣٢].

وأخيرًا يؤكد صالح العلي أهمية هذه النظرة للفتوح؛ لأنّ الكثير من عقائدنا السياسية والدينيّة والفكريّة الحالية قد نبتت واستقرت جذورها في تلك المدة المبكرة، ومن هنا ستعين هذه الدراسات في توجيهنا في حاضرنا من خلال الاستفادة من تجارب أجدادنا.

وأما الكتاب الرابع والأخير (بغداد مدينة السلام) الذي سنتناوله ضمن هذه المجموعة، والذي صدر بمجلدين ببغداد سنة ١٩٨٥م، فقد اتبع فيه المؤلف منهجًا يعتمد على المصادر الأصلية والبحوث الحديثة التي كتبها المشارقة والمستشرقون. وكان هاجسه إظهار بغداد بجوانبها كافة بالمركز المتميز الذي تبوأته، والذي استحقته بجدارة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية[٣٤].

والكتب التي صدرت عن بغداد كثيرة[٣٥]، ولكن كتاب صالح العلي يبقى متميّزًا بين الدراسات الحديثة، فهو إسهام فكري ترجع فائدته للمختصين والمهتمين بتاريخ المدينة العربية الإسلامية. وقد قسم المؤلف الكتاب على مقدمة وأربعة أقسام تضم أربعة وثلاثين فصلاً. وفي آخر الكتاب ملحق بأسماء الأعلام الذين ترجم لهم الخطيب البغدادي تبعًا للمدن والأقاليم المنسوبين إليها. وكذلك مجموعة من الخرائط العمرانية عن بغداد وأطرافها في العصر العباسي.

في مقدمة الكتاب يستعرض المؤلف أقوال بعض المؤرخين عن بغداد أيام عزّها وازدهارها، ومنهم اليعقوبي[٣٦]، الذي يسميها "المدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرًا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء...فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا... سيقت إليها خيرات الأرض، وجمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت بها بركات العالم.. وهي مع هذا مدينة بني هاشم، ودار ملكهم، ومحل سلطانهم، لم يبتدئ بها أحد قبلهم، ولم يسكنها ملوك سواهم.. ثم هي وسط الدنيا ... حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم وانفتقت أذهانهم..".

والخطيب البغدادي[٣٧] الذي قال فيها: "لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها"، وابن الفقيه[٣٨] الذي أنشد فيها:

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين

على تقلبها في كل ما حين

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي مؤرخا

ويتكلم المؤلف عن رقعة بغداد والأغراض التي توخاها المنصور من بنائها، ثم يتابع تطورها عبر القرون العباسية، وينتقل صالح العلي إلى مناقشة مصادر تاريخ بغداد قديمًا وحديثًا، ويلاحظ أنّ هذه المصادر اقتصرت على دراسة المعالم الخططية دون الاهتمام بالسكان. وهذا ما هدف إليه الكتاب، حيث أولى اهتمامًا أكبر إلى سكان بغداد وأصولهم العرقية والثقافية وتطورهم وأحوالهم عبر الزمن. ويبدي صالح العلي في آخر المقدمة عواطفه تجاه بغداد التي ولع بها، وكتب عنها كثيرًا، قائلاً: إنها كانت سرة الدنيا وعادت قلب العراق وتاجه[٣٩].

ولا ريب أنّ كلّ الفصول التي تتكون منها الأقسام الأربعة للمجلدين الأول والثاني من الكتاب تتعلق بالتاريخ الحضاري لمدينة بغداد وسكانها ومؤسساتها حتى الثلث الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، على الرغم من تجاوز هذا التاريخ أحيانًا في بعض التطورات التي حدثت في بغداد.

تتكلم فصول القسم الأول عن العواصم الأولى للدولة الإسلامية، ثم اختيار موقع بغداد والغرض من تأسيسها، سكانها الأوائل، الأسرة العباسية في بغداد، الصحابة والأنصار، الموالي، سيادة الثقافة العربية في بغداد، الجيش العباسي وعناصره وصنوفه وتنظيم إسكانه، الدواوين والإدارة، النصارى والأديرة، النشاط الاقتصادي والعمراني في الكرخ وبدايات العمران في الرصافة.

وتعالج فصول القسم الثاني خطط بغداد من حيث سككها وخنادقها وأسوارها وأبوابها وأسواقها ومقابرها ومستشفياتها وقصورها. أما القسمان الثالث والرابع فيتناولان ما طرأ على بغداد من توسع وامتداد في أطرافها الجنوبية والشمالية، والمعالم العمرانية، والانتشار السكاني فيها.

يؤكد صالح العلي مرة ثانية في فصول هذا الكتاب على أهميّة التاريخ الحضاري والاجتماعي منه بشكل خاص؛ لأنّ ما فيه من أحداث تفيد الإنسان في حياته الحاضرة، فأحوال الدنيا متشابهة وأمورها متكاملة. فلو لم يكن لصالح العلي سوى كتب المدن وتاريخها الحضاري لكفاه ذلك، حيث عدت دراساته من أفضل الدراسات التي سجلت ملاحظات دقيقة، وموضوعية في هذا الحقل، ولعلنا نلحظ في هذه الكتب وغيرها من مؤلفاته مشهد الأمة المتشكّل من " عروبة وإسلام"، كما نرى التلاقي بين وجهتي النظر" التراثية والحديثة"، التراثية المستنبطة من المصادر الأولية، والحديثة التي تستنير بآراء المؤرخين المحدثين.

الخاتمة:

وأخيرًا وليس آخرًا ... لا أرنو في ملاحظاتي هذه عن صالح العلي إلى ما قام به المؤرخ السخاوي حين كتب عن أستاذه كتابًا كاملاً سماه "الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر"[٤٠]، وهو أمر يستحق صالح العلي مثلما استحقه ابن حجر العسقلاني، بل أهدف وبتواضع أن أساهم في التعريف بالرجل عرفانًا بالجميل واستذكارًا بواحد من المؤرخين الذين تركوا بصمات في مجال عملهم. والتاريخ يثبت المرة تلو الأخرى بأنه كلما ازدادت المحن على الأمة ظهرت الحاجة لتدوين سير البارزين السابقين في الأمة وإعادة تدوينها ونشرها.

إنّ المؤرخ مثله مثل الأديب والمفكر والعالم، قائد في أمته، ولا يجوز للمؤرخ، وهو قلب الأمة، أن يعيش مع نفسه، بل لا بد أن يخرج إلى المجتمع،

وأن يجعل من التاريخ تعبيرًا قويًّا عن شخصية الأمة وتطلعاتها. وصالح العلي مثل نفحة أصيلة في الكتابة التاريخية مقدرة تقديرًا عاليًا في الأوساط التاريخيّة العربية والعالمية. فقد كان يمثل محاولة للانطلاق إلى رؤى وتفسيرات جديدة تشير إلى آفاق جديدة في تفسير التاريخ العربي الإسلامي غير الآفاق التقليدية التي اعتدنا عليها. ثم إنّ الآراء التي ذكرها كانت مبنية على أسس علمية ودراسة استقصائية وأدلّة موضوعية ترفض القول القائل: إن ليس بالإمكان أبدع مما كان.

إنّ صالحًا العلي ما أراد أن يكتب إلا وجه الحقيقة كما يراها، وكان فيما كتبه مفكرًا شموليًّا، لم يعالج التاريخ الحضاري للمدن الإسلامية فقط، بل عالج المظاهر الاجتماعية في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، وتاريخ علم التاريخ، والخصائص الرئيسة للحركة الفكرية الإسلامية، وتاريخ العلوم عند العرب، بل له بصماته في الكتابة في تاريخ العرب الحديث، تضم آراء وبحوثًا وترجمات عديدة. رحمه الله تعالى رحمة واسعة. ■

●●●

الحواشي

١- راجع قائمة مركز بابرز للشخصيات التي رحلت عن العالم خلال العام ٢٠٠٣م. جريدة الرأي الأردنية، شهر كانون الأول ٢٠٠٣م.

٢- الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، راجع التفاصيل في تيسير الزواهرة، اليمن واليمنيون، مجلة مؤتة، ٩، ٢، ١٩٩٤م: ٧٩وما بعدها.

٣- جريد الحرية، بغداد ١٩٥٩/١٩٦٠.

٤- وفيات الأعيان، ترجمة بهاء الدين بن شداد..

٥- الدكتور عبد العزيز الدوري سجاياه الأصيلة وعمله ضمن كتاب عبد العزيز الدوري، إنسانا ومؤرخًا ومفكرًا:٣٠.

٦- العباسيون الأوائل:٧٣/٢فما بعد.

٧- جنة الرضا فيما قدر الله وقضى.

٨- معيد النعم ومزيل النقم.

٩- عبد العزيز الدوري والتاريخ الاقتصادي العربي، مجلة الاجتهاد، ع٣٤ /٣٥/ س٩/ ٤٣.وكذلك بعض اسهامات الدوري التاريخيّة والاقتصادية ضمن الكتاب عبد العزيز الدوري:٤٢.

١٠- حوار مع هشام جعيط، مجلة الوطن العربي، ع٣٩٨، ١٩٨٤/ ٦٨ -٦٩.

١١- إشكالية المنهج، جريد الحياة ، ١٩٩٥ تموز/١٩.

١٢- عبد العزيز الدوري والتاريخ الاقتصادي العربي، مجلة الاجتهاد،:٣٣٩-٣٤٠.

١٣- المصدر نفسه:٣٤٠.

١٤- حوار مع هشام جعيط، مجلة الوطن العربي:٦٩.

١٥- عبد العزيز الدوري صور من مسيرة مفعمة بالأحداث وغنية في العطاء، سلسلة محور العدد، مجلة الجديد،ع ١٤، ١٩٧٧/ ٢١-٢٣.

١٦- عبد العزيز سجاياه الأصلية:٢٥-٣٢، ٢٩.

١٧- جريدة الرأي الأردنية، ك١ ،٢٠٠٣م.

١٨- أخبار الدولة العباسية(أخبار العباس وولده).

١٩- يراجع :معجم المؤلفين والكتاب العراقيين، وكتاب الدوريات العربية ج٤.

٢٠- أخبار ولاة خراسان.

٢١- مروج الذهب(المقدمة).

٢٢- طبقات الهمذانيين.

٢٣- محاضرات في تاريخ العرب:٢٥٧.

٢٤- المصدر نفسه:٢٥٩.

٢٥- المصدر نفسه.

٢٦- المصدر نفسه:٢٤١-٢٤٢.

٢٧- المصدر نفسه:٢٤٢.

٢٨- الدولة في عهد الرسول ﷺ:٣.

٢٩- المصدر نفسه:٦.

٣٠- المصدر نفسه.

٣١- الدولة في عهد الرسول ﷺ:٦.

٣٢- حول التأكيد على الظاهرة الحضارية يراجع: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة:٨.

٣٣- المصدر نفسه:٨-١١.

٣٤- بغداد مدينة السلام:٣.

٣٥- راجع: مراجع ما نشر عن بغداد، مجلة Arabica، (عدد خاص عن بغداد)، كذلك: راجع عن بغداد في Islamicus Index، عدة أجزاء.

٣٦- البلدان:٢٣٣ فما بعد.

٣٧- تاريخ بغداد:١١٩/١.

٣٨- بغداد مدينة السلام: ١٦٢.

٣٩- بغداد مدينة السلام:مج ١٥/١.

٤٠- لجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، راجع التاريخ العربي والمؤرخون:٣٦٨.

المصادر والمراجع

- **أخبار الدولة العباسية**، لمؤلف مجهول، تح. الدوري، والمطلبي، بيروت ١٩٧٨م.
- **إشكالية المنهج**، لوجيه كوثراني، جريدة الحياة، بيروت، ١٩٩٥م.
- **بغداد، مدينة السلام**، لابن الفقيه، تح. صالح أحمد العلي، بغداد، ١٩٨٥م.
- **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة**، لصالح أحمد العلي، بيروت، ١٩٥٣م.
- **جنة الرضا فيما قدر الله وقضى**، للغرناطي الأندلسي، عمان، ١٩٨٩م.
- **الدولة في عهد الرسول**، لصالح أحمد العلي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٨م.
- **العباسيون الأوائل**، لفاروق عمر، دمشق، ١٩٧٣م.
- **عبد العزيز الدوري سجاياه الأصيلة وعمله**، لصالح أحمد العلي، ضمن كتاب عبد العزيز الدوري، إنسانًا ومؤرخًا ومفكرًا، مؤسسة شومان، الأردن ٢٠٠٠م.
- **عبد العزيز الدوري والتاريخ الاقتصادي العربي**، لإبراهيم بيضون، مجلة الاجتهاد، ع ٣٤-٣٥/س٩/بيروت، ١٩٩٧م.
- **اليمن واليمنيون**، لتيسير الزواهرة، مجلة مؤتة للبحوث، ١٩٩٤م.



العلامة الشهيد المجهول القبر

الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

(١٣٠٨-١٣٧٧هـ/١٨٩١-١٩٥٧م)

د. أحمد عيساوي
جامعة باتنة - الجزائر



بيئته وظروف عصره:

يمكن وصف المدة التي ولد فيها الشيخ العربي بن بلقاسم التّبسّي الجزائري الزيتوني الأزهري ونشأ فيها وعاش، ودعا فيها إلى الله.... بأنها أظلم مدة مرّت بالجزائر العربية المسلمة طيلة وجودها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وبعد أن أيقنت فرنسا أن الجزائر قد آلت إليها وإلى الأبد، وأنه لن تقوم لها قائمة بعد القرن العشرين في سماء العروبة والإسلام.

فقد مضى على آخر ثورة شعبيّة مسلحة في الجزائر قرابة ربع قرن[1]. وكان قد انتهى عهد الثورات المسلحة، والانتفاضات الكبرى - عدا انتفاضة الشيخ بوعمامة وأولاد سيدي الشيخ- وابتدأ عهد جديد، جيله يخالف جيل الثورات والانتفاضات العنيد، الذي تميّز بشراسة رجاله ومقاومتهم البطولية.

وابتدأ عهد جديد، تمثل في ظهور جيل جديد من العلماء والمثقفين والسياسيين يرى في مهادنة الاستعمار أسلوبًا تكتيكيًا حديثًا، ونمطًا للحفاظ على الرمق الأخير من حصون العربية والإسلام المتبقية في الجزائر.

هذا الجيل يتميّز عن الأجيال اللاحقة بكونه يحمل تصورات الجيل الجهادي السالف نفسها

وقيمه ومبادئه وأصالته.... ولكنه يختلف عنهم في كثير من المقومات، ومن هذا الجيل- الذي ولد أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الرابع عشر الهجري - كان الإمام الشيخ سيدي {العربي بن بلقاسم التبسي} الزيتوني الأزهري.

ولعلّ إلقاءنا بعض الأضواء على ظروف الجزائر السياسية والاجتماعية والثقافية وأوضاعها... ينير لنا الواقع الذي تحكّم في نشأة الشيخ سيدي {العربي بن بلقاسم التبسي} ووجه حياته وكوّنها.

فقد ولد الشيخ في مرحلة الانتفاضات المسلحة (١٨٧٢-١٩١٦م)، وبعد أن مرّت الجزائر بمرحلة المقاومة المسلحة (١٨٣٠-١٨٧٢م)، كما عاش ودعا إلى الله وخدم دينه في مرحلة النضال السياسي السلمي الممتدة بين سنوات (١٩١٩-١٩٤٥م)[٢].

كما ولد في منطقة خاضعة للحكم العسكري الفرنسي العرفي الخاص، وعاش وتربى ودعا فيها إلى الإسلام، وقد كان يطبق فيها قانون القهر الزجري {الأنديجينا}، وفي منطقة اشتهرت بمناجمها وخيراتها من الفحم والحديد والفوسفات، وقد تسربت إليها المعسكرات والتجمعات الاستعمارية والعمالية المنجمية مبكرة، ومعها نقلت كل المفاسد والرذائل من عادات الأوربيين وأخلاقهم وممارساتهم للمنطقة، وصارت الدعوة الإسلامية فيها تواجه بتحديات عديدة وكبيرة جدًّا من قبل جنود الاحتلال، ومن قبل لفيف العمال والمعمرين الأوربيين اللاهثين بنهم وراء الثروات والشهوات.

وعليه يلاحظ المحلل لمراحل الكفاح التي مرّ بها الشعب الجزائري ضد الهيمنة الفرنسية عامة، والتي وجد فيها أمثال الشيخ سيدي العربي التبسي بخاصة، يلاحظ ما يأتي:

١- مقاومة الشعب الجزائري الشرسة للوجود الاستعماري الفرنسي.

٢- طول مدة المقاومة المسلحة (١٨٣٠-١٩١٧م/١٩٥٤-١٩٦٢م)، وتفضيل الشعب الجزائري لأسلوب المقاومة على المطالبة السياسية، وقصر مدّة النضال السياسي (١٩١٩-١٩٥٤م).

٣- إلغاء الجزائريين الوجود الفرنسي في الجزائر وإنهاءه بالوسيلة نفسها التي ألغى بها الوجود الحضاري الجزائري العثماني العربي الإسلامي.

٤- استمرار السياسة القمعيّة الاستعمارية تجاه الشعب الجزائري عبر سني الاحتلال، حتى في عهد ما يسمى بسياسة الإدماج.

٥- تنوع أسلوب الشعب الجزائري في تحقيق الوجود الحضاري، ومروره بالخطوات التغييريَّة الآتية: (المقاومة ١٨٣٠-١٩١٧م. المطالبة١٩١٩-١٩٥٤م. المغالبة١٩٥٤-١٩٦٢م).

٦- نجاعة أسلوب المغالبة المسلحة المنظمة في عملية التغيير مع القوى الاستعمارية الباغية دون غيره من الأساليب الوديّة والحبيّة السياسية والفكريّة والثقافيّة وغيرها..

٧- صعوبة الحفاظ على القيم الحضاريّة، وعلى خصوصيات الهويّة العربية والإسلامية، واستمرارها قويّة ومتواصلة في الأجيال.

مقالات

٨- حجم التحديات التي يُواجه بها علماء الدين الإسلامي.

وفي مرحلتين حاسمتين(١٨٩١-١٩٥٦م) من هاته المراحل قضت إرادة المولى تبارك وتعالى أن يولد شيخنا سيدي {العربي بن بلقاسم التبسي} ويعيش ويدعو إلى الله تعالى وإلى دينه.

أوضاع الجزائر الاجتماعية والاقتصادية والثقافيّة:

المتتبع لأوضاع الجزائر وصيرورتها الحضاريّة في ظل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية يتبيّن له أنّ أمرها قد آل بُعيد عهد المقاومات إلى الحالة المزرية المتمثلة في الحقائق الآتية:

١- تشديد الخناق الاستعماري على المواطنين الجزائريين، وبخاصة سكان الأرياف، وذلك بتجريدهم من أراضيهم الخصبة، وإثقال كواهلهم بالضرائب والغرامات، وتعجيزهم اقتصاديًّا بوسائل متعددة حتى يضعفوا عن تنظيم أيّ مقاومة مسلحة أخرى.

٢- ضرب تقاليد نظام العروشية، المتميز بالوحدة والتضامن القبلي، بوساطة تراب العرش الجماعية، الذي كان يشكل أحد عوامل الوحدة القبلية. ومن ثمّ فقد ألغوا وسيلة الوحدة القبلية، وذلك بإلغائهم لملكية أرض العرش وأصالتها، وإباحة تجزأتها بالبيع والرهن والمصادرة لصالح المعمرين والدولة، محققين بذلك عدّة أهداف استعمارية، تزيد في إذلال الشعب الجزائري وإهانته.

٣- تجويع الشعب الجزائري وإفناؤه بالقمع والإرهاب والتقتيل والمجاعات، فبعد مجاعة عام ١٨٦٨م أصبح عدد الجزائريين قرابة مليونين فقط، بعد أن كان ثلاثة ملايين قبلها.

٤- تقوية نفوذ المستعمرين الأوربيين وسلطتهم وأعدادهم، فقبل المجاعة الكبرى كان عدد المستعمرين قرابة ٢٢٠ ألفٍ، ليرتفع بعدها إلى ٢٧٩ ألفٍ، على الرغم من تراجع نسبة الهجرة نحو الجزائر.

٥- القضاء على آخر ما تبقى من حصون الإسلام والعربية، وذلك بضرب التعليم الإسلامي المسجدي وتوابعه، وفرض سياسة التعليم الفرنسية الاستعمارية التي تسعى لإيجاد فرد جزائري يتماشى مع مخططاتها الاستعمارية المستقبلية، وهذا ما حصل بالفعل عندما سخر الجزائريون لغزو سوريا ولبنان والمشاركة في الحربين العالميتين[٢].

٦- ضرب الشريعة الإسلامية - كإطار مرجعي- وتدمير المسلمين تشريعيًّا وقانونيًّا وإداريًّا وقضائيًّا... وذلك بإلغاء الشريعة الإسلامية كمرجعيّة للحكم، واستبدال القانون الوضعي الفرنسي بها.

٧- فرض سياسة التجنيد الإجباري العسكري على المواطنين الجزائريين بوصفهم مواطنين فرنسيين، وذلك بغرض إفنائهم في الحروب من جهة، والحفاظ على العنصر الفرنسي قويًّا وصحيحًا وكثيرًا، وضرب المسلمين الجزائريين بعضهم ببعض وبغيرهم وزرع الأحقاد فيما بينهم.

٨- إعادة تربية الجزائريين الملتحقين بالجيش الفرنسي فكريًّا وروحيًّا وسلوكيًّا ونفسيًّا وأخلاقيًّا وصياغتهم وتكوينهم بما يتناسب والسياسة الفرنسية الاستعمارية التسخيرية المتوخاة منهم.

٩- تتويج هذه السيطرة الاستعمارية الباغية بإصدار قوانين (الأنديجينا) الردعية، التي أنشئت أساسًا لقمع الشعب الجزائري وإرهابه، وذلك بمقتضى مراسيم ١٩/أوت/١٨٧٤م، و١١/سبتمبر/١٨٧٤م، الذي جرى توسيعه وتمديده ليشمل (الأحواز المختلطة) أيضًا عام ١٨٨١م.

وبقوانين الأنديجينا القمعية الزجرية يكون الاستكبار الفرنسي في الجزائر قد أرسى له ولروحه الاستكبارية آخر دعائم التمكين والسيطرة على الشعب الجزائري المقهور، وفي ظل هذه الأوضاع القهريّة الزجرية القاتلة ولد شيخنا سيدي العربي بن بلقاسم التبسي وعاش ودعا[٤].

مولده ونشأته وتعلمه

المولد والأصل والنسب:

هو العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات الجدري التبسي، وأمه هي السيدة آمنة بنت عبيد ابن فرحات الجدري التبسي[٥]، المولود بدوار أسطح من أحواز بلدية العقلة دائرة الشريعة - الواقعة في الجنوب الغربي من مدينة تبسة - سنة ١٨٩١م -١٣٠٨هـ[٦].

وكان يُعرف في سجلات الإدارة الفرنسية البلدية والأمنية بلقب جدري وفرحات، واشتهر بلقب العربي التبسي، وكان العربي وحيد والديه فلم ينجباه إلاّ بعد عقد من زواجهما[٧].

ولما بلغ العربي قرابة ست السنوات توفي والده بلقاسم وهو في عقده الخامس، ليصبح العربي يتيمًا منذ فجر طفولته، وسرعان ما تزوج عمّه عمار من أرملة أخيه بلقاسم على عادة قبيلة النمامشة وسائر القبائل الجزائرية وأعرافها، فكان له - باعتراف أخيه - نعم الأب العطوف الرحيم، معوضًا ابن أخيه حرمان عاطفة الأبوّة التي فقدها بفقده لأبيه.

وقد رزق العربي - بعد زواج أمّه بعمه عمّار- بخمسة إخوة هم: (الحفصي. البشير. بلقاسم. الهادي. عبد المجيد)[٨].

وكانت أمه السيدة آمنة فاضلة مؤمنة، بدوية، شديدة المراس، حاطت ابنها العربي بمزيد من العناية دون سائر إخوته خشية تأثره واضطراب نفسيته، فأخذت، بيده ورفعت من معنوياته في الأسرة، وبخاصّة بين إخوته[٩].

وكان عمه عمار فلاحًا حينا وراعيًا متنقلاً بين الصحراء والتل حينًا آخر، يرحل إلى الصحراء شتاء بالماشية، ويعود إلى التل صيفًا ليحصد منتوج أرضه البعليّة، ويسكن الخيام في الترحال، وإذا عاد إلى دواره أسطح سكن كوخه[١٠]، وكان العربي يصحب عمه في حله وترحاله، وظلّ على هاته الحال طوال طفولته الأولى، يحفظ القرآن الكريم على يد عمّه عمّار، الذي كان يحفظ القرآن الكريم كلّه، وكذلك على يد جدّه مبارك شيخ القبيلة[١١].

وكان عمّه وزوج أمّه عمّار أيضًا شديد التدين

محبًّا للعلم ولأهله من معلمين وطلبة، وقد أجرى - رحمه الله - لطلبته الجرايات والزكوات، ومع عمّه اشتغل بالزراعة حينًا والرعي حينًا آخر، وحفظ القرآن معهما.

والعربي من عشيرة الجدور من قبيلة النمامشة، التي يقال إنها هي أصل قبيلة النمامشة، واسمها الحقيقي الجدور أي الأصول، وهذه العشيرة معروفة بتاريخها البطولي المجيد والجهادي المقاوم للوجود الاستعماري الفرنسي.

كما أنها معروفة لدى سائر عشائر النمامشة بكثرة حفظ رجالها للقرآن الكريم، وحرصهم الشديد على تحفيظه لعامة أبناء العشيرة ولغيرهم أيضًا، فبلقاسم والده وعمار عمه وزوج أمه بعد أن توفي أبوه بقيا من حفظة كتاب الله بأكمله في العشيرة، كما أنّ والده كان من دارسي مبادئ العلوم العربية والدينيّة، وأعمامه: (الحفناوي، والصادق، ومسعود، وأحمد، ومحمد، وعثمان) - رحمهم الله -كانوا يحفظون كتاب الله، وكانت خيمتهم تسمى بخيمة القرآن، حيث يتولى أعمامه - إضافة إلى مهامهم الزراعيّة والرعوية والأمنية والتجارية - تحفيظ أبناء العشيرة كلها القرآن الكريم، وكذلك كان أبوهم مبارك جد الشيخ العربي، الذي كان حافظًا للقرآن الكريم وعالما بالعلوم العربية والدينيّة في قومه[١٢].

وما يلاحظ على أصل الشيخ العربي التبسي ونسبه وولادته وطفولته وظروفه ما يأتي:

أ- ولادته في مرحلة اشتداد القبضة الاستعمارية على الجزائر، ولا سيما بعد وطأة قوانين الأنديجينا.

ب- تأثير تلك القوانين في واقعه الاجتماعي والاقتصادي والتربوي والتعليمي والديني..

ج- جهلنا للكثير من الحقائق عن طفولته الأولى، وشبابه المبكّر والمتأخر أيضًا، وذلك يعود في نظرنا بعد بحثنا وتقصينا للمسألة لأمور عديدة، أهمها:

١- تكتمه الشديد عن ذكر طفولته المبكرة وتناولها، والحديث عن ذكرياته الشبابية للخاصة من أصدقائه، أو للعامّة من جلسائه ومرافقيه وتلامذته.

٢- ظروف تربيته القاسية والصارمة التي جعلت منه رجلاً موضوعيًا يستنكف عن اجترار ذكرياته.

٣- فارق السن الذي كان بينه وبين إخوته الذين يصغرونه بعشرين عامًا، والذين لم يعرفوه إلا كبيرًا ناضجًا.

٤- طبيعة الفرد الجزائري الكتوم، ولاسيما الذين عاشوا في حقبة الاستعمار القاسية؛ إذ كانوا يُربون على التكتم الصارم.

٥- وفاة أغلب أصدقائه ومعاصريه ومقربيه في تبسة وقسنطينة، وعدم تعرضهم لشيء من طفولته في كتاباتهم، اللهم إلا المعلوم أو المشهور منها دعويًا ودينيًا وتربويًا...

٦- عدم تمكن تلامذته وطلابه من معرفة الجوانب الخفيّة من شخصيته الطفولية، ولا سيما تلك التي لها علاقة بطفولته وشبابه المبكر، نظرًا لجديته وصرامته وتكتمه معهم.

٧- عدم تعرضه في دروسه ومحاضراته إلى ذكر أمثلة عن طفولته وصباه وشبابه كما يفعل

البعض من العلماء والمدرسين استئناسًا بالمثل المضروب من الطفولة أو من عهد الصبا.

٨- عدم تفرغه للكتابة والتأريخ لسيرته الذاتية الشخصيّة كما يفعل الكثير من الأعلام.

٩- عيشه يتيمًا محرومًا من عاطفة الأبوة، التي جعلته ينضج ويتحمل المسؤولية منذ شبابه المبكر. ومع هذا التقتير في المعلومات عن طفولته وشبابه، فإنّ كهولته ورجولته هي التي عكست مدة تربيته الطفولية، ومهما يكن من أمر فإنّ عظمته كمنت في أمرين: أحدهما فطري، والآخر اكتسابي.

فأما الفطري؛ فإنه تجلّى في تلك القدرات التي حباه الله بها، من بسطة في الجسم، وقدرة على الاحتمال، وحدّة في المزاج، المعروفة عن رجال قبيلة النمامشة عامّة ورجال عشيرة الجدور خاصة.

وأما الاكتسابي منها فهي تربيته وتكوينه الصارم الذي تلقاه في بيئته القاسية تكوينًا وتربية ومناخًا وطبيعة موارد، وقد اجتمع فيه العاملان ليكونا منه لاحقًا الداعية الصلب المراس.

نشأته وتعلمه:

عندما ولد العربي التبسي كان قد مضى على آخر ثورة شعبية مسلحة في الجزائر قرابة ربع قرن[١٣]. وكان قد انتهى عهد الثورات المسلحة والانتفاضات الكبرى - عدا انتفاضة الشيخ بوعمامة وأولاد سيدي الشيخ - وابتدأ عهد جديد، جيله يخالف جيل الثورات والانتفاضات العنيد المتميّز بشراسة رجاله ومقاومتهم البطولية، وابتدأ عهد جديد، يرى في مهادنة الاستعمار أسلوبًا جديدًا، ونمطًا للحفاظ على الرمق الأخير من حصون العربية والإسلام المتبقية في الجزائر، وهو الجيل الذي تخلى عن الكفاح المسلح وسيلة للتحرر لاشتداد سطوة القمع والقهر الاستعماري، ولكنّه - مع سلميته ووطنيته- ظلّ وفيًّا لماضي الآباء والأجداد التليد، الذين هم في نظره رجال القيم والحق والجهاد، وأن النموذج الحقيقي - الدنيوي والأخروي- يتمثّل في انتهاج منهجهم الجهادي، وهذا الجيل يتميّز عن الأجيال اللاحقة له، بكونه يحمل تصورات الجيل الجهادي السالف نفسها، ومنه كان الشيخ العربي التبسي رحمه الله.

نشأ العربي التبسي في عشيرته الجدور، التي كانت تعتز بخيمة والده وجدّه وأعمامه القرآنية، وفي تلك الخيمة القرآنية المباركة حفظ العربي التبسي سور القرآن الكريم الأولى على يد والده أولاً، ثم على يد عمّه عمار ثانيًا، وهو دون سن العاشرة.

وقد رأى عمه فيه أمارات النجابة ومخايل الذكاء، فتركه عهدة عند الشيخ الطيب بن الحفناوي الرشاشي الزواوي[١٤]. في زاوية (أولاد رشاش بالزوّي) ليحفظ في زاويته، وعلى يديه القرآن الكريم، فمكث عنده سنتين كاملتين، ليعود بعدها إلى بلدته أسطح، وقد حفظه كاملاً، وسنه تقارب الثالثة عشرة، وذلك أواخر سنة ١٩٠٤م[١٥].

ومن خلال تتبعنا واستقصائنا لحياة الشيخ العربي التعليميّة، يُمكننا تقسيم مراحل طلبه للعلم إلى ما يأتي[١٦]:

١- المرحلة التعليميّة الأولى (١٨٩٥-١٩٠٤م):

وتقسم هذه المرحلة على قسمين رئيسين هما:

١- القسم الأول (١٨٩٥-١٩٠٢م):

وتبدأ هذه المرحلة، وهو يتلقى القرآن في كتاب عشيرته في خيمة جدّه وعمّه القرآنية؛ إذ تلقى السور القرآنية الأولى عندهما وتنتهي وعمر العربي عشر سنوات تقريبًا سنة ١٩٠١م.

٢- القسم الثاني (١٩٠٢-١٩٠٤م):

وتبدأ هذه المرحلة منذ أن عهد به عمّه إلى الشيخ الطيب بن الحفناوي الزواوي في زاوية أولاد رشاش بالزوي بالقرب من مدينة خنشلة؛ ليمكث عنده في زاويته سنتين وبضعة شهور، وليحفظ على يديه القرآن الكريم.

٢- المرحلة التعليميّة (١٩٠٤-١٩٠٩م):

وبعد عودته إلى دوار أسطح قرر الشيخ الطيب الرشاشي أخذ تلميذه معه إلى الزاوية الخنقة المعروفة {بزاوية خنقة سيدي ناجي، أو بخنقة الليانة}، بالقرب من مدينة بسكرة[١٧]، ومكث فيها مدة ست سنوات أتقن خلالها حفظ القرآن بالقراءة المغربية، وتعلم أيضًا مبادئ العلوم العربيّة والدينيّة، ليظل في الزاوية طالبًا للعلم إلى نهاية سنة ١٩٠٩م، وفي زاوية الخنقة قرأ على الشيخين الفاضلين: (سيدي حامد مدرس الفقه والعربية)، (وسيدي سالم مدرس القراءات)[١٨].

٣- المرحلة التعليميّة الثالثة (١٩٠٩-١٩١٢م):

وبتوصية من أساتذته في زاوية الليانة انتقل ليزاول دراسته في زاوية سيدي مصطفى بن عزوز النفطي الجريدي الرحماني سنة ١٩١٠م بالجريد التونسي جنوبًا[١٩].

وبها حفظ متون العقيدة وعلم الكلام والمنطق والفقه وعلم الأصول واللغة العربية والأدب شعره ونثره وبلاغته... فأتقن متونها من المكودي، والأجرومي، وابن عاشر، ومتن سيدي خليل...

ودرس على يد كبار علماء الزاوية أمثال الشيخ إبراهيم بن الحداد، والشيخ محمد بن أحمد النفزاوي، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ التابعي بن الوادي، وغيرهم[٢٠].

وبزاوية نفطة قضى الشيخ العربي ثلاث سنوات وبضعة شهور؛ ليعود بعدها إلى دوّار اسطح في صيف سنة ١٩١٢م منتزعًا توصية من شيوخه في الزاوية تزكيه للالتحاق بالجامعة الزيتونية بتونس، بسبب ما رأوا فيه من مخايل الفطنة والنباهة والذكاء والاستقامة وحب العلم والإرادة في طلبه[٢١]. وهو ما حصل له بالفعل ليجد نفسه طالبًا في جامع الزيتونة المعمور.

٤- المرحلة التعليميّة الرابعة (١٩١٣-١٩١٩م):

التحق العربي بجامع الزيتونة المعمور بتوصية من شيوخه النفطيين الجريديين الرحمانيين في أواخر سنة ١٩١٣م -١٣٣٢هـ[٢٢]. وانضم إلى طلبته فنال شهادة الأهلية سنة ١٩١٥م-١٣٣٤هـ بعد سنتين من الدراسة والتحصيل، ثم نال شهادة التحصيل سنة ١٩١٧م/ ١٣٣٦هـ، واستمر في دراسته لينال بعدها شهادة التطويع التي تركها سنة ١٩١٩م-١٣٣٨هـ، بسبب هجرته إلى مصر، ولينالها عام ١٣٤٥هـ -١٩٢٧م بعد عودته من مصر، ودراسته بالجامع الأزهر، وليتحصل على العالميتين: (عالمية الأزهر الخاصّة بالطلبة الغرباء سنة ١٩٢٥- ١٣٤٣هـ، وعلى عالمية الأزهر الكبرى سنة ١٩٢٧م-١٣٤٥هـ)[٢٣].

وهكذا ينال الشيخ العربي من جامع الزيتونة

المعمور شهاداته العلميّة الثلاث (الأهلية ١٩١٥م، والتحصيل ١٩١٧م، والتطويع ١٩٢٧م)[٢٤].

وكان الشيخ العربي قد انتخب من قبل زملائه الجزائريين في الدراسة في جامع الزيتونة ليشغل لهم منصب الكاتب العام لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين خلال السنوات (١٩١٤-١٩١٩م)[٢٥]، ومن زملائه الذين درس معهم الشيخ مبارك الميلي، ومحمد السعيد الزاهري السنوسي[٢٦].

وكانت تونس تشهد وقتها انبعاث حركة فكرية وثقافية وأدبيّة وسياسية.. أدارها رجال النهضة التونسية الحديثة أمثال: الزعيم عبد العزيز الثعالبي، وسالم بوحاجب، وعلي بوشوشة، ومحمد البشير صفر، وعبد الجليل الزاوش، وباش حانبه..[٢٧].

وقد استفاد منها العربي في تكوينه الفكري والثقافي واللغوي والأدبي والإعلامي والسياسي أيما استفادة، وصار من المناصرين الأوائل للزعيم عبد العزيز الثعالبي[٢٨]، ومن رواد المحافل السياسية والعلميّة والأدبيّة والفكريّة، ولا سيما ندوات الكليتين الخلدونية[٢٩]. والصادقيّة[٣٠].

٤- المرحلة التعليميّة الخامسة (١٩٢٠-١٩٢٧م):

انتقل العربي من تونس إلى مصر أواخر سنة ١٩١٩م - وهو على أبواب اجتياز امتحان شهادة التطويع العالية بالجامعة الزيتونية، والتي بها سيختم دراسته الجامعية - على متن باخرة تجارية فرنسية قديمة متجهة إلى مصر، متخفيًا في إحدى مقصوراتها، ونزل متخفيًا في ميناء الإسكندرية، وليس معه من النقود شيء؛ ليلتحق بالجامع الأزهر برواق الطلبة المغاربة، الذين كانوا يعيشون من بر أوقاف المسلمين الجزائريين وأموالها ومن الخيرين بمصر. وقد لاقى من شيخ الرواق والمسؤول عنه ومن سائر إخوانه الجزائريين والمغاربة بالرواق من الترحاب الكبير، ما ساعده على الإقبال بانتظام في سلك الدراسة، التي فاق فيها أقرانه المغاربة والمشارقة من الطلبة المسلمين.

وقد دفعه للسفر إلى مصر جملة من العوامل، أهمها:

١- المضايقات التي تعرض لها زعيم النهضة التونسية الحديثة الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي كان يجد مناصريه في سكان المغرب العربي قاطبة، والجزائريين منهم بخاصة، كما كان يشكل مصدر إلهام للعربي التبسي الشاب اليافع.

٢- الأوضاع السياسية والأمنية... القمعية التي عاشتها تونس والجزائر في أعوام الحرب العالمية الأولى، وما بعدها، ولا سيما إجراءات الإدارة الاستعمارية الإدماجية تجاه الشعوب المغاربية.

٣- وفاة والدته - رحمها الله - سنة ١٩١٩م، التي كانت تربطه بدوار اسطح وبالجزائر، وبعد وفاتها لم يعد يربطه بالجزائر إلا رابطة الدين والإصلاح.

٤- حبّه ورغبته في طلب المزيد من العلم في الأزهر الشريف.

٥- توافر فرصة مواتية للسفر إلى مصر، وسماعه

الكثير عن تفوق مصر وعلمائها وتقدمهم، وعن حركتها النهضوية الرائدة[٣١].

وفي مصر شاهد العربي كل مظاهر التحضر العربي الناهض، كما شاهد آثار الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، واتصل بالشيخ السيد رشيد رضا صاحب المنار، الذي ظل يرسل إليه المنار، بعد عودته إلى الجزائر إلى حين توقفها[٣٢].

وفي الأزهر درس كل العلوم الشرعية والعربية على يد كبار الشيوخ[٣٣]، كما درس على يدي الشيخ يوسف الدجوي والشيخ عبد الوهاب النجار ومصطفى المراغي ومحمد شاكر وعبد الرحمن قراعة وحسنين مخلوف وحسين والي وسيد المرصفي، وعلي الخفيف، وغيرهم...[٣٤].

وعلى يد هؤلاء الشيوخ وغيرهم من علماء مصر والأزهر والعالم الإسلامي درس الشيخ العربي التبسي أدق كتب اللغة العربية وأعلاها ومتونها والبلاغة وشروحها، والفقه وأمهاته وعلم التفسير ومدارسه، والحديث وجرحه وتعديله ورجاله وسنده ومتونه، والمنطق وعلم الكلام والتوحيد والتاريخ..[٣٥].

وفي مصر تابع أخبار بلاده وواقع الإصلاح والمصلحين فيها، وراسل الشيخ عبد الحميد بن باديس يهنئه بنجاته من حادث الاعتداء عليه[٣٦]، الذي تعرّض له من الدعي العليوي السفاك[٣٧].

وفي مصر اتصل بالكتاب والأدباء والشعراء والعلماء والفقهاء والمصلحين والسياسيين، فقد ثبت عنه[٣٨] أنه كان يحضر جلسات الأربعاء للأديب طه حسين، ومسامرات العقاد والمازني وأحمد حسن الزيات، كما سمع لشوقي وحافظ إبراهيم وعلي الجارم، وغيرهم من الشعراء والنقّاد. إضافة إلى متابعته الجادّة لأخبار السياسيين وتحركاتهم، ولا سيما الزعيم المصري الشهير سعد زغلول باشا...[٣٩].

وفي مصر كتب مجموعة من المقالات نشرها في الصحف المصرية عن الأوضاع في الجزائر[٤٠]، ويتخرج في مصر عام ١٩٢٥م، يحمل شهادته العالمية الخاصّة بالغرباء، ولا يكتفي بها، بل يستزيد للحصول على العالمية الكبرى سنة ١٩٢٧م، متبقرًا في العلوم العربية والدينيّة والواقعية، ومزودًا بتجارب دعاة الأزهر والمصلحين بمصر، وليلتحق بإخوانه المصلحين بعدها في الجزائر، التي يدخلها من تونس أواخر شهر سبتمبر ١٩٢٧م[٤١].

وما يلاحظ على مرحلة تعلم الشيخ العربي ما يأتي:

١- طول مدّتها الزمنية، فقد مكث يتعلم خمسة وثلاثين عامًا كاملة (١٨٩٥-١٩٢٧م)، وهي مدّة طويلة جدًّا إذا ما قيست بالمدة الزمنيّة لطلاب العلم الأقدمين السابقين له والمحدثين المعاصرين له، أو اللاحقين من بعده، وهي - بحق ظاهرة ملفتة للانتباه، لا نملك عليها أي تفسيرات حقيقية ومقنعة، اللهم إلا بعض المسوغات التي لا تعدو أن تكون من الباحث لا غير.

واعتقادي أنّ الشيخ العربي لو أرّخ لحياته العلميّة أسوة ببقية الكتاب لقال وكتب عنها الكثير، فهو قد تعلم في كتاب القرية في خيمة جدّه وأعمامه سنوات (١٨٩٥-١٩٠٢م)، وهي مدة طفولته الأولى، وكان قد قارب عشر السنوات، ثم

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

مقالات

تعلم في زاوية أولاد رشاش بالزوي سنتين وبضعة شهور(١٩٠٢-١٩٠٤)، وهو لا يزال في طور الطفولة المتأخرة في سن الثالثة عشر، ثم نجده ينتقل إلى زاوية الليانة بالخنقة ليمكث فيها قرابة ست سنوات (١٩٠٤-١٩٠٩م)، ويتخرج فيها وعمره قرابة تسعة عشر عامًا. ثم ينتقل بعدها إلى زاوية سيدي مصطفى بن عزوز الرحمانية بنفطة بالجريد التونسي، ويتخرج فيها وعمره قرابة ثلاثة وعشرين عامًا (١٩٠٩-١٩١٢م)، ثم ينتقل إلى جامعة الزيتونية، ويتخرج فيها وعمره قرابة ثمانية وعشرين عامًا(١٩١٣-١٩١٩م)، وينتقل إلى الجامع الأزهر وعمره قرابة تسعة وعشرين عامًا، ويتخرج فيه رجلاً يافعًا، وقد ناهز السابعة والثلاثين عاما(١٩٢٠-١٩٢٧م).

وما يمكن أن نقوله في هذه المدّة الزمنية التعليميّة الطويلة أنها أكسبته التمكن العلمي الأصيل، فعدم اقتناعه بما كان يقدم له في كل مدرسة جعله يتقدّم إلى المدرسة الأعلى منها، إلى أن حطّ رحاله للطلب بالقاهرة العامرة بالعلم والعلماء والأدب والأدباء والإصلاح والمصلحين وبأزهرها الشريف، حيث منتهى العلوم الدينيّة وقمتها، وهناك وصل إلى مرحلة التبقر والعالمية، وهذه المدّة الزمنيّة الطويلة هي التي بوأته المكانة العليا لدى رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعلى رأسهم الشيخ الإمام عبدالحميد بن باديس والإبراهيمي والميلي والعقبي ولدى غيرهم من الاستعماريين والسياسيين والإداريين، وكذلك رجال الحركة الوطنية الجزائرية، وعامة الشعب الجزائري..

٢- تنوعها الزماني: بظروفه وملابساته وتناقضاته، والمكاني: بظروفه وملابساته وتناقضاته أيضًا. والكياني: بظروفه وملابساته وتناقضاته. بحيث توزعت - مرحلة تربيته وتكوينه وإعداده- على مناطق وحواضر العلم الشهيرة في العالم العربي (الجزائر: زاوية الخنقة. تونس: زاوية نفطة، والزيتونة، مصر: الأزهر)، ولكل حاضرة علميّة خصائصها ومميزاتها الخاصة بها، التي أكسبته شخصية علميّة فريدة، فبيئة تقدّم الحفظ على الفهم، حيث كان الشيخ العربي يحفظ عشرة آلاف حديث صحيح بسندها، إلى بيئة تقدّم العقل على الحفظ والنقل والرواية..

٣- شمولها واتساعها لكل العلوم العقلية: (التوحيد. علم الكلام. المنطق. الفلسفة..)، والنوعية: (اللغة. النحو. الصرف. البلاغة. الحساب. التاريخ الإسلامي)، الدينية: (الأصول. المقاصد. الفقه. الحديث. التفسير. الفرائض. السيرة. الدعوة..).

٤- اشتراك عاملي الهجرة والرحلة في تكوينه، فالرحلة بكل معارفها وخبراتها وتراكماتها المختلفة- كما جاء في الأثر- معلم ومكون ومرب ومؤطر ثان.

٥- تنوع مجالاتها التربوية، ووسائلها وأدواتها وعناصرها، ومؤطريها.. فقد تلقى تربية وتكوينًا دينيًا خاصًا في بيت أبيه أولاً، ثم عمّه ثانيًا، ثم عند شيخه الطيب الرشاشي ثالثًا، ثم عند شيخيه سيدي سالم وسيدي حامد الليشانيين، ثم عند شيوخه النفطيين الجريديين، ثم عند شيوخه الزيتونيين، ثم عند شيوخه الأزهريين، إضافة إلى غيرهم من الكتاب والشعراء والأدباء والزعماء، الذين تأثر بهم وأخذ عنهم الكثير من المعارف

والقيم والتجارب.. فشكلت فيه كل هذه السيول المختلفة من التكوين والتربية والتأطير شخصيته الدعوية والإصلاحية والسياسية والجهاديّة، وقد شاهد الشيخ العربي - عن كثب خلال مدد حياته - أنماطًا مختلفة من التربية ومن الرجال والشيوخ، كما شاهد أنماطًا متناقضة ومختلفة من المجتمعات وعايشها، عكست ظلالها عليه، وكونت شخصيته، وتركت رواسبها الإيجابية والسلبية فيه، وحفرت فيه تأثيراتها العميقة، فمن تلميذ صبي في كتاب القرية، إلى تلميذ طفل في كتاب الزاوية، إلى شاب بالغ في الزوايا النائية والمعاهد العليا والجامعات، إلى رجل يافع ناضج في الأزهر الشريف، تكونت شخصية العربي التبسي.

وعليه إذا أردنا أن نحصي بدقّة المكونات التربوية والتكوينية التي ساهمت من قريب أو من بعيد في تكوين شخصية العربي التبسي؛ فإننا نلخصها في العناصر الآتية:

١- الظروف الطبيعية القاسية، والبيئة المناخية الشديدة.

٢- الظروف الطبيعية القاسية: (الخيمة. البداوة. الرعي. التنقل. عدم الاستقرار..).

٣- التيتم والحرمان العاطفي من عاطفتي الأمومة والأبوة.

٤- الهجرة والاغتراب والعيش بعيدًا عن وسطه التربوي والاجتماعي الطبيعي.

٥- حياة الزوايا الصارمة (تربية وتكوينا وتأطيرا وإعدادا في أبعاد الإنسان: التصورية. والعقدية. والعاطفية. والسلوكية. والاجتماعية. والإنجازيّة).

٦- حياة الزيتونة والأزهر السويتين، وتفاعلات المجتمعين التونسي والمصري فيه.

وعليه، لكل مرحلة من مراحل تربيته وتكوينه المختلفة أثرها في تكوين شخصيته وتشكيل عقله ووجدانه وسلوكه.

عوامل نبوغه:

يمكن حصر عوامل نبوغ شخصية الشيخ وارتقائها إلى مصاف العلماء العاملين، والمصلحين المجدّدين، والدعاة المجاهدين، والأعلام البارزين إلى عدّة عوامل أهمّها:

١- العوامل الوراثية.

٢- العوامل التربوية التكوينيّة الاكتسابيّة.

٣- العوامل الواقعية الحياتيّة المرتبطة بوضع الجزائر والجزائريين خاصة، والعرب والمسلمين عامة.

وسنحاول تناول هذه العوامل الأربعة مبرزين دورها ومكانتها وتأثيرها في تشكيل شخصية الشيخ - رحمه الله- داعية ومصلحًا مجددًا، وعالمًا مجاهدًا[٤٢].

العوامل الوراثية:

أدت العوامل الوراثية أثرًا في تشكيل شخصية الشيخ العربي؛ إذ حباه الله بسطة جسدية فارعة كسائر رجال قبيلته، الجدور، ثم إنّ الله قد رزقه قدرة هائلة على الاحتمال والصبر، وذلك بما زوّده به من طاقات وإمكانيات جسديّة وعقليّة وروحيّة، وقد رزقه الله وجهًا أبيض مشوبًا بحمرة على الخدين، متألقًا إذا بدا في الصباح، منيرًا إذا غدا في المساء. يجلب بوجهه البشوش

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

الأبيض التأثير في الناظرين والمتملين فيه والمستمعين إليه، وقد أشبهه في محيا وجهه ابنته الحاجة يمينة وابنه عبد الحميد[٤٣].

وقد كان -رحمه الله- حادًّا عصبيًّا منفعلاً، سريع الغضب والتأثر، أصيب في أخريات أيامه بمرض السكري وارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين بسبب حزنه وتألمه الشديد على وضع العرب المسلمين الجزائريين المزري، وموقف الكثير من الجزائريين المخزي من بلادهم، وموقف الكثير من المندسين من أعوان الاستعمار وجواسيسه في صفوف جمعية العلماء، فقد كانوا أكثر الأصناف تأثيرًا في نفسية الشيخ[٤٤].

هذا الصنف الخياني كان أكثر الأصناف إثارة لعصبية الشيخ وانفعاله وغضبه؛ إذ كان -رحمه الله- يعرفهم معرفة حقيقية وإيمانية بمدى موالاتهم الصادقة للاستعمار، فكان شديد الهم منهم، دائب الحزن، سريع الغضب، ينفعل إذا رآهم، ويغضب إذا سمعهم يشيرون أو ينصحون، ويتألم إذا أبدوا قولاً أو عملاً ظاهره فيه حب للجزائر وخدمة للإسلام[٤٥].

٣- العوامل البيئية الطبيعيّة:

إنّ المكان الذي ولد فيه العربي وتربى وعاش، ولا سيما في عهد طفولته (١٨٩١-١٩٠٢م)، كان في دوار أسطح الصخري الجبلي، القاسي المناخ، الشديد التضاريس[٤٦]، الذي أثّر في صياغة شخصيته، وتهيئته الجسدية القوية، حيث تنفس هواء نقيًّا صافيًا، وتمرس في بيئته الصخرية القاسية، وكابد مشاق الطبيعة الباردة والحارة، فكان شديدًا صلبًا قويًّا متمرسًا صبورًا بعيد الاحتمال.. على عكس الناشئين في وخم المدن، وزخم الناس، وفساد الهواء، وسهولة التضاريس، وتوافر وسائل الحياة والعيش، ووجود المرافق.. فكان للبيئة الشديدة القاسية أثرها في تكوين شخصيته القويّة ونبوغه.

وهي البيئات القاسية نفسها التي عاشها في عهد طفولته المتأخرة وشبابه ورجولته في الزوايا والجامعات، والغربة (١٩٠٢-١٩٢٧م).

٤- العوامل التربوية والتكوينيّة الاكتسابيّة:

تربى الشيخ العربي في بيئة تكتسب قوتها بيدها، وتعتمد على المواشي غالبًا، وعلى الأرض أحيانًا، وتصنع حياتها ووسائل عيشها من الأرض والماشية، فالمرافق الحياتية على طبيعتها الفطرية الأولى، والماء من الآبار والوديان والسيول والأحواض، والمشروبات من مشتقات ألبان المواشي، والطعام مما تغلّه الأرض من الحبوب البعليّة، والكساء والسكن من أوبار المواشي وأصوافها، ووسائل النقل من الحيوانات: (الخيل، والبغال، والحمير)، وهكذا...

والذي ينشأ في بيئة بسيطة متواضعة هادئة كهذه سيأخذ - لا محالة - منها بساطتها وتواضعها، ويبقى متحليًا بفطرته التي فطر الله الناس عليها، ومع بساطتها تتوطد فيه قيم التبسيط والاستقامة، ومع تواضعها تتوطد فيه قيم المباشرة والصدق والوضوح، وتنتفي عنه أساليب المدينة القائمة على المراوغة والاستدارة والتلاعب والدبلوماسية والنفاق والملق...

ومع هدوئها وسكونها ووداعتها ستتوطد في نفسيته قيم الوداعة والتوادد والتراحم، ومع شدتها وقسوتها ستنشأ فيه قيم الصبر، وتتعمق فيه دوافع

حب العمل، والاعتماد على النفس، وحب الآخرين.

ومع أخلاقياتها العربية الإسلامية الأصيلة، التي درج عليها ستتوطد في نفسيته أخلاق البدو الأصيلة الجميلة، من: كرم ومروءة وشهامة ونجدة وإغاثة للملهوف.. فلا غرو إذًا عندما نجد سرعة استجابة أهل البادية لأعمال الخير والبر، والمسارعة للجهاد في سبيل الله، ونصرة الإسلام والمسلمين[٤٧].

وقد كان الشيخ العربي – رحمه الله – ممن درجوا في هذا النمط التربوي البدوي العربي الإسلامي الأصيل، ومن ثمّ عمقت فيه مواطن تربيته المختلفة قيم الإسلام الأصيلة القائمة على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[٤٨].

فحدّة الشيخ وعصبيته وغضبه... التي كانت مطية يمرق منها خصومه على أنها مطاعن في شخصيته – رحمه الله – إنما نشأت لديه من تنافر طبيعته المستقيمة مع طبائع الناس الذين تعامل معهم، ممن جبلوا على النفاق والخديعة والمراوغة والكذب ... وقد كانت جل خلافاته مع الشيخ توفيق المدني، ومحمد خير الدين[٤٩]؛ لتنافر طبيعتهما المدنية المجبولة على حياة المدينة وليونتها ومراوغتها؛ إذ كانا يستمرئان كل أساليب المدنية المائعة التي يتقزز منها الشيخ[٥٠]، ومن هنا كان خلافه معهما ومع غيرهما بسبب تنافر الطباع، واختلاف القيم، وتباين أنماط التربية والسلوك.

ولذا فقد كان الشيخ العربي يُحسب له ألف حساب في الجمعية، وكان قريبًا ومحببًا بشكل خاص إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي- رحمهم الله أجمعين- ومبارك الميلي، الذي قال له ذات مرّة: (أحمد الله أن خلقك مسلمًا، وإلا لما كنت تهتدي إلى الإسلام؟)[٥١].

ومن هنا يبدو الفرق جليًا بين المستويين التربيتين والطبيعتين، طبيعة سوية مستقيمة مباشرة لم تلوثها أدران المدنية ومفاسدها، ما زالت على فطرتها وسجيتها، ولم تعقدها تقليعات المدينة وأدبياتها وتحذلقاتها، وشتان ما بين الطبيعتين؟ وشتان ما بين التربيتين؟ وشتان ما بين المستويين؟ مستوى أول خالص لله ومستوى آخر يخلط مع الله أشياء أخرى، مستوى يخلص ويتفانى لله، ومستوى يحاول سلوك طريق الإخلاص، ويحاول التفاني على عجز في الجبلة وفساد في الطبيعة وعجز في التربية الأصيلة وبخاصة الطفولية منها. فشتان ما بين المحاولة في الإخلاص والمحاولة في التفاني، وما بين الإخلاص عينه والتفاني عينه، ومن هنا نشأت مطاعن الخصوم عليه، ومن هنا نشأت الخلافات بينه وبين خصومه، إنها خلافات في التجذر المرجعي للطبيعتين وللمستويين وللتربيتين، خلافات في التأصل التربوي في حقيقة الطبائع والسلوكيات ونوعها، والنظرة إلى الأشياء وتصورها والحكم عليها، ومن هنا كتب الله للشيخ الشهادة في سبيله، حيث فر من فر، وصمد الشيخ ولم يصمد غيره، ونال الشهادة ولم ينلها غيره[٥٢].

٤- العوامل الواقعية المرتبطة بوضع الجزائر والعرب والمسلمين:

نشأ الشيخ العربي يتيمًا فقيرًا معدمًا محرومًا... شأنه في ذلك شأن سائر الأطفال

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

الجزائريين، فقد تربى في أسرة بدوية ترتزق بكدّها، كسائر الأسر الجزائرية التي لم تمالئ الاستعمار أبدا ولم تهادنه.

وقد قضى الشيخ العربي مدة طفولته البائسة في ظل قوانين الأنديجينا القهريّة محرومًا -كسائر الجزائريين- من أبسط الحقوق الإنسانية والبشرية، لاقيمة لإنسانيته مع غطرسة المستعمرين، يسخرونه كيفما يشاؤون في الحروب والصراعات الاستعمارية، نشأ في ظل سياسة الحاكم المستبد المخدوم دومًا، المحسوب له ألف حساب، نشأ في تعداد الشعب المقهور، المسخر لخدمة الاستعمار وأبنائه وأعوانه.

نشأ في ظل أحزاب تحترف النفاق السياسي، وفي ظل قادة وأعيان عبيد للاستعمار، نشأ في ظل هيمنة الخرافة والوهم والطرقيّة الضالة المضلّة المستغلة للدين الإسلامي الحنيف، الآكلة بمبادئه عرق الضعفاء وجهد المقهورين الجزائريين من رجال الزوايا والطرائق- كما كان يسميهم رحمه الله- الذين تفرغوا للإجهاز على الفتات الذي ينتزعه المقهورون من الاستعمار، نشأ في ظل استغلال المشعوذين للدين، وفي ظل مدنية الانهيار القيمي والروحي والتردي الأخلاقي الفظيع...

وقد تراكمت كل هذه العوامل المتناقضة في تكوين نفسيته، وتشكيل قناعاته، وصياغة أحكامه وتصوراته، وهو عالم الشريعة العتيد، والداعية القوي، الذي كشف مواطن الباطل، وعرف بجاهلية الاستعمار وظلمه المتخفي في أثواب المدنية الزائفة، ومن ثمّ لا غرابة أن نجده ينشأ حاقدًا على الاستعمار، مبغضًا له، حانقا على أعوانه، كارها لنظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، الذي سلطه على الشعوب المقهورة بالحديد والنار.

وعزز تلك النشأة وضع العرب والمسلمين المزري سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ودينيًّا وتربويًّا، حيث مكانتهم المزرية في آخر الأمم في العالم، متغافلين عن ماضيهم المجيد ومستقبلهم الذي هو عزهم، وعن دينهم الإسلامي الذي فيه صلاح حالهم ومآلهم واستقامته...

لقد أثرت هذه العوامل الإقليميّة والعالميّة أيضًا في تكوين نفسيته وفي تشكيل تصوراته وأحكامه ومواقفه المختلفة، فمن الطبيعي إذًا أن يلبس الشيخ لكل حال لبوسها مادامت تصرفاته وأخلاقه مؤصلة بكتاب الله وسنة رسوله، القائل: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٥٣]. وهكذا تكوّن وتربى وعاش واستشهد في سبيل الله.

مهامه ونشاطاته ووظائفه:

لا يمكن الفصل واقعيًّا بين مختلف جوانب شخصية الشيخ العربي لأسباب كثيرة، ذلك أنّ شخصية الشيخ كانت تتحرك ضمن دوائر متداخلة ومتشابكة ومتنوعة، تاركًا فيها تأثيرات متنوعة، ومن ثمّ تتداخل جوانب شخصيته المختلفة في الدائرة الواحدة بين المربي والمعلم والداعية المصلح و... وعليه لا يمكن فصل شخصيته الدعوية الإصلاحية عن التربوية التعليمية عن السياسيّة بعضها بعض عن....

وبناء على ما سبق لا يمكننا -منهجيًّا- تناول

جوانب شخصية الشيخ مجتمعة، وبالسياقات والمستويات المتداخلة والمتشابكة نفسها لتعذر ذلك. فحاولنا القيام بتبسيط القصد منه محاولة توضيح نشاطاته ضمن أطر علميّة، الهدف منها عرض مسيرته التاريخيّة عرضًا سريعًا وشاملاً حسب التقسيم الآتي:

أولا: محور وظائفه المهنية:

الذي يتدرج وفق الإطار الزمني الآتي:

١- مرحلة ما بعد عودته من مصر ١٩٢٧-١٩٢٩م.

٢- مرحلة إدارة مدرسة سيق الابتدائية ١٩٢٩-١٩٣٢م.

٣- مرحلة إدارة مدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة ١٩٣٣-١٩٤٧م.

٤- مرحلة إدارة معهد عبد الحميد بن باديس ١٩٤٧-١٩٥٦م.

ثانيًا- محور مهامه الدعوية والإصلاحية:

الذي يتدرج وفق الإطار الزمني الآتي:

١- مرحلة العضوية في جماعة الرواد ١٩٢٨م.

٢- مرحلة العضوية في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٣١م.

٣- مرحلة العضوية في المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٣٢-١٩٥٦م.

٤- مرحلة الكاتب العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٣٦-١٩٤٥م.

٥- مرحلة نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٤٦-١٩٥٢م.

٦- مرحلة الرئاسة الفعلية لجمعية العلماء ١٩٥٢-١٩٥٦م.

وضمن هذين المستويين يمكننا تناول شخصيته على وفق محطات تاريخيّة، نضبط من خلالها أغلب مهامه ووظائفه ونشاطاته التي مارسها خلال مسيرة حياته الدعوية والإصلاحية منذ عودته الأخيرة من مصر ١٩٢٧م - ١٣٤٥هـ إلى تاريخ استشهاده - رحمه الله - سنة ١٩٥٧م - ١٣٧٥هـ.

نشاطه المهني:

وصف الأستاذ مالك بن نبي في كتابه (مذكرات شاهد القرن)[٥٤] مسيرة الشيخ العربي الإصلاحية والدعويّة بعيد عودته إلى تبسة من مصر، فقال:

"سار الشيخ العربي التبسي على خطى سابقيه من الشيوخ الذين بدأوا عملية الإصلاح بتبسة بعد عودتهم من زاوية نفطة بالجريد، التي كانت توفر قدرًا من العلم الشرعي والعربي لا بأس به للطالب المريد، الذي يريد أن يعود لبلدته للإمامة والخطابة والإصلاح. وكان الشيخ الذي أثر في الشيخ العربي التبسي في زاوية نفطة بالجريد هو محمد بن إبراهيم النفطي، الذي كانت تربطه صداقات مع القايد الصديق بتبسة، فيقضي عطلته الصيفيّة فيها، وقد سبق الشيخ العربي للدعوة الإصلاحية الشيوخ عسول والصدوق بن خليل والشيخ سليمان..."[٥٥].

يشهد هذا النص على جديّة الشيخ العربي في المسارعة إلى العمل الإصلاحي، وذلك تأسيًا بمن سبقه من مصلحي البلدة، ولذا وجدنا الشيخ العربي يسارع لاستكمال مسيرته العلميّة أولاً. ثم يتلهف للعودة إلى تبسة ليواصل عمله الإصلاحي التعليمي على أسس علميّة قويّة.

وقد بدأ نشاطه التعليمي الإصلاحي بممارسته لمهنتي التربية والتعليم مدرسًا، والإمامة والوعظ والإرشاد في جامع تبسة ومدرستها، ثم في مسجد سيدي أبي سعيد لاحقًا، مارًّا بالمراحل الآتية:

١- مرحلة ما بعد عودته من مصر (١٩٢٧-١٩٢٩م):

بعد عودته من مصر عام ١٩٢٧م نجده يركن إلى مسجد أبي سعيد، الذي كان يرتاده أيام عطله بعيد عودته من الدراسة في الزوايا والزيتونة؛ لينظم فيه دروسًا دينيّة دعوية يوميّة بعد صلاة العشاء في: الحديث والتفسير والفقه والسيرة والتاريخ الإسلامي، تناسب مستوى عامة الناس من سكان تبسة.

كما اشتغل بالتجارة مع أبناء عمومته في محل لهم بتبسة لبيع الحبوب وطحنها، مستغلاً في الوقت نفسه أرض أبيه في دوار اسطح للزراعة، والاتجار بمواشيه ليكسب رزقه تأسيًّا بمنهج الشيخ عبد الحميد بن باديس[٥٦]؛ وقد نصحه شيوخه - إذا أراد بالفعل خدمة الدين الإسلامي - باعتزال الوظيف وتجنب الارتزاق بالعلم الشرعي لما يجلبه وظيف الحكومة المشؤوم من ضغط وتبعية وإذلال[٥٧]....

وبعد مجيء الشيخ العربي انفضّ رواد حلقات الشيخ عسول العبيدي، والصادق بن خليل، وسليمان بن طيار من الجامع العتيق والمدرسة الصادقية، وزاوية سيدي عبد الرحمن، والتحقوا مباشرة بحلقته في مسجد أبي سعيد، وقد حاول الشيخ بمعية رجال الإصلاح بالمدينة - بعد أن غص المسجد بالرواد - الانتقال إلى الجامع العتيق، ولكن أعداء الإصلاح من الطرفين وأتباع الإدارة الاستعمارية من الأئمة الرسميين، وعلى رأسهم الشيخ سليمان بن طيار، ومحمد الصالح جلالي[٥٨]، الذين تدخلوا لدى الإدارة الفرنسية فمنعته من التدريس فيه فعاد من جديد إلى مسجده القديم[٥٩].

وظل الشيخ العربي بتبسة مدرسًا وواعظًا ومرشدًا ومعلمًا بمسجد أبي سعيد متحديًا العراقيل الاستعمارية من جهة، وعراقيل أتباعه من الطرفين والأئمة الرسميين، وفي تلك الأثناء كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يتابع بدقّة معاناته معهم، إلى أن دعاه لإدارة مدرسة سيق الابتدائية أواخر سنة ١٩٢٩م بالغرب الجزائري، فترك الشيخ العربي بلدته تبسة مكرهًا، كما ترك أهله على مضض، بعد أن كانت أمانيه الإصلاحية كلّها معلقة في مدينة تبسة، التي كان يعدّها منطلقًا استراتيجيًّا، وقاعدة ناهضة للدعوة والإصلاح[٦٠].

٢- مرحلة إدارة مدرسة سيق الابتدائية (١٩٢٩-١٩٣٢م):

كما يروي الأستاذ مالك بن نبي في مذكرات شاهد القرن حيثيات التطور الاجتماعي في الجزائر عامّة وفي تبسة خاصّة، وقائع انتقال الشيخ إلى مدينة سيق واضطلاعه بالتدريس وإدارة مدرستها الحرّة الابتدائية، حيث يقول:

"حرارة الإصلاح بدأت تجتاح وهران، فالناس في بلدة سان دوني دوسيج -St Denis du sig- بنوا مدرسة دعوا من أجل إدارتها الشيخ العربي التبسي، وكان (باش آغا) المنطقة (بوشيحا) يدلي بنصيبه من تلك المبادرة، إذ كان يغطي من جيبه الخاص ميزانية المدرسة وإدارتها. كانت هذه سمات ذلك العصر، فقد كان الناس يلتزمون

بملء اختيارهم دون أن يدخلوا في حسابهم رأي الإدارة"[61].

وقد وصف الأستاذ (محمد علي دبوز) استقبال أهل سيق للشيخ العربي التبسي بقوله:

"وقد استقبل أهل سيق الشيخ العربي التبسي استقبالاً عظيمًا؛ لأنهم وجدوا فيه بغيتهم لمدرستهم ولمدينتهم ولمجتمعهم، وقد بهرهم بشخصيته القوية الناضجة، وورعه الشديد، وشدّة تمسكه بالدين وبعلمه الغزير، وذكائه الوقاد، وبفصاحته البالغة، وشدة تأثيره في الناس، وجديته في كل شيء، وعدم ميله إلى التسلية والمزاح.."[62].

وقد شكل الشيخ العربي في أثناء وجوده بمدينة سيق طليعة إصلاحية، قوامها جماعة إرشادية تعمل لصالح الدين والجزائر، كما تكونت بمقابلهم الجماعة المناوئة للإصلاح من الطرقيين والأئمة الرسميين وأدعياء العلم، وظل الشيخ العربي معلمًا ومدرسًا وواعظًا وإمامًا وخطيبًا وقاضيًا بين الناس إلى أن حلّ وفد من أهل تبسة، يضم الساده: الصادق بوذارع وحواس بن إسماعيل ومحمد رسول وعبد الحفيظ مسقلجي[63] بمدينة سيق صيف ١٩٣٣- بعد مرورهم على الشيخ ابن باديس مستأذنين.. - معتذرين للشيخ العربي، ومرغبين له ضرورة العودة إلى تبسة بلدته، حيث أهله وعشيرته، وأين ستجد مجهوداته التربوية والتعليميّة والدعويّة صداها، فاشترط لعودته ثلاثة شروط قبلوها مباشرة، وهي:

١- تأسيس جمعية خيرية.

٢- بناء مدرسة عربية إسلامية حرّة.

٣- بناء مسجد جامع حر من سيطرة الإدارة الفرنسية وأئمتها الطرقيين والمرتزقة..."[64].

وعاد معهم الشيخ، وقد وفوا بالتزاماتهم، وأسسوا الجمعية والمدرسة والمسجد الجامع، الذي كان يدعى بجامع المدرسة إلى اليوم عند أهل المدينة؛ لالتصاقه بمدرسة تهذيب البنين والبنات، وبنوا بأعلاها سكن الشيخ، ومن يومها تولى إدارة المدرسة وإمامة الجامع، وعزف عن الاشتغال أو الاقتراب من أعمال الجمعية ومهامها لاعتبارات استمرارها، وخشية تحديها وعرقلتها من الاستعمار وأعوانه[65].

٣- مرحلة إدارة مدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة (١٩٣٣-١٩٤٧م):

يروي الأستاذ مالك بن نبي في مذكراته عن عودة الشيخ العربي التبسي من بلدة سيق قائلاً:

"وكانت عودة الشيخ العربي التبسي من مدينة سيق منتظرة ليوم التدشين القريب، وانضم تحت لواء الإصلاح، حتى عرابدة تبسة ومدمنوها العاكفون على الخمر، كما انضم كثير من الذين يعيشون في كنف الاستعمار... وكانت الملامح الاجتماعية كلّها تتغير في المدينة، في حين بقيت في سيرها الإصلاحي منذ أن غادرتها قبيل سنتين"[66].

وقد وصف الأستاذ محمد الحسن فضلاء[67] رحيل الشيخ العربي عن بلدة سيق فقال:

"ولما أزمع الشيخ العربي على مغادرة قرية سيق والعودة إلى مدينة تبسة، بعد أن اتصل به أعيانها، احتج أهل سيق لدى الشيخ عبد الحميد بن باديس فأجابهم - رحمه الله - بالمعنى الذي يفهمونه وبالمثل عندهم قائلاً: "المحراث الكبير نخدموا

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

بيه الأرض اللي نحبوا انطوعوها فبراريكم الآن لا تحتاج إلى محراث كبير"، وحل محلّه الشيخ المجاهد فرحات بن الدراجي[٦٨]، الذي سار على نهجه إلى حين إغلاق مدارس الجمعية سنة ١٩٥٦م"[٦٩].

وظل الشيخ العربي مدرسًا وواعظًا وإمامًا ومرجعية دينيّة وعلمية وتربوية وأخلاقية لأهل تبسة، فبمشاركته حققت الجمعية الخيرية لأهل المدينة بناء مدرسة تهذيب البنين والبنات سنة ١٩٣٤م، التي ضمّت في صفوفها الابتدائية كل سنة ما يقارب خمسمائة تلميذ، ومنها تخرج رجال الإصلاح والسياسة والثورة بتبسة، وفي سنة ١٩٣٦م بوشر ببناء المسجد الجامع الحر، الذي صار قبلة لكل أهل الإصلاح من سكان المدينة والقادمين من الأرياف، وأفل نجم المسجدين مسجد أبي سعيد والمسجد العتيق[٧٠].

وظلّ الشيخ العربي طيلة تلك المدة مديرًا ومعلمًا في النهار بالمدرسة، وإمامًا وخطيبًا وواعظًا في الليل في الجامع، إذ يلقي دروسه للعامة بعد صلاة العشاء من كل يوم، إلى أن ترك التدريس وإدارة المدرسة سنة ١٩٤٧م إلى الشيخ علية معمر، الذي أدارها إلى حين غلقها من قبل الإدارة الاستعمارية بتاريخ٢١/١١/١٩٥٦م، وإيداعه مع جميع معلمي المدرسة[٧١] في المعتقل[٧٢] الصحراوي الرهيب بافلو إلى يوم ١٩/٣/١٩٦٢م. واستقبل الشيخ العربي خلال إدارته لمدرسة التهذيب سنتي ١٩٤١-١٩٤٢م طلاب الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذين كانوا يدرسون عنده التفسير في الجامع الأخضر ومسجد سيدي كموش ومسجد سيدي بومعزة ليتموا دراسة علم التفسير عنده بتبسة[٧٣].

٤- مرحلة إدارة معهد عبد الحميد بن باديس(١٩٤٧-١٩٥٦م):

كتب الشيخ البشير الإبراهيمي في جريدة البصائر[٧٤] عن دور الشيخ العربي في استمرارية معهد عبد الحميد بن باديس، فقال:

"إذ كان تكوين المعهد من أساسه أعجوبة من أعاجيب الفجاءة، وكان أمره دائرًا بين اثنين: كاتب هذه السطور، بحكم منصبه في جمعية العلماء ومنزلته في الأمة، والأستاذ التبسي بحكم مقامه العلمي، ومكانته في الشعب، وقيمته العلميّة عند إخوانه العلماء... ولانزال نعد من توفيق الله للمعهد، ومن آيات عنايته به إسناد إدارته إلى الأستاذ العربي التبسي، فليطمئن المتسائلون والمشفقون على المعهد، فإنّ المشرفين عليه غير غافلين عن هذه النقطة، وإن الإدارة ساعية في وضع كل شيء على الأساس الصحيح حتى يعمر المعهد بالكفاءات، ولا يضيع حق ذي حق فيه، والعاملون فيه من خيرة رجالات العلم والدعوة والإصلاح في الجزائر"[٧٥].

وظلّ الشيخ العربي مديرًا للمعهد طيلة عقد من الزمان، يعينه في إدارته الشيخ محمد خير الدين البسكري، ولم يصطحب معه أسرته، بل كان يزورهم متى سنحت له الفرصة، منقطعًا لخدمة المعهد وإدارته[٧٦]، إلى حين إغلاق الإدارة الاستعمارية مدارس الجمعية عامة، ومعهد عبد الحميد بن باديس يوم ٢١/١١/١٩٥٦م، وتشتت طلابه، ومنها انتقل الشيخ إلى الجزائر العاصمة.

ومن مظاهر تفانيه في خدمة المعهد الباديسي نقتطف طرفًا من مقالة في جريدة البصائر[٧٧]، يحث فيه الأمة الجزائرية المسلمة لدعمه

والحفاظ عليه؛ لأنه رمز عزها وشموخها وهويتها، فيقول:

"ندعو الشعب الجزائري بجميع طبقاته التي تعمل لأن تبقى هذه الأمة، أمة لها خواص الأمم ومميزاتها ومنشآتها، إلى التشارك والتعاون في تسيير المعهد، والتدرج به إلى اللحاق بالمعاهد الإسلامية شرقًا وغربًا، وإلى تخليصه وإنقاذه من وضعيته الشاذّة الموجود عليها اليوم، وليس هذا بأمر صعب على أمة كالأمة الجزائرية، إذا أخلصت نيات القادة الدينيين والدنيويين، وإذا قام الدعاة إلى العلم بما يجب عليهم من تصفية جهودهم من الأغراض الهدامة، وإنه لمن أكبر الكبائر مع الله ومع دينه ومع لغة كتابه أن يظل الشعب في ميراثه القديم القريب الضار المشوه بالخلافات، التي أعانت الزمان على الأمة الجزائرية، فأصبحت لا شرقيّة، ولا غربيّة، لا عربية، ولا عجمية.

فهُب أيها الشعب لإعانة معهدك، ونشر ثقافتك،، والسير مع أهل زمانك، ولن يضيع شعب حافظ على لغته وقوميته.."[٧٨].

ومعهد عبد الحميد بن باديس كان يتشكل من مجلس إدراي برئاسة الشيخ وإدارته وتسييره ومراقبته، الذي كثرت مسؤولياته إلى حد الإرهاق والعمل طيلة النهار بأكمله، وقد تفرعت عنه الهيئات الآتية:

١- الهيئة العلمية.

٢- الهيئة المالية.

٣- هيئة المراقبة والضبط[٧٩].

نشاطاته الدعوية والإصلاحية:

يروي الشيخ البشير الإبراهيمي وقائع رحلته إلى الشرق العربي والإسلامي، وما آل إليه انشغاله بمستقبل مسيرة الحركة الإصلاحية بالجزائر بعد رحيله، مبديًا اطمئنانه على حسن مآلها ودقّة سيرها، وانتظام أمرها، بفضل تولي الشيخ العربي أمورها، معتذرًا له، داعيًا الله له، تصديه وتضحيته لتحمل عبء الجمعية خاصة، والعمل الإصلاحي في الجزائر عامة، إذ يقول:

"كنت أجلس مع أولادي - في مصر من طلاب وبعثات الجمعية - الساعات الطوال، وكأنني لست منهم، وليسوا مني، وكأنني بينهم أصم لا يسمع ولا يعي؛ لأنني إذ ذاك أفكر في مقالة للبصائر أنفض عليها سواد ليلي؛ لتكون مع الصباح في المطبعة، أو في سفرة تثبت جواز الطفرة، أو في حفلات تزاحمت على أوقاتها، وما من حضوري في جميعهن بدّ، أو في مشكلات المعلمين والجمعيات، وهي صرف السوق، وملء الوسوق... فالآن أسرح وأمرح وألقي الهموم عن كاهلي وأطرح، فقد ألقيت تلك الأثقال على من لا يؤوده حملها لفضل علمه، ووفور عقله، وحدّة ذكائه، وشدة حزمه، وهو الأخ الأستاذ التبسي.

وإنّ جزاءه علي أن أمدّه بمدد من الأدعية الصالحة في مجالي الإجابة من صلواتي وخلواتي أن يعينه الله على تلك الأعمال، التي بلوتها مختبرًا، واضطلعت بها مصطبرًا، فوجدتها لا تقوم إلا على اثنين زكانة الرجال، وزكانة الرجال في زكانة الجبال، وكلتا الخلتين يجمعهما أخونا الأستاذ التبسي، وهذا تصوير غريب لحالتي في المشهد والمغيب، أرجو أن يقع - على بعد الدار- لإخواني هناك، وفي مقدمتهم أخي الأستاذ التبسي، فيعينهم جده على الجد، وتدفع عنهم

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

دعابته سأم العمل المتشابه، وضجر النفوس المرهقة، ومن دعابته أنني تخففت من الأعمال، لا والله ما تخففت، وإنما انتقلت من تعب مملوء لاتحاد لونه، إلى تعب متجدد الألوان، وفي تجدد الألوان مجال لتجدد النشاط، وباعث على إقبال النفس، وتفتحها من جديد للاستئناف.."[٨٠].

هذه شهادة قويّة وصادقة واعتراف أمين من الشيخ الإبراهيمي في الشيخ العربي، إذ يبيّن حجم الرجل وعظمته من ذلك القدر الذي أفرزه جهاده ونشاطه العظيم على حمل الجبال، وتحمل المسؤوليات والاضطلاع بها، والائتمان على ميراث الأمة الفكري والثقافي والروحي، وذلك دأب الشيخ العربي مذ وعى وجوده الرسالي، وقد تجلى ذلك في جميع مراحل حياته الدعوية والإصلاحية.

١- مرحلة العضوية في جماعة الرواد (١٩٢٨-١٩٣١):

يروي الشيخ محمد خير الدين في مذكراته[٨١] وقائع اجتماع جماعة الرواد، الذي قيض الله له تسجيله في مذكراته، ولم يقيض للشيخ العربي تدوينه في مذكراته، إذ يقول:

"اجتماع الرواد، في عام ١٩٢٨م تحقق عزم ابن باديس ووجه دعوته إلى الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي، الذين رأى فيهم مقدرة واستعدادًا للعمل في سبيل الدين والوطن.

وقد لبى دعوته: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك بن محمد الميلي والشيخ الطيب العقبي والشيخ العربي التبسي والشيخ السعيد الزاهري وكاتب هذه المذكرات الشيخ محمد بن خير الدين، واجتمع هؤلاء الرواد برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس في مكتبه المجاور لمسجد الأربعين شريفًا بقسنطينة، وكانت مشاعر المجتمعين تفيض حماسًا وعزيمة صادقة، واستعدادًا للتضحية في سبيل الله والوطن.

وافتتح الرئيس الجلسة، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول محمد ﷺ، وقال: أيها العلماء حياكم الله وأمدّكم بعونه ونصره، وبعد..."[٨٢].

ثم ختم خطبته قائلاً: " والآن أيها العلماء: قد شاء الله أن يهيئكم ويدخركم لهذا الظرف، لتتحملوا مسؤوليتكم بكل شجاعة وتضحية، وإن يومكم هذا لشبيه بذلك اليوم الذي وقف فيه البطل طارق بن زياد خطيبًا في جيش المجاهدين على ربوة جبل طارق بعد أن أحرق سفنهم التي حملتهم إلى الجهاد في الأندلس، وقال قولته المشهورة.. فأجابه العلماء الرواد: نحن مستعدون للتضحية في سبيل ديننا ووطننا والله معنا، قال الرئيس: حياكم الله وأيدكم بنصره"[٨٣].

ثم عرض الإمام خطة عمل مؤلفة من عدّة نقاط لتنفيذها، وهي كما يأتي:

١- تكوين لجنة منكم للتسيير والتنفيذ.

٢- الشروع فورا في إنشاء المدارس الحرّة لتعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية.

٣- الالتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرّة، والجولان في أنحاء الوطن كافة لتبليغ الدعوة الإصلاحية لجميع الناس.

٤- الكتابة في الصحف، والمجلات لتوعية طبقات الشعب.

٥- إنشاء النوادي العربية للاجتماعات، وإلقاء الخطب والمحاضرات.

٦- إنشاء فرق الكشافة الإسلامية للشباب في أنحاء البلاد كافة.

٧- العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والحكم الأجنبي؛ لأنّ مبدأنا الذي يجب أن نسير عليه هو اتباع هدي رسول الله ﷺ.."[٨٤].

ثم عيّن الرئيس جماعة الرواد، وحدد لهم أماكن نشاطهم.. وجعل نشاط الشيخ العربي التبسي لإلقاء الدروس بتبسة وما جاورها، واختتم هذا الاجتماع التاريخي بالدعاء أن يوفق الله جهودنا، ويكلل بالنجاح أعمالنا، ولحق كل بمكان عمله[٨٥].

لم يرد الله تعالى لجهود الشيخ العربي أن تطمس في اجتماع الرواد، هذا الاجتماع الذي أسس لبداية العمل الإصلاحي الجمعي في الجزائر، بعد المجهودات الإصلاحية والدعوية الفردية التي قام بها رجال الدعوة والإصلاح الديني في الجزائر منذ احتلالها إلى يوم اجتماع الرواد وبدئهم العمل الجمعي.

وقد عضدت شهادة الشيخ محمد خير الدين في شهود الشيخ العربي لاجتماع جماعة الرواد تلك النشاطات الدعوية والإصلاحية المتعددة التي اضطلع بها في تبسة وما جاورها قبل انتقاله إلى سيق.

لأنه لم يعد من مصر إلا لغاية الاضطلاع بالدعوة والإصلاح الديني، وقد فضل العودة إلى وطنه على المكوث في الأزهر الشريف بعد أن عرض عليه شيخ الجامع الأزهر بتوصية من أساتذته وشيوخه الأزهريين منصب تدريس الفقه والأصول على المذهب المالكي، ولكنه رفض المكوث على الرغم من حجم المغريات وحياة الاستقرار والدعة. وقرر العودة إلى بلده المحتل، المهزوم روحيًا وحضاريًا[٨٦].

٢- مرحلة العضوية في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣١-١٩٣٢م):

دُعي الشيخ العربي لحضور جلسات الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقي بالجزائر يوم الثلاثاء ١٩٣١/٥/٥م الموافق ١٧/ذي الحجة/ ١٣٤٩هـ[٨٧].

ولم يرشح الشيخ نفسه لعضوية المجلس الإداري لجمعية العلماء في جلستها التأسيسية - كما روى ذلك لأقرب تلامذته ومساعديه[٨٨]- لأسباب عديدة، أهمها:

١- رغبته في إفساح الفرصة للعلماء الآخرين.

٢- زهده في طلب المناصب.

٣- تفويت الفرصة على الأعداء، والمتربصين بنجاح تأسيس الجمعية.

وهكذا يفضل الشيخ العربي إنجاح العمل الجمعي على ترشحه الشخصي، كما فعل الكثير من معوقي الإصلاح في زمانه[٨٩].

٣- مرحلة العضوية في المجلس الإداري لجمعية العلماء (١٩٣٢-١٩٥٦):

ترشح الشيخ العربي لعضوية المجلس الإداري للجمعية بطلب من العلماء الحاضرين في جلساتها المنعقدة يومي الاثنين والثلاثاء١٨-١٩/محرم/ ١٣٥٠هـ، الموافق ٢٧-١٩٣٢/٩/٢٨م، وانتخب الشيخ في عضوية المجلس الإداري للجمعية في عامها الثاني للمرة الأولى التي يترشح فيها وعيّن نائبًا للكاتب العام محمد الأمين العمودي[٩٠].

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

٤- مرحلة الكاتب العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣٦-١٩٤٥):

وظل الشيخ يترشح لعضوية المجلس الإداري لجمعية العلماء كل سنة إلى أن انتخب كاتبًا عامًّا للجمعية في جلساتها الاعتيادية أيام الأحد والاثنين ١١-١٢/ رجب/ ١٣٥٥هـ ٢٧-٢٨/٠٩/١٩٣٦م، بعد أن حاز على ١٧٨ صوتٍ من المصوتين كبقيّة زملائه الأعلام المترشحين وهم الشيوخ: ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والميلي[٩١].

وقد تجدد انتخابه أمينًا عامًّا للجمعية في دورتها الاعتيادية أيام ٢٤/٢٥/٢٦/ سبتمبر/ ١٩٣٧م، وبحضور ١٣٥ من رؤساء شعب الجمعية، كما انتخب في عضوية المجلس الإداري محتفظًا أيضًا بمنصبه الأول كأمين عام (كاتبًا عامًّا) للجمعية[٩٢].

وقد تجدد انتخابه في عضوية المجلس الإداري للجمعية سنة ١٩٣٨م بعد أن حصل على ١٤٧صوتٍ كصديقية ابن باديس والإبراهيمي[٩٣]، كما تجددت عضويته لمنصب الكاتب العام سنة ١٩٣٩، وقد بدا ذلك واضحًا من خلال نشاطاته كفرد، ونشاطات جمعية العلماء التي كان يغطي نشاطاتها كافة وينشرها في جريدة البصائر[٩٤]، وظل الشيخ العربي يشغل منصب الكاتب العام للجمعية إلى أواخر شهر سبتمبر١٩٤٦م تاريخ انعقاد الجلسة العادية للجمعية، حيث تم تجديد المجلس الإداري للجمعية، وفيه نال منصب نائب الرئيس[٩٥]، وفي خلال جمود نشاط الجمعية في أثناء الحرب العالمية الثانية كان الشيخ مبارك الميلي يشغل منصب نائب الرئيس، وقد أقعده المرض العضال، فنابه في مهامه[٩٦].

وخلال الحرب العالمية الثانية الحرجة احتفظ الشيخ العربي بمنصبه في الجمعية ككاتب عام لها، كما تشير بذلك التقارير الاستعمارية الفرنسية[٩٧].

وفي هذه المرحلة ١٩٣٩-١٩٤٥م الحرجة تعمق نشاط الشيخ في مجالات النضال السياسي، إضافة إلى اضطلاعه أيضًا بالعمل الدعوي والإصلاحي والتعليمي. ومن نشاطاته التي غطتها تقارير الإدارة الاستعمارية (S.L.N.A)[٩٨] نشاطاته الإصلاحية المختلفة، وقد بدأ كذلك أيضًا في كراسة المطالب التي تقدمت بها جمعية العلماء للحلفاء[٩٩]، حيث يورد التقرير ما ملخصّه:

"اجتمع العلماء بقسنطينة يوم ١٩٤٤/٧/٧م برئاسة الشيخ العربي التبسي في غياب الإبراهيمي، الذي كان معتقلاً في آفلو، على الرغم من قرار الحظر الصادر عن الحاكم العام بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية الاستثنائية، وكان موضوع الاجتماع منصبًّا حول العراقيل الإدارية التي تعترض رجال الجمعية ومؤسساتها، واقترح تقديم كراسة المطالب إلى الحكومة الفرنسية حول القضايا الرئيسة الآتية:

١- المساجد وموظفوها وأوقافها.

٢- التعليم العربي ومدارسه ومعلموه.

٣- القضاء الإسلامي وتعليمه ورجاله.."[١٠٠].

٥- مرحلة نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٤٦-١٩٥٢):

اجتمع أعضاء الجمعية في دورتهم العادية أيام

٢٧/٢٨/٢٩/سبتمبر/١٩٤٦م بقسنطينة وانتخبوا مجلسًا إداريًّا جديدًا للجمعية، نال الشيخ العربي فيه منصب نائب الرئيس، وظلّ الشيخ العربي في هذا المنصب حتى بعد رحيل البشير الإبراهيمي إلى المشرق العربي يوم ٧/٣/١٩٥٢م[١٠١].

٦- مرحلة الرئاسة الفعليّة لجمعيّة العلماء (١٩٥٢-١٩٥٦):

ظل الشيخ العربي يشغل منصب نائب رئيس الجمعية حتى بعد جلستها الإدارية المنعقدة بالجزائر العاصمة أيام ٢٧/٢٨/٢٩/سبتمبر/١٩٥٤م لأسباب إصلاحية لها صلة بتماسك الجمعية في أثناء غيابه في موسم الحج إلى غاية حل الجمعية[١٠٢].

وفي هذه المرحلة بالذات تحمل الشيخ ما تنوء الجبال بحمله، وذلك باعتراف كل رجال الجمعية، وعلى رأسهم محمد الشيخ البشير الإبراهيمي نفسه[١٠٣]، إلى أن أوصل الجمعية إلى حل نفسها يوم ٧/١/١٩٥٦م؛ كي لا تتورط مع الإدارة الاستعمارية في المفاوضات الاستسلامية[١٠٤].

ويلاحظ على نشاطات الشيخ العربي المهنية والدعوية والإصلاحية ما يأتي:

١- وضوح إطاره المرجعي وثباته في مراحله الدعوية والإصلاحية كافة.

٢- وضوح خطه، وممارساته، وغاياته، وأهدافه.

٣- تنوع أساليبه، وممارساته، ووسائله.

٤- استمراره بين خطي التربية والتعليم من جهة، والعمل في إطار جمعية العلماء من جهة أخرى.

٥- تطوير آلياته وتقنياته الدعوية والإصلاحية حسب ما تقتضيه كل مرحلة.

٦- عزوفه عن الترشح للمناصب الدنيوية، وتجنبه المنافسة فيما لا يرضي الله تعالى.

٧- صدقه، وإخلاصه، وتقواه، ووفاؤه لرسالة الإسلام، التي تفانى في خدمتها إلى يوم استشهاده.

٨- حزمه وانضباطه المهني.

٩- تفانيه في خدمة الإسلام والجزائر والشعب الجزائري.

استشهاده في سبيل الله:

اكتنف الغموض ظروف اختطاف الشيخ العربي كما اكتنف الغموض أيضًا حيثيات اختفائه عن مسرح الحياة، وبين اتهام وتفنيد وتكذيب الأطراف المعنيّة باختطافه ضاعت حقيقة وفاته واستشهاده، التي تتوزعها الاحتمالات الآتية:

الاحتمال الأول: وهو الاحتمال الأرجح والأقوى، والذي تصوب فيه أصابع الاتهام إلى قيادة الجيش الفرنسي أصحاب القبعات الحمر بقيادة الدموي السفاك (ريمون لاقايارد)، أو إلى قيادة المنظمة السرية الفرنسية (O A S)، أو إلى أي جهة استعمارية خفيّة أخرى.

الاحتمال الثاني: وهو الاحتمال المرجوح والأضعف، والذي تصوب فيه أصابع الاتهام إلى الفيصل المعادي للتيار العربي الإسلامي في صفوف الثورة، وهو احتمال جدير بالدراسة والبحث والاهتمام في ظل الحقائق الجديدة عن التصفيات والاغتيالات والمحاكمات داخل صفوف الثورة التحريرية، والتي نالت رموز التيار العربي الإسلامي فيها: (شريط لزهر. عباد الزين. عباس لغرور. محمد بن علي. محمد لعموري) على يد

أنصار التيار الفرانكوفونية المتأغرب بعد مؤتمر الصومام ١٩٥٦/٨/٢٠[١٠٥].

وقد أوصلتنا نتيجة الحوارات التي أجريناها مع أقرباء الشيخ من جهة، ومع المجاهدين القياديين في المنطقتين الخامسة والسادسة في الولاية التاريخية الأولى - أوراس النمامشة - إلى جملة من الحقائق نعرضها وفق المطالب الثلاثة الآتية:

• مواقفه الجهادية الربانية:

اجتمعت جملة من العوامل لتعجل بتصفية الشيخ العربي من ساحة العمل السياسي والدعوي، كداعية وكسياسي وكقيادي روحاني ومرجعي للتيار العربي الإسلامي في الجزائر الثائرة، وقد تلاقت هذه العوامل كلّها في نقطة واحدة يحدوها دافعان، الأول يتمثل في محاولة جذب الشيخ نحوها، وثانيها يتمثل في التخلص منه في حال إخفاق الدافع الأول، وهذه العوامل هي:

١- مواقف الشيخ العربي الجهادية التي لا تعرف المهادنة ولا المساومة.

٢- محاولات التدجين والتطويع والاحتواء من الإدارة الاستعمارية.

٣- محاولات الاستمالة من الفيصل المناوئ للتيار العربي الإسلامي في صفوف الثورة التحريرية له، بغية إضعاف تياره القيادي فيها، ولا سيما بعد تصفيات ١٩٥٧م-١٩٥٨م، التي طالت رموزه[١٠٦].

٤- محاولات التشبث والارتكاز على رصيد الشيخ ومكانته من قبل التيار العربي الإسلامي في صفوف الثورة بغية تعزيز مواقعهم أمام التيار المفرنس، الذي بدأ يسيطر على المواقع الحساسة فيها.

ولنتناول كل عامل من هذه العوامل على حدة:

*** هنا يموت قاسي:**

عرف الشيخ بحدته وشدّته في التمسك بالحق، فهو لا يعرف في سبيله أيّ مهادنة أو مساومة أو محاباة، وبمجرد اندلاع الثورة التحريرية المباركة يوم ١٩٥٤/١١/١م بادر الشيخ لتأييدها والوقوف معها ومؤازرتها بكل ما يستطيعه ويقدر عليه[١٠٧]، بل كان قد أفتى المجاهد لزهر شريط بوجوب مقاتلة المستعمرين قبل اندلاع الثورة[١٠٨]، الأمر الذي دفع بالمجاهد لزهر شريط إلى نصب كمين لقائد فرقة الدرك بالشريعة عند تنقله يوم ١٩٥٤/١٠/١٧م قبل اندلاع الثورة بأيام قليلة وقتله مع ستة من الدركيين الفرنسيين الذين حملوا بجراحهم البليغة إلى مستشفى تبسة[١٠٩].

واستمر الشيخ في نهجه الثوري المعادي للاستعمار يخطب في المجامع العامة والمجالس الخاصة،وفي الاحتفالات والمناسبات الدينيّة والاجتماعية.. وتحت عنوان (هنا يموت قاسي) رد الشيخ العربي على المخذلين والمثبطين الذين نصحوه بوجوب التريث والتعقل وعدم التسرع والانتظار عما ستسفر عنه الجولة بين الثوار وفرنسا، مصدرًا فتواه الشهيرة سنة ١٩٥٦م، القاضية بوجوب الجهاد في سبيل الله ومقاتلة الفرنسيين المعتدين[١١٠].

ولما نصحه أصدقاؤه بوجوب الرحيل إلى مصر، أسوة بصديقه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي خطب مرارا، فقال[١١١]:

"**هنا يموت قاسي**، لأن أقطع إربًا في ساحة الجهاد خير لي من الموت على سرير من ذهب في

أرض الفرار.. لو فررنا نحن العلماء من ساحة المعركة من سيبقى فيها؟.. ماذا نقول لله ولرسوله ولصحابته يوم نلقاهم عن فرارنا من ملاقاة العدو؟.. أين نرفع رؤوسنا أمام العالم إذا فر كلّ علمائنا؟ ماذا تقول الأجيال اللاحقة عنا الفرارين يوم الزحف.."[١١٢].

وفي هذا الصدد يذكر الأستاذ أحمد بن ذياب في مقاله الذي كتبه عن موقفه من الثورة، فيقول: "ولعل من حق التاريخ أن أسجل هنا أن آخر لقاء لي به كان خلال عطلة يناير١٩٥٧م، وكان مدعوا وبعض إخوانه إلى تناول الغداء بحي الأبيار في الجزائر، وكان الداعي أسرة تنتسب -لأولاد دراج- ويومها تعرض لقضية الثورة في جمهور الحاضرين، فقال ما معناه: (انقلوا عني وبلغوا كل من لقيتم ممن تعرفون أن كل هجرة من الوطن إلى خارجه تعدّ مروقًا من الدين، وخيانة للوطن، ما لم تكن في مهمّة كلفت بها جبهة التحرير، وكل من خالف يعدّ من مشمولات الآية الكريمة التي جاء فيها: ﴿**وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[١١٣].

وكان موقفه الجهادي الصلب هو الذي قاده إلى رحاب الشهادة في سبيل الله.

*** محاولات التدجين والاحتواء:**

طالب الحاكم العام (روبير لاكوست ROBERT LA COSTE)[١١٤] من الشيخ العربي صاحب التأثير في الشعب الجزائري أن يهدئ من ثورته، فما كان من الشيخ إلا أن رفض طلب لاكوست قائلاً له: "إنني صادق منذ نعومة أظفاري، وأنا الآن شيخ كاهل وتريدون مني أن أكذب على الشعب، كلا لن أتحدث"[١١٥].

وقد حاولت الإدارة الاستعمارية التوسط لإيجاد صيغة حل تسوية استسلامي يقوده الشيخ العربي بمناسبة زيارة (جي موليت- GY MOLLET) رئيس مجلس الوزراء الفرنسي إلى الجزائر يوم ١٩٥٦/٢/٦م، فرفض الشيخ العربي ذلك العرض[١١٦].

كما تعرض الشيخ العربي لمحاولات احتواء أخرى عبر صحفيين من جريدة لوموند الفرنسية في شهر جانفي ١٩٥٧م بغية جرّه إلى حوار صحفي يتعلق بالأزمة الجزائرية يورط فيها الشيخ ويلبس عليه بكلام كما لبس على الشيخ العقبي فرفض الشيخ العربي إجراء مثل هذا الحوار المشبوه، معتبرًا بما وقع لغيره من جهة، ولتنافيه أيضًا مع توجهاته الثورية الجهادية[١١٧].

ثم دبرت للإيقاع به محاولات تآمريّة عديدة منها ما حدث له في مسجد (حي بلكور) بالجزائر يوم الجمعة ١٩٥٧/٣/١٩، عندما دست له الإدارة الاستعمارية عونًا من أعوانها صعد المنبر وألقى خطابًا حماسيًّا يتهم فيه رجال الثورة التحريرية، ويصفهم بالمتمردين الخونة[١١٨].

ولما أخفقت كل محاولات التطويع والتدجين والاحتواء الاستعمارية صار الشيخ بعدها عبئًا وعائقًا للمشاريع الاستسلامية يجب التخلص منه فكان العامل معجلاً بإخراجه من مسرح الأحداث[١١٩].

*** محاولات الاستمالة:**

وتجيء أيضًا محاولات الفصيل المتأغرب في صفوف الثورة التحريرية لإبعاد الشيخ عن مسرح

الأحداث في حال عدم استمالته، فقد عرض عليه مخطط إخراجه من الوطن عبر تونس من قبل رموز ذلك التيار[١٢٠]، ولكنه -رحمه الله- رفض بحكم موقفه الصلب وفتواه الفقهية المتشددة، لا بحكم الحيلة والدهاء والحسابات التكتيكية الضيقة الأخرى[١٢١].

ويكون عامل الكيد والتآمر... الفرانكوفوني في صفوف الثورة التحريرية هو العامل الثالث الذي عجل بإخراج الشيخ العربي وإبعاده من مسرح الأحداث[١٢٢].

*** محاولات الارتكاز والدعم:**

وجد التيار العربي الإسلامي نفسه قويًا في صفوف الثورة التحريرية لاعتبارات وعوامل كثيرة، أهمها: كونه هو الذي أشعل لهيبها، وقاد أهم معاركها، ولحجية منطلقاته الدينيّة والحضارية العربية الإسلامية، ولابتعاده المطلق عن منطلقات الأدبيات الماركسية الثورية التي دعا إليها قادة الثورة في سائر بياناتهم المختلفة: ١٩٥٤-١٩٥٦-١٩٦٣-١٩٦٤-١٩٧٦[١٢٣]، وكان الشيخ العربي يمثل لهم المرجعية الروحيّة والدينيّة والمعنوية، وبه استطاع أن يتعزز روحيًا، ويتقوى معنويًا...

ولذا لم يرق للتيار المتأغرب أن يتقوى عليه الفصيل العربي الإسلامي بعامل من عوامل القوة، ولذا تقرر الخلاص منه، والإيعاز للقوى المنتفعة بتصفيته والتخلص منه، لما يسببه من معوقات للطرح المتأغرب في صفوف الثورة، وتقرير مصيرها، ومستقبلها الاستغرابي.

ومن ثمّ يجب أن يهمل ويترك إنكار (ريمون لاقايارد) المشوب بالدهاء والخبث الاستعماري من التبري من تهمة اختطاف الشيخ ليلاً، وإلصاق التهمة بفصيل من المجاهدين[١٢٤].

وعلينا الباحثين أن نأخذه بعين الاهتمام في ضوء التصريحات والاستجوابات والشهادات الشفهية الجديدة للمجاهدين المكممين من أمد بعيد لأسباب عديدة[١٢٥].

ثم إن إنكار الرئيس ديغول أيضًا لنجل الشيخ الأكبر محمد الأمين عندما قابله بباريس شهر ماي ١٩٥٧م؛ إذ قال له بالحرف الواحد: (لا علم لي بما يدور في الجزائر) يدفعنا إلى إثارة هذه الشبهة لعلّ من يكشفها من بعدنا من الباحثين بالوثائق يوم يكشف عنها ويسمح بالاطلاع عليها[١٢٦].

وبناء على هذا الافتراض يصبح - في حال عدم ثبوت العكس - المتورطون في اختفائه واغتياله طرفين استعماريين، أحدهما واضح، والآخر متخف في صفوف الثورة، كما يجيء اختفاؤه في ظل ظروف عربية وإسلامية غامضة، اختفى فيها العديد من الزعماء والأحرار العرب، أمثال المعارض المغربي (المهدي بن بركة)[١٢٧] والزعيمين التونسيين (فرحات حشاد - صالح بن يوسف)[١٢٨][١٢٩].

وقد صاحب اختفاء الشيخ اختفاء رموز الطبقة المثقفة الجزائرية العربية الإسلامية، من أمثال: الأمين العمودي، وأحمد رضا حوحو، وأحمد بوشمال، وغيرهم من شيوخ المعهد الباديسي الذين يشاع أن الأيادي الاستعمارية الفرنسية هي التي اغتالتهم في ظروف غامضة[١٣٠].

*** اختفاؤه واستشهاده:**

اعتمد الدارسون في التأريخ لوفاة الشيخ على

بلاغ جمعية العلماء المنشور في جريدة المقاومة، الذي يعد اختفاءه ابتداء من ليلة الخميس ٤/رمضان/١٣٧٧هـ الموافق ١٩٥٧/٤/٤م، والذي أعاد نشره الأستاذ علي مرحوم[١٣١]، وقد روى الشيخ محمد علي دبوز طريقة الشيخ العربي بأنه ألقي به من الطائرة في البحر[١٣٢].

والحقيقة التي توصلنا إليها عن استشهاد الشيخ نوردها كما سمعناها عن أحد مجاهدي المنطقة الخامسة في الولاية التاريخيّة الأولى أوراس النمامشة الرائد أحمد الزمولي[١٣٣]، حيث يروي قائلاً:

*** بقرة الزيت والقار المغلي:**

"كنت طالباً في مدرسة فرعية ببلدة (قلعة سنان التونسية) تابعة لجامعة الزيتونة، وكانت مجاورة للحدود الجزائرية سنوات ١٩٥٠م - ١٩٥٤م، وكنت على علم برجال الثورة المكلفين بالاتصال بتونس لشراء وجمع الأسلحة من تونس الشقيقة بعد انتهاء ثورتها في شهر مارس ١٩٥٤م، وخلالها تعرفت على رجال الثورة الأوائل الذين كانوا يزورون تونس، ومنهم القائد العظيم لزهر شريط، الذي أصبحت كاتبًا له ولنائبه الشهيد محمد بن علي وبوساطتهما التحقت بصفوف الثورة التحريرية يوم ١٩٥٤/١١/٢٣م. وكنت أعرف الشيخ العربي التبسي منذ صغري، حيث كان والدي يصطحبني معه يوم الجمعة للصلاة في مسجد المدرسة حيث يدرس ويخطب ويصلي الشيخ العربي. وكان والدي يجالس الشيخ بعد الصلاة ويطلب مني الابتعاد إلى زاوية المسجد لانتظاره، ولكن الشيخ كان يطلب مني الاقتراب منه، وكان هذا في سنوات ١٩٤٧-١٩٥٠، فعلق الشيخ في قلبي وأحببته، واستهيبته لهيبته العظيمة، وسارت أحداث الثورة بنا إلى يوم ١٩٥٧/٤/١٧، وذلك بعد عودتنا مع القائد شريط لزهر ونائبه محمد بن علي من معركة جنوب غرب تبسة في سفوح الجبل الأبيض، فبادر المواطنون من قبيلتي أولاد العيساوي والجدور بإخبارنا بما شاهدوه من صنيع جنود الاحتلال، وأنهم قد أحضروا البارحة قرابة أربعين رجلاً يرتدون الزي العربي الإسلامي وأعدموهم رميًا بالرصاص، ثم واروهم في حفرة كبيرة[١٣٤]، ولما كنا متعبين من المعركة، فقد تركنا الأمر حتى طلوع الفجر، ومع صلاة الفجر خرجنا إلى موقع القبر الجماعي لهؤلاء العلماء... المجاهدين الشهداء، وقمنا بنبشه وإخراج الجثث منه، إلى أن أخرجنا منه ثلاثا وثلاثين جثة ووجدناهم سليمي المحيا، يلبسون الزي الإسلامي المسجدي فقمنا بوضعهم واحدًا بجانب الآخر، وكنا يومها سمعنا من الإذاعة عن اختطاف الشيخ، وبدأنا نتفرس في وجوههم وجهًا وجهًا علنا نجده فيهم فلم نجده بينهم، فصلينا عليهم صلاة الجنازة، ثم أعدنا دفنهم في كهف لا أزال أعرفه إلى الآن.

وبقيت صورة ذلك المشهد الاستشهادي العظيم ماثلة أمام ناظري منذ ذلك اليوم، وبقي البحث عن الشيخ الشهيد يلاحقني أينما حللت وأينما رحلت، ومضت سنون الثورة التحريرية المباركة، وكتب الله لي أن أتقلب في مناصبها العسكرية القياديّة، وشهدت ما شهدت إلى أن استقلّت الجزائر، وأصبحت أستاذا في الأكاديمية العسكرية بشرشال برتبة نقيب، وكان صديقي نقيب مجاهد من مدينة بوسعادة يدعي سي

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

(إبراهيم جوادي البوسعادي)، وكنا نتسامر سويًا، ونقتسم الحياة العسكرية معًا، ونتجاذبنا في أوقات الراحة أطراف الحديث، وفي كل مرة نتناول حديثًا ما، وكان لصديقي سي إبراهيم صديق مجاهد من بلاد القبائل برتبة رقيب أول - نسي اسمه - يعمل مديرًا في الفندق العسكري بساحة بور سعيد بالجزائر العاصمة، وكنا ننزل عنده يومي العطلة السبت والأحد، وكان يكرمنا دون سائر النزلاء العسكريين، مما شجعني يومًا فسألته عن سر الصداقة بينهما، فأجابني بأنه كان صديقه أيام الثورة، ومن قبلها كان صديقه في الجيش الاستعماري في فرقة (القبعات الحمر)، وأنهما التحقا في يوم واحد بالثورة بعد هروبهما من الجيش الفرنسي، فلم أرد يومها أن أكثر عليه بالحديث نظرًا لخطورة الظرف، وسارت بنا الأيام والأحاديث والصداقة العسكرية إلى أن سألته يومًا عن تاريخ وسبب التحاقه بالثورة فسالت عيناه بالدمع، وقال لي والحزن يملأ وجهه: "لقد كنت أنا وصديقي القبائلي في الفرقة العسكرية التي اقتحمت منزل الشيخ العربي ليلاً في حي بلكور بقيادة الدموي ريمون لاقايارد، وكنت وصديقي هذا في تعداد فرقة الجيش الذين راقبوا العملية، واستمروا يشاهدون ما حدث للشيخ العربي، الذي بقي نزيلاً في سجن تكنة القبعات الحمر بالجزائر العاصمة طيلة ثلاثة أيام من غير طعام ولا شراب ولا لباس، وقد تكفل بتعذيبه الجنود السنغاليون، والشيخ بين أيديهم صامت صابر محتسب لا يتكلم إلى أن نفد صبر لاقايارد.

وبعد عدّة أيام من التعذيب جاء يوم الشهادة، حيث أُعدّت للشيخ بقرة كبيرة مليئة بزيت السيارات والشاحنات العسكرية والأسفلت الأسود وأوقدت النيران من تحتها إلى درجة الغليان، والجنود السنغاليون يقومون بتعذيبه دونما رحمة، وهو صابر محتسب... ثم طلب منهم لاقايارد حمل الشيخ العربي، وكان عاري الجسد، فحمله أربعة من الجنود السنغاليين، وأوثقوا يديه ورجليه ثم رفعوه فوق البقرة المتأججة، وطلبوا منه الاعتراف وقبول التفاوض وتهدئة الثوار والشعب، والشيخ يردد بصمت وهدوء كلمة الشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم وضع من قدميه في البقرة المتأججة فأغمي عليه، وكانت آخر كلمة تلفظ بها- رحمه الله- لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثم أنزل شيئًا فشيئًا إلى أن أدخل بكامله فيها فاحترق وتبخر وتلاشى).

ويتابع الصديقان أن ذلك اليوم كان على وجه التقريب ١٠ أو١٢ أو١٣ من شهر أفريل من سنة ١٩٥٧م، وهو اليوم الذي قررا فيه الالتحاق بصفوف الثورة التحريرية، لهول ما رأياه من فظاعة المستعمر، وبقيا يحتفظان بالسر إلى أن حملته - يقول سي أحمد الزمولي - من سنة ١٩٦٤م، ولم أبح به لأحد إلى أن استجوبتني يابني"[١٣٥].

ولما ذهب ابنه الأكبر محمد الأمين يوم ١٩٥٧/٤/٥م لمقابلة (روبير لاكوست) يسأله عن أبيه واختفائه، أنكر أن تكون له علاقة بعملية اختطافه واختفائه، وقال له: "لقد هربه الثوار إلى تونس أو إلى مصر وأتيتني للتبرير، ولا علم لي به. بل أنت أخبرني أين اختفى وذهب؟.. أو لعلّ بعضًا من الثوار قتلوه؟.."[١٣٦]، ولما قابل محمد الأمين الرئيس الفرنسي ديغول بباريس، الذي أحسن

استقباله وقال له بالحرف الواحد: "لا علم لي بما يدور في الجزائر"(١٣٧).

ويستخلص من هذه الرواية ما يأتي:

١- وحشية الاستعمار وهمجيته في القتل والقمع والإرهاب، وعدم اكتراثه بقيمة الأرواح البريئة.

٢- ضرب المستعمرين لكل القيم والمعايير الإنسانية واحترام حقوق الإنسان، وتقديس رجال الدين.

٣- كشف المولى تبارك وتعالى سر استشهاد الشيخ العربي التبسي وعدم تركه مجهولاً.

٤- توعية الأجيال القادمة بحقيقة المعركة القائمة بين معسكري الشر والخير.

*** خلود من غير قبر:**

لأنه دافع عن الحق والحق ليس له مكان. ولأنه جاهد عن العدل والعدل ليس له زمان. ولأنه كافح من أجل الإسلام والإسلام ليس له أرض وحدود. ولأنه جاهد من أجل إعلاء كلمة الله... والله واسع ممتد... ولأنه ناضل ضد الظلم والقهر، وهذه المظالم لا تنتهي إلا بانتصار قيم الحق والعدل والخير، وهذه القيم الإلهية الخالدات ليس لها موضع ولا مستقر، فإنّ الشهادة كانت خالدة بخلود تلك القيم التي استشهد من أجلها. فهو عند ربه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ■

الحواشي

١. كان آخر ثورة شعبيّة دينيّة في الجزائر وأعنفها ثورة الشيخ محمد المقراني، ومحمد الحداد، سنة ١٨٧١-١٨٧٢م، ثم ثورة أولاد سيدي الشيخ المعروفة بثورة بوعمامة سنة ١٨٨٤-١٨٨٦م، للتوسع انظر: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:١٢، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر:١٢٧، ١٣٤، حزب الشعب الجزائري: ٦٧، ٦٨، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية: ١٧، ١٨بتصرف، الحركة الوطنية الجزائرية :٧١/٣.

٢. لمزيد من الاطلاع ينظر: مظاهر المقاومة الجزائرية:٢١, ٢٢، ومن الجدير بالذكر أنّ المقاومة الجزائرية مرّت بأربع مراحل هي:

أ- مرحلة المقاومة المسلحة (١٨٣٠-١٨٧١م):

وهي المرحلة الأولى تصدى فيها الشعب الجزائري للاحتلال منذ وجوده بأراضة بشاطئ سيدي فرج عام ١٨٣٠م، وتميّزت هذه المرحلة الحاسمة ببروز قادة حملوا لواء المقاومة المسلحة، بدءًا بكفاح الأمير عبد القادر عام ١٨٣٢- ١٩٤٧م، وأحمد باي ١٨٣٠-١٨٥١م، واستمرت إلى سنة ١٨٧٢م تاريخ القضاء على ثورة الرحمانية في الوسط الجزائري.

ب- مرحلة الانتفاضات المسلحة (١٨٧٢-١٩١٦م):

وقد امتدت هذه المرحلة الحاسمة من سنة القضاء على ثورة الرحمانية ١٨٧٢م إلى سنة ١٩١٦م، وشملت جميع أنحاء البلاد الجزائرية، وقاد الثورة فيها العديد من رؤساء القبائل وشيوخ الزوايا، ولم يكتب لها النجاح لافتقارها للتنظيم المحكم وللتعبئة العامة ولتحديد الأهداف، بدءًا من ثورة واحة العمري عام ١٨٧٦م، والأوراس عام ١٨٧٩م، وبوعمامة ١٨٨٢م، وثورة الأوراس عام ١٩١٦م.

ج- مرحلة النضال السياسي السلمي(١٩١٩-١٩٥٤م):

وقد افتتحها (الأمير خالد) بخوضه معارك الانتخابات البلدية وعقده للاجتماعات، وتقديمه للوائح والعرائض والمطالب، التي انتهت بنفيه من البلاد، وتلاه ظهور

الأحزاب السياسية والجمعيات الدينيّة، والثقافيّة والرياضية والكشفيّة، وعلى رأس هذه الأحزاب والهيئات الشهيرة: حزب نجم شمال أفريقيا، الذي تحوّل فيما بعد إلى حزب الشعب الجزائري، ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ثم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والحزب الشيوعي، وحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري.

وفي هذه المدة ظهرت الصحافة الجزائرية الحرّة واشترك كلّ الجزائريين في انتخابات المجالس المحليّة، وتأسست فيها النوادي والمدارس الحرّة، وعُقدت المؤتمرات الشعبيّة، وشهدت الجزائر الكثير من التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية، وتشدد فرنسا في تطبيق قوانين الردع الزجري، ومحاولات فرض التجنيس ومساعي التبشير المسيحي،والاحتفالات بمرور قرن على احتلال الجزائر وقسنطينة، وقمع رجال الحركة الوطنية الجزائرية وقادتها بالنفي والسجن والتشريد.

وفيها تبلور الوعي السياسي الوطني الجزائري، وبخاصة قضايا الهوية والقيم الوطنية ومستقبل الجزائر الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي.

د- مرحلة الثورة التحريرية (١٩١٩-١٩٥٤م):

وتمتاز هذه المرحلة بوضوح أهدافها، والتفاف الجماهير حولها، وعمومها أنحاء القطر الجزائري كافة، وصمودها في سبيل تحقيق الأهداف المسطرة لها منذ اندلاعها والمتمثلة في: (الاستقلال. الحريّة. السيادة. وحدة التراب الجزائري..)، ولهذا تعدّ ثورة الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤م تتويجًا للمقاومة الشعبية الوطنية الجزائرية الطويلة.

٣. مظاهر المقاومة الجزائرية:٢٢، وما بعدها، بتصرف، ينظر أيضًا: ابن باديس وعروبة الجزائر:٣٩، ٤٠.

٤. بلغ عدد الجزائريين المشاركين في الحرب العالمية الأولى قرابة ٣٥٠ ألفٍ من الجنود والعمال، وبلغ عدد القتلى منهم ٥٦ ألفًا، وعدد الجرحى٨٢ ألفًا حسب ما نشرته المجلة الفرنسية (لافريك فرنسيز)، نقلاً عن: الحركة الوطنية:٢/٢٠٩-٢١٠، حزب الشعب الجزائري: ٦٧-٦٨، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: ١/٥٦.

٥. أمه وأبوه أبناء عمومة مباشرين أما أمه فهي مولودة بعرش الجدور بدوار اسطح سنة ١٨٦٨م، وأبوه كذلك من مواليد ١٨٥٧م. نقلاً عن الشيخ الحفصي جدري شقيق الشيخ الأصغر، سلسلة حوارات سنوات جوان ١٩٩٣م وجويلية ١٩٩٤م، و١٩٩٦م. وقد أخطأ الأستاذ المرحوم محمد علي دبوز في تأريخه لهما، ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر:١/٤١-٤٢.

٦. حسب شهادة الميلاد المستخرجة من بلدية تبسة، والتي تحمل رقم ١٩٢٧/٢٣٩م موثقة بمحكمة تبسة بعد حكم إثبات ميلاده؛ لأنه من المنسيين، والحكم صادر بتاريخ ١٩٢٧/١٠/٢٠م بعد عودة الشيخ العربي التبسي من مصر بأيام قلائل، وتحمل شهادة ميلاده تاريخ يوم ١/جويليه/١٨٩١م، وهو اليوم الذي حددته قوانين الإدارة الاستعمارية لميلاد جميع المنسيين من الأهالي الذين تخلف ذووهم عن تسجيلهم في حينه.

وتبسة بالفتح ثم الكسر وتشديد السين المهملة: بلد مشهور من أرض إفريقية، بينه وبين قفصة ست مراحل في قفر سببية، وهو بلد قديم به آثار الملوك، وقد خرب الآن أكثرها، ولم يبق بها إلا مواضع يسكنها الصعاليك لحب الوطن. لأنّ خيرها قليل. وبينها وبين سطيف ست مراحل في بادية تسكنها العرب، يعمل بها بسط جليلة محكمة النسج، يقيم البساط منها مدّة.

ينظر: معجم البلدان: ١٣/٢. وكتاب عيون الاستبصار: ٣٢٩.

٧. حسب تقارير الإدارة الاستعمارية عنه، والمحفوظة في أرشيف قسنطينة.

٨. حوار مع الشيخ الحفصي جدري شقيق الشيخ في منزله بتبسة شهر جويليه١٩٩٧م.

٩. الحوار نفسه مع الشيخ الحفصي.

١٠. أعلام الإصلاح:١/٤٢-٤٧ بتصرف.

١١. المصدر نفسه:١/ ٤٦-٤٧.

١٢. حوار مع الشيخ الحفصي جدري والشيخ العيد مطروح، وقد أكّد ذلك المرحوم محمد علي دبوز في كتابه زعماء الإصلاح:١/٣٧-٤٠.

١٣. هي ثورة الطريقة الرحمانية عام ١٨٧١م.

١٤. الشيخ الطيب الحفناوي الرشاشي الزواوي، من قرية الزوي الواقعة بين بلدتي الشريعة وخنشلة، وهي قريبة من أعمال دوار اسطح، وهو شيخ الزاوية الرحمانية بها، ولد قرابة سنة ١٨٥٠م، وتوفي قرابة سنة ١٩٤١م. وكان له الفضل في التربية والتعليم بتلك المنطقة، أحبّه الشيخ العربي، وكان يذكره في دروس القرآن. والحاج ظريف

بوعلي، عديل الشيخ العربي التبسي في المصاهرة، من مواليد سنة ١٩٠٩م. حوار في منزله شهر اكتوبر ١٩٩٤م.

١٥. حوار مع الشيخ الحفصي، تبسة جوان ١٩٩٧م.

١٦. حوار مع الشيخ الحفصي بتبسة شهر ديسمبر ١٩٩٧م. وحوار مع الشيخ محمد الشبوكي، وعيسى سلطاني، والعيد مطروح سنوات ١٩٩٠م، و١٩٩٢م. زعماء الإصلاح في الجزائر:٢/٦٦.

١٧. تضم زاوية خنقة سيدي ناجي عددًا من المساجد والمدارس والمصليات والزوايا، أشهرها الزاوية الناصرية المنسوبة إلى محمد بن ناصر المعروف بابن ناصر الدرعي المتوفي سنة ١٠٨٥هـ، وتشتهر الزاوية الناصرية بجامعها الكبير ومدرستها، التي أشعت على الناحية بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد، وكانت موئل علماء الزاب والصحراء والأوراس وقسنطينة وزواوة وتونس وطرابلس، ومدرستها تحتوي على خمس عشرة غرفة تتسع كل غرفة لنحو عشرة طلاب، ومدرستها بها باحة، وحولها غرف لسكنى الطلاب، وكان الطالب يقرأ فيها القرآن ويبيت فيها أيضًا، وعندما ينضج علميًّا يحضر حلقات الدرس في الجامع المجاور المدعو جامع سيدي مبارك أو الكبير، وتضم المدرسة مرافق عديدة اجتماعية واقتصادية، وكان من طلابها الشيخ المرحوم أحمد السرحاني والعربي التبسي.

١٨. محاضرة مخطوطة لزهير الزاهري،، وحوار شخصي في باتنة بمناسبة ملتقى الرابطة الجزائرية للفكر والثقافة الرابع في شهر أفريل ١٩٩٦م. وقد بقي من زملائه الذين درسوا معه في الزاوية الشيخ بلقاسم بن السنوسي حيًّا سنة ١٩٨٥م.

- لم أجد ترجمة لهذين الشيخين، ويوجد بعض الشيوخ الطاعنين في تبسة من يعرفون عنهما معلومات عامة، عدا بعض المعلومات التي زودني بها عنهما الشيخ (زهير الزاهري) كونهما من أصحاب العلم الشرعي التقليدي، وقد تعلم هو على يديهما في زاوية الليانة العلوم الشرعية والعربية، ولا يعرف سنة ولادتهما ووفاتهما. حوار مع الشيخ زهير الزاهري في ملتقى الشباب والتاريخ الخامس بباتنة شهر أفريل ١٩٩٦م والسادس شهر ماي ١٩٩٧م. ١/٦١-٦٤.

١٩. نسبة إلى الشيخ مصطفى بن محمد (١٢٨٨هـ/١٨٦٦م) شيخ الطريقة الرحمانية بتونس، التي جاءها قاصدًا من بسكرة لنشرها بنفطة بالجريد التونسي. ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين: ٣/٣٧٩.

٢٠. لم أعثر على ترجمة لأي من الشيوخ المذكورين اللهم إلا الشيخ التابعي بن الوادي، الذي اتصلت بصهرنا الشيخ بوعلي طريف زوج ابنته، الذي لم يعطني معلومات ضافية ومدققة عنه إلا كونه عالمًا زاهدًا ورعًا، تقيًّا مجاهدًا وغيرها من الخصال الفاضلة. في حوار معه بمتجره بتبسة نوفمبر ١٩٩٧م.

٢١. حوار مع الشيخ الحفصي بتبسة من شهر جوان سنة ١٩٩٧م.

٢٢. من خلال دفتر شهاداته بالجامع الأعظم المؤرخة سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٤م. عدد ٢٨٤٤.

٢٣. حوار مع الشيخ الحفصي بتبسة شهر جوان ١٩٩٧م. وقد أكد المعلومات نفسها التي قدمها للشيخ محمد علي دبوز في كتابه أعلام الإصلاح: ١/٦١-٦٤.

٢٤. وقد درس العربي التبسي في جامع الزيتونة على يد كبار شيوخه أمثال: الشيخ سالم بوحاجب وعثمان بن الخوجة ومحمد بن يوسف وبلحسن النجار والصادق النيفر والبشير النيفر ومحمد بن القاضي ومحمد بن شعبان والطيب اسيالة، ومعاوية التميمي، ومحمد الطاهر بن عاشور، وعمر بن حمدان المحرشي التونسي المدني، ومحمد الطاهر الشابي، ومحمد وعبد العزيز جعيط، وعثمان بن المكي التوزري، ومحمد النخلي القيرواني، وحمودة بن تاج، وآخرين وهم الذين أجازوه في دفتره العلمي ووقعوا له بالإجازة. ولمعرفة ترجمتهم راجع تراجم المؤلفين التونسيين:ج١ .٢. ٣. ٤، وقد درس الكتب الآتية وناظر فيها وهي:

شرح المنطق.شرح منظومة العوام. شرح الرحبية. شرح الجوهرة. السلم المرونق في علم المنطق. شرح الخلاصة. شرح الحلل. شرح نهج البردة. شرح الشافية. شرح بلوغ المرام. شرح الدرة. شرح القطر. شرح المكودي على الألفية. الموطأ. شرح الكافية. تفسير البيضاوي. شرح سيدي خليل. الحماسة. المقاصد. شرح جمع الجوامع. المقولات الخمس. شرح سيدي خالد. مسند الإمام مسلم. فتح الباري على صحيح البخاري. قطف الثمر الداني. ودرس علوم المنطق والتوحيد والقراءات والفقه والأصول والسيرة والحديث واللغة والأدب والإنشاء والحساب والتاريخ والجغرافيا... إضافة إلى علوم عصره.

٢٥. أحمد باشا، حوار شخصي في بيته ببلدة الكويف شرق تبسة شهر مارس ١٩٩٧م، عن والده الشيخ الطيب بن مبروك باشا المغرسي الزيتوني الرحماني، الأستاذ بالزيتونة ١٩١٧م-١٩١٩م، والقاضي العدل المبرز بالحاضرة التونسية ١٩١٩-١٩٢٣م.

٢٦. الصراع بين السنة والبدعة:٢/١٤-١٣٢.

٢٧. أضواء على تاريخ تونس الحديث:٥، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي:٤٥.

٢٨. ملخصات وثائق الوزارة التونسية الأولى عن نشاط الطلبة الجزائريين بتونس سنوات ١٩١٤ -١٩١٩م.

٢٩. الخلدونية: إحدى المدارس المنشأة بجانب الزيتونة سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م، كانت تدرس العلوم العصرية، يذهب إليها أغلب طلاب الزيتونة لإتمام مالم يدرسوه فيه، وقد أسس أساتذتها جمعية أسموها جمعية الخلدونية، لعبت دورًا فكريًّا وتثقيفيًّا هامًا. ينظر: الحركة الأدبية والفكرية في تونس:٧٠، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح بجامع الزيتونة:٢٤.

٣٠. الصادقيّة: أنشئت المدرسة الصادقية سنة ١٨٧٤م/١٢٩١هـ لتتخصص في تدريس العلوم والمعارف العصرية، إضافة إلى اللغات الأجنبية، وقد لعبت الدور نفسه الذي لعبته الخلدونية في تخريج عدد من المثقفين التونسيين ذوي الاتجاه الغربي. ينظرأليس الصبح بقريب: ١١٤. وقد كان الشيخ محمد الغزالي في كلمته التي ألقاها في ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين بتبسة شهر أوت ١٩٨٩م قد أشار إلى ألمعيّة وتوفق الشيخ العربي التبسي في جامع الأزهر مما جعله مضرب مثل لكل الشيوخ.

٣١. حوار مع الشيخ الحفصي بتبسة جوان ١٩٩٧م. وحوار مع الشيخ العيد مطروح في مارس ١٩٩٣م.

٣٢. أعداد مجلة المنار ومجلة الأزهر، والرسالة التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات، وأعداد من مجلة الصادقية والزيتونة التونسية... وغيرها المهداة للشيخ العربي التبسي، لا تزال في أرشيف المكتبة.

٣٣. مساجلات الشيخ العربي مع أبنائه وبناته وأصدقائه وتلامذته ومحبيه.. المذكورين في الهوامش السالفة.

٣٤. لمعرفة المزيد من سيرة وترجمة هؤلاء الشيوخ المذكورين وغيرهم من شيوخ الأزهرراجع: الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، الطلبة الجزائريون في الأزهر عام ١٩١٦م، مجلة الثقافة الجزائرية ع٧٩/١٤٠٤هـ-١٩٨٤م/١١٩.

٣٥. درس العربي: الموافقات والاعتصام للشاطبي، ومفتاح العلوم للسكاكي، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة للجرجاني، والكشاف للزمخشري، ومقدمة ابن الصلاح، وشرح الزرقاني على الموطأ، وحاشية الصاوي على الجلالين، وتحفة الأحوذي على صحيح الترمذي، وفتح الباري للعسقلاني، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وغيرها من أمهات العلوم الدينيّة والعربية، وقد اصطحب هذه الكتب لما عاد إلى الجزائر معه وهي موجودة في مكتبته، وعلى الكثير منها تعاليقه بخط يده، عدا المسروقة والمحجوزة والمصادرة في مراكز أرشيف الإدارة الاستعمارية.

٣٦. راجع جريدة الشهاب/س٢/ ع٨٢/١٤.

٣٧. تعرض الشيخ ابن باديس لاعتداء صارخ عليه من قبل أحد مريدي الطريقة العليوية بمدينة قسنطينة/ راجع: جريدة الشهاب/ع٧٦/ ١٩٢٦م.

٣٨. حوار مع أبنائه وبناته وأخيه الشيخ الحفصي في تبسة شهر أوت ١٩٩٧م.

٣٩. حوار مع الشيخ الحفصي بتبسة شهر أوت ١٩٩٧م.

٤٠. لم أعثر له على مقالة في الصحف المصرية غير أنّ الدكتور (أحمد مورد) مستشار وزير الشؤون الدينيّة السابق (أحمد مراني) كان قد أخبرني بأنه رأى في مصر بمكتبة الأزهر مقالات منشورة للشيخ العربي التبسي في صحف المقطم واللواء والمؤيد المصرية، ووعدني بمنحي نسخًا عنها ولما يفعل إلى الآن، ولعلّه يفعل بإذن الله، ولعلها هي التي نشرها في جريدتي النجاح والشهاب.

٤١. حوار مع أهل الشيخ وقد شاهدوا اللعين (ريمون لاقايار) ليلة إلقاء القبض عليه ١٩٥٧/٤/٤م، ٤/ رمضان ١٣٧٥هـ يحمل حقيبة الشيخ الجلدية البنية اللون التي كان بها شهاداته وأوراقه الثبوتية كلّها، والتي كان أهل تلمسان قد أهدوها له بمناسبة زيارته لها وتدشينه دار الحديث سنة ١٩٣٧م، وهي الآن موجودة في مركز أرشيف (إكس إن برفنس الفرنسي) .

٤٢. راجع سيرة رسول الله ﷺ في كتب السيرة لابن هشام وابن كثير والسيرة الحلبية وغيرها.

٤٣. راجع مثلاً: سير أعلام النبلاء للذهبي. البداية والنهاية

لابن كثير. وفيات الأعيان لابن خلكان. فوات الوفيات للكتبي. بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم. تاريخ الكامل لابن الأثير، تاريخ الطبري، ففيها ترجمات وافية لأعلام الرجال.

٤٤. وذلك من خلال وصف أبنائه وبناته وتلامذته ومحبيه وأصدقائه العديدين المذكورين في هوامش الدراسة والآثار، وبالنسبة إلى ابنه عبد الحميد فقد كان من أواسط أبناء الشيخ، وتقلب في المناصب العسكرية بعد الاستقلال، وكان من كبار قادة جهاز المخابرات الجزائرية إلى أن توفي رحمه الله سنة ١٩٩٣م. ومن خلال حوار مع الحاجة يمينة ابنة الشيخ بمنزلها بتبسة شهر سبتمبر ١٩٩٧م.

٤٥. حدثتني الحاجة يمينة في منزلها شهر سبتمبر ١٩٩٧م، أن والدها كان شديد التأثر من هذا الصنف الخياني، وذكرت لي بعض الأسماء للمندسين والمنافقين والمتملقين من الخونة وأعوان الاستعمار، الذين كانوا ينقلون أخبار وتحركات الشيخ إلى أجهزة الأمن الاستعمارية، وسمتهم لي بأسمائهم؟.. وأن الشيخ رحمه الله كان عالمًا بهم، ولكنه لا يستطيع فعل أي شيء ضدهم بل كان يرجئ أمرهم لله، ويقول إنني أفعل ذلك أسوة بما فعله رسول الله ﷺ مع المنافقين. وقد بينت تقارير الإدارة الاستعمارية الفرنسية الأمنية عن بعض أولئك المندسين الموجودين في قسم الآثار، فصل التقارير السريّة. ولن نذكر أسماءهم نظرًا لعدم استيفاء الأجل القانوني فيما له صلة بحقوق الكشف عن وثائق الأرشيف المتعلقة بحياة وسمعة الأشخاص، والمقدّر بستين سنة من تاريخ وفاتهم، نظرًا لما يسببه ذلك الكشف لهم من ضرر معنوي.

٤٦. لمزيد من التوسع عن بيئة وتضاريس ومناخ المنطقة انظر الدراسات الجغرافية الموسّعة حول مناخ وتضاريس الجزائر.

٤٧. وهذا حال جميع الثورات والحركات التجديدية والانتفاضات الثوريّة في العالم الإسلامي عامة وفي الجزائر خاصة .

٤٨. الروم: ٣٠.

٤٩. من أبرز رجال الجمعية.

٥٠. حديث مع الشيخ والأستاذ والقاضي والمحامي محمد مراوي البسكري مدير مدرسة تهذيب البنين والبنات ببسكرة سنوات ١٩٥٠-١٩٥٥م. حوار بالمركز الثقافي الإسلامي بمدينة بسكرة يوم ٨ رمضان ١٤١٨هـ ٦ جانفي ١٩٩٨م.

٥١. محمد الميلي صهر الشيخ وزوج ابنته زينب، محاضرة مخطوطة ألقيت في مهرجان الشيخ بتبسة يوم ٤أفريل ١٩٨٥: ١٩.

٥٢. سنتناول موقف الشيخ من الاستعمار، وموقفه من الثورة، وموقفه من المفاوضات مع القادة الاستعماريين . ومن زميليه محمد خير الدين وأحمد توفيق المدني وغيرهما.

٥٣. الأنعام:١٥٣.

٥٤. مرجع سابق: ٨٠.

٥٥. سبقت الترجمة لهؤلاء الشيوخ، وقد أدركت لفيفًا من الشيوخ الكبار ممن عاصر الشيخ وحواراته في أدق المسائل عن وضع تبسة الثقافي والفكري قبيل وبعيد عودة الشيخ إليها. وسيرد الكثير من حواراتهم لاحقًا في المباحث القادمة إن شاء الله.

٥٦. يروي الشيخ الحفصي: أن الشيخ العربي لما عاد من مصر اتصل من فوره بالشيخ ابن باديس في قسنطينة، وتحادث معه مطولاً، وقد سأله الشيخ الحفصي ذات مرّة عن سبب اشتغاله بالتجارة، وعدم طلبه للوظيف الاستعماري، فأجابه بأنها نصيحة الشيخ ابن باديس، وقد أشارت الشهاب إلى ذلك وامتدحته، وقد اشرنا إلى ذلك في الملحق، ثم إنّ تقارير الإدارة الاستعمارية الأمنيّة الفرنسية نعته في أحد تقاريرها البوليسية بأنه تاجر بتبسة له اتجاه إصلاحي.

تقرير بوليسي صادر عن أمن قسنطينة مؤرخ في ١٩٣٢/٣/١٥م.

٥٧. ابن باديس وآثاره:١٢-٦٨.

٥٨. الشيخ محمد الصالح جلالي: من مواليد تبسة سنة ١٨٨٨م، من أسرة تبسيّة تعاونت مع الاستعمار، وأثرت خلال الحقبة الاستعمارية كان إمامًا للجامع العتيق من طرف الإدارة الاستعمارية إلى قبيل الاستقلال. توفي سنة ١٩٦١م.

٥٩. أعلام الإصلاح: ١٧/٢، ٢٢، مذكرات شاهد القرن:١٠٠. حوار مع أهل المدينة المسنين من رواد الحلقات. وحوار مع ابن الشيخ الصادق فتحي.

٦٠. حوار مع الشيخ الحفصي بمنزله شهر سبتمبر

العلامة الشهيد المجهول القبر الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الجزائري الزيتوني الأزهري

١٩٩٧والشيخ العيد مطروح بمنزله بتبسة شهر سبتمبر١٩٩٢م. وحوار مع الشيخ محمد الشبوكي على هامش ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين المنعقد بتبسة شهر أوت ١٩٨٩م.

٦١. مذكرات شاهد القرن:١٨٩.

٦٢. أعلام الإصلاح:٢/٢٧، ٢٨، ٢٩بتصرف.

٦٣. الصادق بوذراع: تاجر بمدينة تبسة، ومن أعيانها، ومن معيني الإصلاح، ولد سنة ١٨٨٨م. وتوفي سنة ١٩٦٥م، كان ذراع الشيخ العربي التبسي في نشاطاته الإصلاحية كلّها. وحواس بن إسماعيل: تاجر من تبسة ومن أعيانها، ومن معيني الإصلاح، ولد سنة ١٨٨٠، وتوفي سنة ١٩٤٢م بوباء الطاعون الشهير الذي أصابها. كان ذراع الشيخ العربي التبسي في نشاطاته الإصلاحية كلها.ومحمد رسول: تاجر، ومن معيني الإصلاح في تبسة ترأس جمعيتها الخيرية إلى أن توفي سنة ١٩٥٩م. وعبد الحفيظ مسقلجي: تاجر، ومن معيني الإصلاح بتبسة، وكان أمين مالية الجمعية الخيرية بتبسة، توفي سنة ١٩٨٤م. وكان معهم أيضًا من أهل تبسة السادة مصطفى ميدة ومحمد بن مهرة، غير أننا لا نملك ترجمة عنهما، كما أخبرني بذلك الشيخ إبراهيم مزهودي في حوار بمنزله بقرية الحمامات بتبسة شهر جوان ١٩٩٣م.

٦٤. أعلام الإصلاح:٢/٢٣، ٢٤، ٢٥بتصرف. حوار مع أبناء الشيوخ السيد الشاذلي ابن الشيخ عبد العزيز حواس، والسيد رشيد بوذراع ابن الشيخ الصادق بوذراع، والسيد نور الدين ابن الشيخ عبد الحفيظ مسقلجي، والسيد عبد الحفيظ ابن الشيخ محمد رسول بتبسة شهر سبتمبر١٩٩٧م. حوار مع الشيخ عيسى سلطاني بمتجره بتبسة سنوات ١٩٨٧م، ١٩٨٩م، ١٩٩٠م.

٦٥. حوار مع الشيخ العيد مطروح بمنزله شهر أوت ١٩٩١م. حوار مع الحاج بوعلي ظريف شهر أكتوبر ١٩٩٧م، كما يروي والدي محمود عيساوي رحمه الله أنه ساهم مع كثير من صبيان مدينة تبسة في بناء المسجد، وهو طفل في الثانية عشرة من عمره.

٦٦. مذكرات شاهد القرن:٢٦٢.

٦٧. الأستاذ محمد الحسن فضلاء من الذين درسوا في المدرسة ثم درسوا فيها بعد ذلك.

٦٨. الشيخ فرحات بن الدراجي: ١٩٠٦-١٩٥١م: ولد بالقرب من بسكرة، وتعلم في زواياها وكتاتيبها، ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة فتعلم على يد الشيخ ابن باديس، ومنها إلى جامع الزيتونة، حيث أتمّ دراسته، ليعود مشتغلاً بالتدريس، وليعين مديرا ومدرسًا لمدرسة سيق بعد رحيل الشيخ العربي عنها سنة ١٩٣٣م، وظل بها مديرًا ومعلما إلى وفاته ١٩٥١م.

٦٩. أهل سيق وذكرى الشيخ، جريدة الخبر،عدد يوم ٦/٨/ ١٩٩٣: ١١.

٧٠. أعلام الإصلاح: ٢/٣١-٣٣ بتصرف.

٧١. في قسم الصور الفوتوغرافية صورة لجميع معلمي مدرسة التهذيب قبيل غلقها واعتقال أعضائها، وسنترجم لهم إن شاء الله، وهم: محمد السحيري، سعد الله مبروك، مصطفى الزمرلي، حامد روابحية، إبراهيم روابحية، محمد الشبوكي، العيد مطروح، عيسى سلطاني، الطيب قواسمية، الحفصي جدري، علية معمر.

٧٢. قرار الغلق الصادر عن الإدارة الاستعمارية الفرنسية.

٧٣. إعلان عن دروس التفسير للطلاب الملحق فصل الإعلانات. تقرير بوليسي صادر عن أمن قسنطينة شهر نوفمبر ١٩٤٠م، أرشيف ولاية قسنطينة، الملحق، فصل التقارير الأمنية.

٧٤. المعهد والمدارس، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السلسلة الثالثة، ع٩٢/س١٩٤٩م/ ١.

٧٥. المصدر نفسه:١.بتصرف.

٧٦. حوار مع الشيخ الحفصي بمنزله بتبسة شهر ستمبر ١٩٩٧م. وحوار مع الحاجة يمينة بتبسة شهر سبتمبر ١٩٩٧م. حوار مع أحد تلامذة المعهد الأستاذ العربي عثمان بتبسة شهر فيفري ١٩٩٨.

٧٧. العربي التبسي، ما يجب أن يكون عليه المعهد في السنة الآتية ونصيب الأمة في تهيئة ذلك الواجب، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثانية، ع٩٠/س١٩٤٩/٢

٧٨. المصدر نفسه/٢، وهو موجود في قسم الآثار الذي جمعناه:١٠٧.

٧٩. القانون الأساسي لمعهد عبد الحميد بن باديس، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثانيةع ٩٠/١٣٦٨هـ: ١-١٣.

٨٠. رحلتي إلى الأقطار الإسلامية، جريدة البصائر، السلسلة الثانية السنة الخامسة، ع١٩٧١٣٧١هـ/١.

٨١. المذكرات: ١/٨٣.حياة كفاح:١/١١٤.

٨٢. جريدة الشهاب/ع١٧٠/س١٩٢٨: ١٧.

٨٣. المصدر نفسه :١٧.

٨٤. الشهاب ع ١٧٠: ١٧، المذكرات:١/ ٨٣- ١٢٢.

٨٥. المذكرات: ١/ ٨٥ و٨٦ بتصرف.

٨٦. حوار مع الشيخ الحفصي بتبسة شهر سبتمبر ١٩٩٧، وحوار مع الحاج بوعلي ظريف بتبسة اكتوبر ١٩٩٧م، وحوار مع الحاجة يمينة بتبسة شهر سبتمبر ١٩٩٧م، وحوار مع الشيخ العيد مطروح بمنزله بتبسة شهر جوان ١٩٩١م.

٨٧. الجلسة التمهيدية لجمعية العلماء، مجلة الشهاب:ج٦ / مج ٧/س ١٩٣١م/٣٤١.

٨٨. حوار مع الشيخ العيد والشيخ عيسى سلطاني بالقرب من منزلهما بتبسة شهر جوان١٩٩١م.

٨٩. راجع: المذكرات:١/١١٢-١٢٠.

٩٠. المذكرات: ١/ ١١١ -١١٩.

٩١. اجتماع الجمعية جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الأولى ، ع٣٧، س١٩٣٦: ١، ٥، ٨. نشرة سرية صادرة عن القيادة والأركان الفرنسية/ في اكتوبر١٩٣٦م، ١/٥، ب.

٩٢. تقارير الأمن الفرنسي، نوفمبر ١٩٣٧م.

٩٣. انتخاب أعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة البصائر، السلسلة الأولى/ السنة الثالثة، ع١٣٥/س١٩٣٨: ٢.

٩٤. جريدة البصائر، السلسلة الأولى/ السنة الثالثة، ع١٥٦/س١٩٣٩: ٢، الصراع بين السنة والبدعة: ٢/ ٢٦٤.

٩٥. تقرير أكتوبر:١٩٤٦م، ٥، ١، أ.

٩٦. هذا ما يفسر توقعه باسم نائب الرئيس على الوثائق الرسمية الصادرة عن الجمعية في هذه المدة بعد اعتقال الإبراهيمي.

٩٧. تقرير جوان، ١٩٤٣م، ٥، ٤، س، وتقرير ديسمبر ١٩٤٥، ٥، ١، أ.

٩٨. تقرير جويليه، ١٩٤٤، ٥، ١، أ.

٩٩. إعلان انتقال دروس التفسير من مدينة قسنطينة إلى تبسة الأول بتاريخ ١٩٤١/١٠/٦، حيث أشير إليه بالكاتب العام للجمعية، وكذلك الإعلان الثاني سنة ١٩٤٢م.

١٠٠. كراسة المطالب وغيرها من الوثائق موجودة أصلاً في قسم الملحق وقسم المستنسخات عدلنا عنها هنا في الملخص.

١٠١. تقرير مارس، أفريل ١٩٥٢م، ٥، ٥ ، أ.

١٠٢. راجع محضر وبيان الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بقسنطينة أيام الأحد والاثنين والثلاثاء ١٩٥١، التي ظلت معتمدة إلى غاية حل الجمعية ١٩٥٦م، وقررت تعديل قانونها الأساسي في عقد دوراته العادية، التي كانت مرة كل سنة لتصبح مرة كل ثلاث سنوات. انظر تقارير الإدارة الاستعمارية التي غطت نشاط الشيخ في هذه المرحلة.

١٠٣. رحلتي إلى الأقطار الإسلامية، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الخامسة، ع١٩٧، ١٩٥٢: ١.

١٠٤. البيان التاريخي، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة التاسعة ١٩٥٦م: ١، وقد تضمن البيان التاريخي ديباجة تمهيدية شارحة لوضع الجزائر مذ وطئتها أقدام الاستعمار الفرنسي، وقد حمل الشيخ العربي باسم الحاضرين الإدارة الاستعمارية كل ما حلّ بالشعب الجزائري.

١٠٥. أجرينا سلسلة من الحوارات مع مجاهدين قياديين من المنطقتين الخامسة والسادسة في الولاية التاريخية الأولى أوراس النمامشة أيام ملتقى التاريخ الوطني وبناء المجتمع بمدينة تبسة، الذي نظمته نظارة الشؤون الدينيّة بتبسة بالتعاون مع مديرية ومنظمة المجاهدين ١٩٩٧م، كما أجرينا أيضا حوارات أيام ملتقى الثورة في المناطق الحدودية بتبسة أيام ١٨/١٩/١٢/١٩٩٧م مع مجاهدين قياديين شهدوا تلك الأحداث.

١٠٦. أجرينا سلسلة من الحوارات مع مجاهدي المنطقة.

١٠٧. راجع فصل حياته وعوامل نبوغه ونشأته.

١٠٨. أجرينا سلسلة من الحوارات مع مجاهدي المنطقة (تبسة) ونقلوا الكثير من هذه الشهادات.

١٠٩. حوار مع السيد (الوري قتال) أحد قادة الكتائب في معركة الجرف الشهيرة ١٩٥٥/٩/٢٢م بتبسة.

١١٠. يروي السيد الوردي قتال - وقد كان طالبًا بالمعهد الباديسي قبل ١٩٥٥- أن السيد محمد الربعي يونس ابن أخت الشيخ العربي هو الذي نقل رسالة الشيخ المتضمنة فتواه إلى المجاهد شريط لزهر.

١١١. سنعرض لفتواه تلك في مبحث الفتاوي. ولد سنة ١٩١٤

بعرش الجدور، وتربى فلاحًا وراعيًا، شارك في الثورة الفلسطينية والتونسية والمصرية، وكان قائدًا من قواد الثورة التحريرية. أُعدم من قبل التيار الفرنكوفوني سنة ١٩٥٨م.

١١٢. حوار مع الشيخ العيد مطروح بن أحمد والشيخ عيسى سلطاني بمنزلهما بتبسة شهر جوان ١٩٩٢م. هنا يموت قاسي مثل جزائري وقبائلي، ومعنى قاسي اسم علم يطلق عادة في بلاد القبائل على الكثير من الرجال كإطلاق عموم الجزائريين اسم العربي أو محمد، ونظرًا لبيئة القبائل الجبلية القاسية سموا قاسي، والمثل يقال في مواضع الصمود.

١١٣. العربي التبسي والنهضة العلمية بالجزائر، مجلة الأصالة، /س٢/ع٨/١٩٧٢: ٢٧١.

١١٤. روبير لاكوست: سياسي فرنسي شهير، اشتغل بالعمل السياسي، وكان أشهر دعاة الجزائر فرنسية حتى الرمق الأخير من وجوده على رأس الولاية العامة بالجزائر، وحاول مرارًا أن يدخل الشيخ العربي في مفاوضات باسم الشعب الجزائري ليشق صفه، ويضيع الفرصة على جبهة التحرير في قيادة الشعب، والجلوس مع المستعمر، على طاولة المفاوضات. وقد أخبرتني ابنة الشيخ بأن لاكوست له يد في مقتل الشيخ.

١١٥. الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر:١٥٧، ١٥٨.

١١٦. استراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى ١٩٥٤-١٩٥٦، : ٣٠٢- ٣٠٥.

١١٧. بلاغ جمعية العلماء في قضية اعتقال الشيخ العربي التبسي ، مجلة الأصالة ، س٩/ع٧٣، ٧٤/:١٠٢.

١١٨. المرجع نفسه: ١٠٣، بتصرف.

١١٩. لنا عودة لهذه القضايا عندما نتناول منهجه التغييري وإصلاحه السياسي والثوري.

١٢٠. حول استشهاد العقيدين سي الحواس وعميروش، ينظر جريدة المساء، ع٢٦٢٦/ ١٩٩٤/٢، وحوارات مع مجاهدي تبسة.

١٢١. في مذكرات مجاهدي المنطقة (الرائد أحمد الزمولي)، و(العقيد الوردي قتال) وغيرهم التي ستصدر قريبًا الكثير من الحقائق الخفيّة التي ستقلب الأباطيل الشائعة في كتب التاريخ.

١٢٢. تشير التقارير الاستعمارية الرسمية أن الثورة الجزائرية حسمت أمرها بالانتصار في نهاية ١٩٥٦م، وتوصلت الدراسات الفرنسية إلى ذلك بعد الضربات القويّة التي وجهها ثوار الولاية التاريخيّة الأولى أوراس النمامشة إلى الجيش الفرنسي سنوات ١٩٥٤- ١٩٥٦م، وأدركت فرنسا أنّ لا مناص من التفاوض مع الثوار، ولكن لا بد من إيجاد بديل متأغرب، يمكن التعامل والتفاوض معه، ولذا صار لزامًا التخلص من كل رموز التيار العربي الإسلامي، وتقديم قيادة بديلة تمثلت في تسربات ١٩/٥/١٦٥٦م، من متقاعدي الجيش الفرنسي من الجزائريين. ملتقى الثورة التحريرية، متحف الجهاد، الجزائر، ١/١/٣/١١/١٩٩٧م، وتصريحات قادة الثورة، الوردي قتال وغيره... وملتقى تبسة، الثورة في المناطق الحدودية، تبسة أيام ١٨/١٩/١٢/١٩٩٧، وملتقى التاريخ الوطني وبناء المجتمع، تبسة، أيام ٥/٦/٧/٧/١٩٩٧م.

١٢٣. مواثيق الثورة التحريرية المعروفة، بيان أول نوفمبر، ١٩٥٤، وبيان مؤتمر الصومام ١٩٥٦، ومقررات ما يسمى بمؤتمر طرابلس ١٩٦٢، ودستور الجزائر ١٩٦٣، وميثاق الجزائر ١٩٦٤م.

١٢٤. أنكر لاقايارد، كما أنكر الجنرال ديغول لمحمد الأمين ابن الشيخ الأكبر عند مقابلته لهما، وقد يكون سبب إنكار لاقايارد والرئيس من باب الإيقاع، وهو احتمال مرجوح في ضوء تصريحات مجاهدي المنطقة، وحوار مع الحاجة يمينة.

١٢٥. ليس مقام مناقشتها.

١٢٦. حوار مع الحاجة يمينة ابنة الشيخ العربي الكبرى بمنزلها بتبسة شهر سبتمبر ١٩٩٧م.

١٢٧. المهدي بن بركة: معارض مغربي من حزب الاستقلال، تورط جهاز المخابرات المغربي باغتياله بالتعاون مع جهاز المخابرات الفرنسية يوم ٢٩/١٠/١٩٦٥م.

١٢٨. فرحات حشاد: الزعيم النقابي التونسي الشهير الذي تورط الرئيس الحبيب بورقيبة باغتياله في ظروف غامضة في تونس، وصالح بن يوسف: الزعيم السياسي التونسي المنافس لبورقيبة الذي تورط باغتياله في ظروف غامضة.

١٢٩. محمد الأمين العمودي:١٣.

١٣٠. الصراع بين السنة والبدعة:٢/٢٧٤- ٢٧٥.

١٣١. بلاغ من جمعية العلماء في قضية اعتقال الأستاذ الشيخ

مقالات

العربي التبسي، مجلة الأصالة، ع ٧٣، ٧٤ / ٨٨-١٠٩.

١٣٢. أعلام الإصلاح في الجزائر:٢/٦٤.

١٣٣. الرائد سي أحمد الزمولي: من مواليد تبسة سنة ١٩٣٧م، تعلم في مدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة، التي كان يديرها الشيخ العربي التبسي. ثم انتقل للتعلم في مدرسة وزاوية قلعة سنان التونسية سنوات ١٩٥٠-١٩٥٤. إلى أن التحق بصفوف الثورة يوم ١٩٥٤/١١/٢٣م. وصار كاتبًا للقائد شريط لزهر ولنائبه القائد محمد بن علي. تقلب في مناصب قياديّة في أثناء الثورة وبعدها، وهو الآن يشتغل بالمحاماة.

١٣٤. ويؤكد هذه الرواية الشيخ (محمد بن عمران العبيدي) المجاهد الذي يذكر أنّ والده وأعمامه وشيوخ الزاوية الرحمانية قد اختفوا يوم ١٧/ ٤/ ١٩٥٧م ١٧/رمضان/ ١٣٧٧هـ. وأخذوا من الزاوية بلباسهم الإسلامي واختفوا من يومها. حوار مع الشيخ محمد بن عمران العبيدي بمناسبة ملتقى التاريخ والمجتمع بتبسة أيام ٥ و٧ جويلية ١٩٩٧م.

١٣٥. أجريت الحوار الأول مع الأستاذ أحمد الزمولي يوم ١٩٩٧/٧/٧م بمدينة تبسة بنظارة الشؤون الدينيّة بمناسبة انعقاد ملتقى التاريخ الوطني، وبناء المجتمع بتبسة. ثم صارت تربطني صلة بالسيد أحمد الزمولي المحامي.

١٣٦. حوار مع الحاجة يمينة ابنة الشيخ الكبرى وأخيها محمد الأمين بمنزلها بتبسة شهر سبتمبر١٩٩٧م.

١٣٧. المصدر نفسه.

المصادر والمراجع

- **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، للدكتور أبو القاسم سعد الله، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- **ابن باديس وعروبة الجزائر**، لمحمد الميلي، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م.
- **الإتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية**، ليحيى بوعزيز، ط١، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٧م.
- **الأزهر وأثره في النهضة الأدبيّة الحديثة**، لمحمد كامل الفقي، ط٢، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
- **أضواء على تاريخ تونس الحديث**، للبشير بن الحاج عثمان الشريف، ط١، دار بوسلامة للطباعة، تونس.
- **أليس الصبح بقريب**، لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط٢، ١٤٠٨هـ.
- **تجارب في الأدب والرحلة**، للدكتور أبو القاسم سعد الله، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣م.
- **التعليم وحركة الإصلاح بجامع الزيتونة**، للطاهر الحداد، ط١، الدار التونسية للنشر، ١٩٨١م.
- **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**، لعبد الكريم أبو الصفصاف، ط١، مطبعة متحف الجهاد، الجزائر، ١٩٩٢م.
- **الحركة الأدبيّة والفكرية في تونس**، لمحمد الفاضل ابن عاشور، ط٣، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣م.
- **الحركة الوطنية الجزائرية**، لأبي القاسم سعد الله، ط١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٠م.
- **حزب الشعب الجزائري**، لأحمد الخطيب، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م.
- **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، لجمال قنان، المتحف الوطني للمجاهدين، الجزائر، ١٩٩٤م.
- **كتاب عيون الاستبصار**، لمجهول، تح. إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- **مظاهر المقاومة الجزائرية ١٨٣٠-١٩٥٤م**، لمحمد الطيب العلوي، المتحف الوطني للمجاهدين، الجزائر.
- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- **المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي**، لشارل أندريه جوليان، تع. محمد مزالي والبشير بن سلامة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

الإبداع العلمي والتقني في وقاية النبات ومكافحة الآفات في التراث الإسلامي

د. عماد محمد ذياب الحفيّظ
جامعة بغداد / العراق

لقد كان سائدًا، ولردح طويل من الزمن، عند الكثير من المؤرخين أنّ هنالك فجوة كبيرة بين حضارة الإغريق والحضارة الحديثة، متجاهلين في ذلك، أو متناسين، دور العرب والمسلمين في العلم والتطور، بل إنّ بعضهم وصفهم بأنّهم رجال طوائف وفرق دينيّة.

في حين أنّ العرب والمسلمين في الحقيقة أغنوا المكتبة العلمية بتراجمهم ومؤلفاتهم في العلوم المتعددة ومنها العلوم الزراعية، حيث ازداد اهتمامهم بالزرع وآفاته مع بداية القرن الثاني للهجرة.

لقد عرف العرب والمسلمون عمليات الإنتاج الزراعي المتنوعة، ويستدل على ذلك من تعريف ابن خلدون صنعة الفلاحة في مقدمته، فيقول: هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على آثار الأرض لها وازدراعها وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية؛ لبلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبّة من غلافه، وإحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه ودواعيه.

وإنّ العلم الحديث قد توسّع كثيرا في مفهوم وقاية النبات ومكافحة الآفات، فشمل علومًا متنوعة كعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الكيمياء

وغيرها من العلوم المرتبطة أساسًا بعلوم وقاية المزروعات الأخرى في عصرنا الحاضر.

إضافة إلى تزايد أهميتها وتشعبها من حيث ارتباطها ببعض الدراسات الطبية والبيئية والاجتماعية والاقتصادية، وصيانة الطبيعة في الحصول على منافعها وتجنب مضارها، فلا يزال يوجد توافق بين المفهوم القديم والمفهوم الحديث لوقاية المزروعات من الناحية العلميّة والتطبيقيّة، بل إنّ مفهوم العلماء العرب والمسلمين للفلاحة وعلاج نباتها كانت تطبيقية بحتة، في حين أنّ المفهوم العلمي الحديث هو نظرة علميّة صرفة، يغلب عليها الجانب النظري في الكثير من المجالات. في دراستي هذه سأتحدث عن مؤلفات العرب والمسلمين في مجال وقاية النبات ومكافحة الآفات وغيرها من المؤلفات ذات الاهتمامات المتنوعة العلميّة والأدبية، إضافة إلى الأسس التي استخدموها في وصف المظهر الخارجي للآفة الزراعية، والضرر الذي تحدثه، والوسائل التي استخدموها للتخلص من الآفات، أو الوقاية من أضرارها ومكافحتها.

وصف الآفات الزراعية وأضرارها:

لقد عرف العرب والمسلمون الآفات الزراعية منذ آلاف السنين في أرض اليمن[1]، كما يشاهد أشكال بعض الآفات الحشرية كالجراد والجعلان في آثار البابليين والفراعنة، وعرفت الآفات الزراعية في الكتب السماوية، فقد ذكر الجراد ودابة الأرض (أي الأرضة) والنمل وغيرها في القرآن الكريم، وكذلك ما ورد في السنّة النبويّة، وفي عهد الخلفاء الراشدين، حيث كانوا يعفون المزارعين من دفع الخراج إذا تعرّضت محاصيلهم للآفات الزراعية[2].

ثم ازداد اهتمام العرب والمسلمين بالزرع وآفاته مع بداية نشوء الدولة العباسية، وبخاصة في البصرة وبغداد، ويستدل على ذلك من خلال المؤلفات التي كتبها العرب والمسلمون في تلك المدة مثل كتاب الحيوان للجاحظ، وكتاب الجراد لأبي الحسن الأخفش، وكتاب الزرع لأبي عبيدة البصري وغيرهم.

لقد تعرّف العرب والمسلمون على العديد من مجاميع الآفات الزراعية الحشرية والعنكبوتية والحيوانية والنباتية والمرضية (أي التي تسببها مسببات كالفطريات أو غيرها).

فقالوا: فأما خلق البعوضة والنملة والفراشة والذّرة والذّبان والجعلان واليعاسيب والجراد، فإياك أن تتهاون بشأن هذا الجند[3]. أجل كانوا يعدون هذه الآفات وغيرها أنها تُرسل عقابًا من الله (عز وجل) للبشر لما اقترفوه من سوء الأعمال.

كما وصفوا أضرار هذه الآفات كالأرضة، فقيل: دويبة صغيرة تأكل الخشب والورق، وإذا أتى عليها سنة نبت لها جناحان طويلان، والنمل عدوّها[4]. علمًا أنّ العلم الحديث يؤكد أنّ للأفراد التكاثرية من أفراد حشرة الأرضة ذات أجنحة طويلة عددها أربعة أجنحة، وأفراد أخرى ليس لها أجنحة؛ أي عديمة الأجنحة، وأنّ أنواع حشرة الأرضة تعود إلى رتبة تعرف باسم رتبة متساوية الأجنحة، وأنّ الأرضة تتغذى على المواد التي تحتوي على السليلوز كالأخشاب والكتب وغيرها من المواد ذات الأصل النباتي. أما عدد أنواع حشرة الأرضة المعروفة حتى يومنا الحاضر فيبلغ نحو ١٧٠٠ نوع تنتظم في ٧٠ جنسًا في أنحاء العالم[5].

كما وصف العرب والمسلمون مجاميع أخرى من الحشرات الزراعيّة، فعرفوا أنّ لها ستة أرجل؛ أي

الإبداع العلمي والتقني في وقاية النبات ومكافحة الآفات في التراث الإسلامي

إنهم سبقوا العالم الأوربي لينيزس (الذي يعد اليوم أبا علم التصنيف الحيواني الحديث) عندما صنّف مجاميع الحشرات على أساس أنها ذوات ستة الأرجل.

كما وصف العرب والمسلمون الحشرات بشكل قريب من الدّقة العلميّة الحديثة، وإن اختلفت بعض المسمّيات المستخدمة في ذلك الوقت عن الزمن الحالي، فقالوا عن الجراد: له ستة أرجل وأطراف أرجله كالمنشار[٦]، وقالوا: هو صنفان[٧]، أحد الصنفين يطير في الهواء،ويقال له الفارس[٨]، والآخر ينزو نزوانا، ويقال له الراجل[٩]، فإذا رعت أيام الربيع أرضًا طيبة التربة رخوة[١٠]، ونزلت هناك وحفرت بأذنابها[١١] فيها حفرًا وباضت فيها وأتت أيام الربيع واعتدل الزمان يفقس ذلك البيض المدفون، ويظهر مثل الذباب الصغير[١٢] على وجه الأرض، وأكلت زرعها حتى قويت ثم تنهض[١٣] إلى أرض أخرى وباضت، وكما فعلت عامها الأول، وهكذا دأبها وآفاتها الطيور والبرد[١٤].

وهذا وصف مبسّط لأفراد الجراد وتأريخ حياتها، وأغلب الظن أنّ هذا الوصف يُقصد به الجراد الصحراوي الذي كان معروفًا في زمانهم كآفة خطيرة جدًا، علمًا أن البابليين ذكروه في نقوشهم أيضًا. كما وصف العرب والمسلمون اليرقات والفراشات (أي الأطوار الكاملة وغير الكاملة) وتأريخ حياتها، فقالوا:

الأساريع دود بيض صغار، وهي مزينة من صفرة وحمرة وخضرة وكل لون، ولها قوائم قصار... والأسروع يسلخ، فيصير فراشة عند الربيع[١٥]. وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها، فالطور اليرقي أي اليرقات (الأساريع) تمر بعدة انسلاخات لتصبح بعد ذلك فراشة أي حشرة بالغة بعد أن تمر بطور العذراء.

لقد وصف العرب والمسلمون أيضًا مجاميع أخرى من الحشرات كالخنافس ولا تزال هذه التسميات تطلق على بعض مجاميع الحشرات في يومنا الحاضر: فقيل: الذبان ضروب (أي أجناس وأنواع) سوى ما ذكرناه من الفراش والنحل والدبابير[١٦]. أي إنّ العلماء العرب والمسلمين لاحظوا وجود أوجه تشابه بين هذه المجاميع الحشرية، ولذلك ذكروها للمقارنة والوصف، ومن الممكن أنّ أوجه التشابه التي لاحظها العرب والمسلمون هو التماثل في المظهر الخارجي كعدد الأجنحة والأرجل وتقسيم أجزاء الجسم كما يفعل المختصون في وقتنا الحاضر، واليوم يوجد نحو مليون النوع التي تمّ تشخيصها حديثًا على وفق صفات ظاهريّة متفق عليها.

وصنف العلماء العرب والمسلمون أيضًا أنواعًا عديدة من العنكبوتيات كالقردان وأضرارها على حيوانات الماشية والأمراض التي تحدثها ووسائل مكافحتها[١٧]، فقالوا: جذا القراد في جنب البعير جذوًا... لصق به ولزمه... القراد هو القراد الضخم... وهو القراد الصغير[١٨]، وذكر الجاحظ في كتاب الحيوان الجرب أيضًا، وهو مرض يسببه نوع من العناكب (الحلم).

أما عن القوارض كالفئران والجرذان، فقد كانوا يلقبونها بأم الخراب[١٩]، لما لها من أضرار كبيرة وسعة بالحيلة والخبث، فقيل: إنها تأكل الكتب وكسر نوى القطن والثياب، وتقتل النحل وتهلك العلف والزرع[٢٠]. فالفئران آفات زراعية خطيرة، وتكاد جميع المحاصيل الزراعية

ومنتجاتها تصاب بهذه الآفة، ويعرف اليوم منها عشرات الأنواع في بلاد العرب والمسلمين.

كذلك الطيور وأنواعها استخدموا لها تسميات متعارف عليها، ولا يزال يستخدمها العامة كالفاختة والحمام والعصفور وغيرها[٢١].

فالطيور آفات تهاجم البساتين والحقول الزراعية، فقالوا: إذا كان زمان بيادر[٢٢] لم يبقَ عصفور إلا طار إلى البساتين... والحمام يغتذي الحبوب والبذور والنبات[٢٣]، وتعرف اليوم منها عشرات الأنواع التي تهاجم المزروعات وتحدث لها الأضرار الكبيرة.

لقد عرف العرب والمسلمون أيضًا أضرار الكثير من النباتات، التي تسمى الحشائش وغيرها من أنواع العوائل النباتية، واستخدموا لها وسائل عديدة في مكافحتها أو التقليل من أضرارها[٢٤]، فذكر ابن وحشية في كتابه الفلاحة النبطية شعرة الشيطان، وهي نبتة الحامول، التي تتطفل على النباتات دون أن يكون لها جذور في الأرض، بل لها ممصّات تغرزها في النبات الذي تتطفل عليه، ولعلّ هذا ما أدهش ابن وحشية فنسبها إلى الشيطان، وتحدّث أيضًا ابن بصّال الأندلسي عن الأمراض التي تصيب أشجار الفاكهة في كتابه الفلاحة، وقد عرفت مسبّباتها اليوم، وهي مسببات فطرية، وغير ذلك من المعلومات عن أنواع الآفات التي لا يتسع المجال لذكرها جميعها فتركناها لفرصة أخرى.

وسائل وقاية النبات ومكافحة الآفات عند العرب والمسلمين:

إن معرفة العرب والمسلمين للآفات الزراعية وأضرارها ساعدهم في التوصل إلى كيفيّة استخدام وسائل عديدة في مكافحتها وطرق الوقاية منها كمواعيد الزراعة، والحراثة، والتسميد، والري وغيرها.

إضافة إلى معرفتهم دور العوامل المناخيّة وأثرها في هذه الآفات، وكذلك طرق المكافحة التطبيقيّة المختلفة، كالمكافحة الزراعيّة، ومن وسائلها الحراثة للقضاء على النباتات الضارّة، التي تعرف اليوم باسم الأدغال، ولتعريض أطوار الآفات الضارّة للعوامل البيئيّة القاسية بالحراثة فتؤدي إلى موت تلك الأفراد. وقد كان لديهم أنواع مختلفة من المحاريث وأدوات الحراثة وغيرها التي وصفها العرب والمسلمون في مؤلفاتهم، ومنهم ابن سيده الأندلسي في كتابه "المخصص" وأفرد لها فصلاً كاملاً.

كما كان للعرب والمسلمين إسهامات في المكافحة الميكانيكية للآفات الزراعية، فقد استخدموا الصيادة لمكافحة الفئران والجرذان[٢٥]، وهي آلة استخدموها للإمساك بأفراد هذه الآفات، ثم قتلها بأيّ وسيلة ممكنة بالضرب أو صب الماء المغلي عليها، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، فما هي إلا مشبك من الأسلاك المعدنية المثبتة على لوح خشبي بحجم كف اليد أو أكبر قليلاً، ذات نابض سلكي متصل بباب مصنوع من الأسلاك المعدنية نفسها له قابلية سريعة في الانغلاق بعد دخول الحيوان، ولا تزال هذه الوسيلة مستخدمة لدينا وفي مختلف أنحاء العالم حتى يومنا الحاضر وبشكل ناجح.

إضافة إلى استخدام أسلوب الإبادة والحرق لكل من العائل والآفة لأجل القضاء على مصدر الضرر؛ لمنع انتقال الإصابة أو العدوى، وقد استعمل هذه الطريقة ابن بصّال في علاج مرض ومكافحته حين اعترى أشجار البساتين في

طليطلة بالأندلس[٢٦]، في حين استخدمت هذه الطريقة في أول مرّة في العصر الحديث عام ١٩٢٣ ميلادية في الولايات المتحدة الأمريكية للقضاء على الحشرة القشرية البارليتورية التي تصيب أشجار نخيل التمر في كاليفورنيا، وبعدها بسنوات استعملت الطريقة ذاتها في القضاء على ذبابة الفاكهة في الولايات الأمريكية والعراق أيضًا[٢٧].

أما عن المكافحة الحياتيّة، التي تعدّ من الوسائل الحديثة في وقاية النباتات ومكافحة الآفات، فإنّ العرب والمسلمين ذكروا هذه الطريقة أيضًا، فقد عرفوا أنّ الطيور لها أهميّة في مكافحة الجراد[٢٨]، وكذلك استخدام المفترسات في مكافحة الآفات الحشرية على أشجار النخيل من قبل أهل اليمن ولمدة تعود إلى مئات السنين قبل الإسلام[٢٩]، بل حافظ عليها المسلمون واستخدموها على مر السنين حتى تجاوز زمن استخدامها مئات السنين.

وقد استخدمت هذه الطريقة لأول مرّة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٧٠ ميلادية[٣٠]. لقد استخدم العرب والمسلمون العديد من الطرق التي يمكن اتباعها لوقاية محاصيلهم الزراعية للقضاء على الجراد والصراصير[٣١].

كذلك الدور الرائد لهم في استخدام المبيدات في مكافحة الآفات، التي تمكن العلماء العرب والمسلمون من تصنيعها من مركبات كيميائية كمركبات الزرنيخ والكبريت وغيرها[٣٢]، أو استخدام مواد التدخين والتبخير ذات الأصل النباتي، التي تعدّ من الطرق الحديثة في الاستعمال ضد الآفات الزراعية، وكذلك استخدامهم النفط ومشتقاته في مكافحة الآفات الزراعية والحيوانية[٣٣].

يمكن تلخيص طرق مكافحة الآفات التي استخدمها العرب والمسلمون[٣٤]، كما يأتي:

أولاً: المكافحة الطبيعية.

ثانيًا: المكافحة التطبيقيّة وتقسم على:

١- المكافحة الزراعيّة.

٢- المكافحة الميكانيكية.

٣- المكافحة التشريعية.

٤- المكافحة الحياتيّة.

٥- المكافحة الكيمياوية وتقسم على:

أ- معاملة التربة.

ب- التعفير.

ج- الطعوم السامة.

د-مواد التبخير والتدخين.

هـ - النفط ومشتقاته.

إن هذه الطرق المتنوعة التي استخدمها العرب والمسلمون في وقاية النبات ومكافحة الآفات لم يكن استعمالها اعتباطًا، بل اعتمد على أسلوب التجربة والملاحظة الدقيقة، وهذا يتضح جليًّا من الأعداد الكبيرة من مؤلفات العرب والمسلمين في الفلاحة وغيرها من المؤلفات، التي سيتم ذكرها على سبيل المثال لا الحصر؛ أي إنّ العرب والمسلمين بحق وبدون منازع أوّل من وضعوا أسس وقاية النبات وأساليب مكافحة الآفات، بل إنّ الخطوات الجليّة التي خطاها العرب والمسلمون في تعرف الآفات ووصفها وسبل الوقاية منها وعلاجها ساعدت بشكل واضح على تأسيس علوم وقاية المزروعات الحديثة.

مؤلفات وقاية النبات ومكافحة الآفات:

إنّ المتتبّع لمؤلفات العرب والمسلمين في هذه المجالات يجد أنها تأتي في أربع مجاميع كما يأتي:

١- الكتب التي تتحدّث عن الفلاحة والزراعة والزرع.

٢- الكتب التي تتحدّث عن النبات.

٣- الكتب التي تتحدث عن الحيوان.

٤- الكتب التي تتحدث عن المعرفة واللغة والشعر.

سندرج فيما يأتي أهم ما ذكرته المصادر القديمة من كتب حسب المجاميع الأربع، إلا أنّ العديد منها قد ضاع أو أخطؤوا في تصنيفه، وبعضها الآخر لا يعرف عنه إلا النزر اليسير، وهي:

مؤلفات المجموعة الأولى:

١- الزرع، لأبي عبيدة البصري، (ت٢٠٩هجرية).

٢- الزرع والنخل، لأبي نصر الباهلي، (ت٢٣١هجرية).

٣- النخلة،لأبي حاتم السجستاني، (ت ٢٥٥ هجرية).

٤- الفلاحة، لابن بصّال الطليطلي، (ت٤٩٩هجرية).

٥- الزراعة، لابن خير الأشبيلي، (ت القرن الخامس الهجري).

٦- المقنع في الفلاحة، لأحمد بن محمد بن حجاج، (ت القرن الخامس الهجري).

٧- الزراعة، لأحمد الغرناطي، (ت ٥٥٣هجرية).

٨- الفلاحة الأندلسية، لأبي زكريا يحيى بن محمد ابن أحمد بن العوام الإشبيلي، (ت في الربع الأول من القرن السابع الهجري).

٩- الزراعة، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم، الملقّب بابن الفاضل الأندلسي، (ت٧٦٤هجرية).

١٠- الخضروات السبعة، لجلال الدين السيوطي، (ت ٩١١ هجرية).

مؤلفات المجموعة الثانية:

١- النبات والشجر، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب، المشهور بالأصمعي، (ت٢١٤هجرية).

٢- النبات والشجر، لأبي زيد الأنصاري البصري، (ت ٢١٥هجرية).

٣- التمر، لأبي زيد الأنصاري البصري.

٤- النبات، لابن الأعرابي الكوفي، (ت٢٣١هجرية).

٥- النبات والشجر، لابن الأعرابي الكوفي.

٦- النبات والبقل، لابن الأعرابي الكوفي.

٧- النبات، لابي حاتم السجستاني.

٨- النبات، لابي حنيفة الدينوري، (ت٢٨٢هجرية).

مؤلفات المجموعة الثالثة:

١- النحل والعسل، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب، المشهور بالأصمعي، (ت ٢١٤ هجرية).

٢- الذباب، لابن الأعرابي الكوفي، (ت٢٣١هجرية).

٣- الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الملقّب بالجاحظ، البصري، (ت ٢٥٥ هجرية).

٤- النحل والحشرات، لأبي حاتم السجستاني.

٥- الحشرات والجراد، لأبي حاتم السجستاني.

٦- الحشرات، لأبي خيرة الأعرابي، (في القرن الثالث الهجري).

٧- الجراد للأخفش الأصغر، (ت القرن الرابع الهجري).

٨- النحل والعسل، لأبي عمرو الشيباني،(ت في القرن الرابع الهجري).

٩- الحشرات، لهشام بن إبراهيم الكرنباتي، (ت في القرن الخامس الهجري).

١٠- النحلة والبعوضة، لعلي بن عبيدة الريحاني، (ت في القرن السادس الهجري).

١١- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، لأبي يحيى زكريا بن محمد بن محمود المالكي القزويني، (ت في القرن السابع الهجري).

١٢- نحل عبر النحل، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، (ت في القرن الثامن الهجري).

١٣- حياة الحيوان الكبرى، لكمال الدين الدميري، (ت ٨٠٨هجرية).

مؤلفات المجموعة الرابعة:

١- البيان والتبيين، للجاحظ.

٢- المخصّص، لابن سيدة الأندلسي، (ت ٤٥٨ هجرية).

٣- تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب لداود الأنطاكي، (ت ١٠٠٨ هجرية).

كما تحدّث مؤلفون وشعراء عرب ومسلمون، من الذين ليست لهم اهتمامات في الفلاحة والزراعة والزرع والنبات والحيوان، عن العديد من النباتات والزرع والشجر والآفات التي تصيبها، ولو جمعت لكتب منها مؤلف نفيس عن المزروعات وآفاتها.

وأخيرًا وليس آخرا لا يعتقد البعض أن العرب والمسلمين لم يكونوا مبدعين في مجالات أخرى من مكافحة الآفات ، فقد أبدع العرب والمسلمون في مجال مكافحة الحشرات الناقلة لأمراض الإنسان والحيوان والحشرات المنزلية والبيطريّة، وغيرها. ■

•••

الحواشي

١- الآفات الزراعيّة والحشريّة والحيوانيّة:٨٩.

٢- فتوح البلدان: ٤٥٢.

٣- كتاب الحيوان: ٣٠٣/٥.

٤- المستظرف من كل فن مستطرف: ٨٧.

٥- الآفات الزراعيّة والحشريّة والحيوانيّة: ٢٧٩-٣٨٢.

٦- المستظرف: ٩٤.

٧- صنفان ليس المقصود نوعان، حيث كان يتحدث عن نوع واحد من الجراد، وهو الصحراوي، إذًا المقصود هو طوران.

٨- الفارس يقصد به الطور البالغ القادر على الطيران.

٩- الراجل يقصد به الطور الحوري؛ أي غير القادر على الطيران، وأفراد هذا الطور تشبه الأفراد البالغة مع عدم وجود أجنحة.

١٠- التربة الطيبة الرخوة تعني التربة الخفيفة التي تتوافر فيها الرطوبة مثل تربة الوديان والأراضي المزيجية المجاورة للحقول الزراعيّة، والتي يفضّلها الجراد عمومًا والصحراوي خصوصًا في وضع البيض.

١١- أذنابها هي آلة وضع البيض عند إناث الجراد الصحراوي، والتي تكون في مؤخرة البطن؟

١٢- الذباب الصغير هو للتشبيه بالذباب من حيث الحجم، أي المقصود أفراد صغيرة حديثة الفقس.

١٣- نهضت أي طارت.

١٤- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات:٣٠٦.

١٥- المخصّص:١٢١/٨

١٦- الحيوان: ٣١٤/٣.

١٧- المصدر نفسه:٤٣٥/٥.

١٨- المخصص:١٢٣/٨.

١٩- المستظرف:١٠٨.

٢٠- كتاب الحيوان:٢٧٣-٢٨٥.

٢١- المستظرف:٨٥-١١٧.

٢٢- زمان البيادر المقصود موسم حصاد المحاصيل.

٢٣- الحيوان:٢٥٩-٢٧٢.

٢٤- دراسة مقارنة في كتب التراث الزراعية، مجلة المورد/ع١٤(٤): ١٣٣-١٣٨.

٢٥- الحيوان:٢٨٣-٢٨٥.

٢٦- كتاب الفلاحة:١٦.

٢٧- الآفات الزراعيّة آفاتها وسبل مكافحتها في العراق.

٢٨- عجائب المخلوقات: ٣٠٦.

٢٩- الآفات الزراعية الحشرية:٨٩.

٣٠- المصدر نفسه.

٣١- عجائب المخلوقات:٢٧٥.

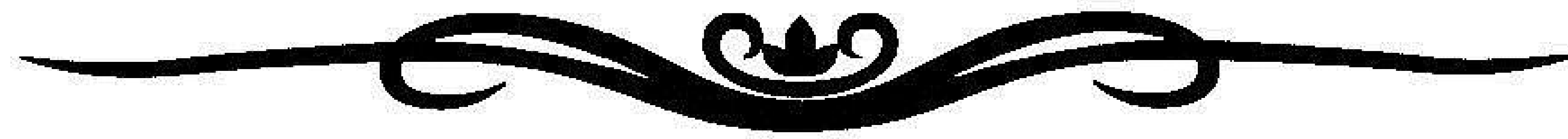
٣٢- المستظرف:١١١.

٣٣- المخصص:٨/١٦٤.

٣٤- طرق مكافحة الآفات الزراعيّة عند العرب. الندوة القطرية الثانية لإحياء التراث العلمي العربي.

المصادر والمراجع

- **الآفات الزراعية الحشرية والحيوانية**، لمحمد محمود حسني ورفاقه، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.
- **الآفات الزراعية آفاتها وسبل مكافحتها**، لعماد محمد ذياب الحفيّظ، وزارة الزراعة، بغداد.
- **دراسة مقارنة في كتب التراث الزراعية**، لناصر حسين صفر، مجلة المورد، مج١٤/ع٤/١٩٨٥م.
- **طرق مكافحة الآفات الزراعية**، لعماد محمد ذياب، الندوة القطرية لإحياء التراث العلمي، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٦م.
- **عجائب المخلوقات**، للقزويني، دار الفكر، بيروت.
- **فتوح البلدان**، للبلاذري، شركة طبع الكتب العربية، القاهرة، ١٣١٩هـ.
- **كتاب الحيوان**، للجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٥م.
- **كتاب الحيوان**، للجاحظ، تح. فوزي عطوي، بيروت.
- **كتاب الفلاحة**، لابن بصّال، تر. خوسي بيكروسا، ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان- المغرب، ١٩٥٥م.
- **المخصص**، لابن سيده، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة.
- **المستظرف من كل فن مستطرف**، للأبشيهي، المطبعة الميمنية، القاهرة، مصر، ١٣١٤هـ.



الإبداع العلمي والتقني في وقاية النبات ومكافحة الآفات في التراث الإسلامي

التاريخ الطبيعي للفقاريات

Vertebrate Natural History

أ.د. محمد حسن الحمود
جامعة جرش الأهلية / الأردن

تطورت مجالات علوم الحياة بفرعيها، علم النبات، وعلم الحيوان خلال العصور الإسلامية الذهبية، على يد العلماء الذين عاشوا في كنف الدولة العربية الإسلامية من العرب والقوميات العرقية والأديان الأخرى، حيث تكللت جهودهم وإبداعاتهم وابتكاراتهم من خلال كتابة المؤلفات والموسوعات العلمية العالمية. وقد أفرد علماء التاريخ الطبيعي أمثال الجاحظ والدميري والقزويني وأحمد بن أبي الأشعث فصولا في مؤلفاتهم الذائعة الصيت عن الأسماك والبرمائيات والزواحف" الأفاعي والسحالي والحرباوات" و الطيور والثدييات، التي انتشرت في البيئة العربية والعالم الإسلامي.

إنّ دراسة المُعطيات العلمية المذكورة في كتاب الحيوان للجاحظ وكتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني، وكتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري، وغيرها من المؤلفات العلميّة والطبيّة وتحليلها يؤكد عمق مساهمات العلماء من الشرق في كتابة التاريخ الطبيعي للفقاريات خلال العصور الوسطى.

عالم الفقاريات في النصوص القرآنية:

أشارت النصوص القرآنيّة إلى حقائق علميّة متنوعة، تقع في مجال العلوم البيولوجية المعاصرة، وبخاصة ما يتعلق بعناصر الفكر البيئي، وملامح عن عالمي النبات والحيوان، وهو ما يعرف في الوقت الراهن بالتاريخ الطبيعي للأحياء.

أصل الحياة:

أشار النصّ القرآني بشكل واضح إلى أنّ أصل الحياة من الماء. قال تعالى: ﴿**والله خلق كل دابة من ماء**﴾[1]. وهذا الموضوع يعدّ من الموضوعات

المهمّة في العلوم البيولوجية الذي استنفد جهودًا علمية، وفكرية هائلة في السنوات الأخيرة من أجل تحديد بداية ظهور الحياة و مراحل تطورها على كوكب الأرض.

التشريح المقارن للفقاريات:

أشارت النصوص القرآنيّة إلى أهميّة مظاهر تشريح الفقاريات، وهو من العلوم التي تطورت خلال السنوات الأخيرة. وقد أشار النص القرآني إلى تقسيم الحيوانات إلى مجاميع، حيث قال تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**﴾[٢].

وقد أشار النص القرآني أيضًا إلى الأنعام التي تصنف في الوقت الراهن من رتبة الظلفيات. قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾[٣]، وقد أشار النص القرآني إلى تنوع وسائل الحركة في عالم الحيوان، حيث قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ**﴾[٤].

وقد أشار النص القرآني إلى عظمة عالم الحيوان، وأهمية دراسته، واستنباط الدروس العلميّة منه، حيث وجّه الناس إلى ملاحظة روعة الإبل Camelus dromedaries، من حيث الشكل والمظاهر البيولوجية المتنوعة والتكيفات التي التي تساعدها في المعيشة في البيئة القاسية، وتحمل شحّ الماء، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[٥]، وأشار قوله تعالى إلى الأنعام: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً**﴾[٦]، وهي ذات منفعة اقتصادية مهمّة للإنسان، وبخاصّة إنتاج اللحوم والألبان اللذيذة، سواء في الماضي أم الحاضر.

السلوك:

أشارت النصوص القرآنية إلى اختلاف أنماط السلوك في عالم الحيوان، وهي تعكس غزارة التنوع وثراء التكيف في عالم الحيوان. وقد وردت في النصوص القرآنية المعطيات السلوكية الآتية:

أشارت النصوص القرآنية إلى أسراب الطيور Flocking Behaviour، قال تعالى: ﴿**وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ**﴾[٧]. وقد كشفت الأبحاث العلمية الحديثة أن تجمع الطيور بشكل أسراب يلعب دورًا مهمًّا في تقليل الافتراس ويساهم في الطواف المنظم. وإنّ الطيور المهاجرة دائمًا تطير بشكل أسراب في أثناء الملاحة الفضائية، كما أشارت النصوص القرآنية إلى لغة الطيور Avian Vocabularies، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ**﴾[٨]، وقد كشفت الدراسات العلميّة عن امتلاك الطيور ذخيرة واسعة من الأصوات والأغاني واللهجات Dialects بين أفراد النوع الواحد. وإن الذخيرة الصوتية Vocal Repertories للطيور هي الأغنى والأكثر ثراء في المملكة الحيوانية، و هي متكوّنة من مناهج متنوعة Assorted Syllbables، وأنّ كل نوع من الطيور يملك معجمًا لغويًّا خاصًّا به.

عالم الفقاريات في مراجع التراث العلمي الإسلامي:

كان للعلماء العرب والمسلمين دور ريادي في تطور فروع علوم الحياة المتنوعة في العصور الوسطى، وبخاصة علم النبات وعلم الحيوان وعلم الطيور وعلم الحشرات والفكر البيئي، وكان لبعض العلماء العرب أمثال الجاحظ، وابن قتيبة، والقزويني، وأحمد بن أبي الأشعث، محاولات جريئة منذ وقت مبكر في تصنيف الحيوان.

وكان للعلماء العرب والمسلمين الفضل الكبير

في المحافظة على التراث العلمي اليوناني والروماني، الذي كان يومئذ يلفظ أنفاسه، فلم تكن في ذلك الزمان أقوام أخرى غير العرب في حالة استعداد اجتماعي وفكري ونفسي لتأخذ مكان تلك الحضارة الغاربة.

كتب الحيوان عند العرب:

يمكننا أن نجمل الكتب التي كتبها العلماء العرب في عالم الحيوان، والتي قدمت للحضارة العالمية في الاتجاهات الآتية[9]:

١- الكتب والرسائل التي تبحث عن نوع واحد من أنواع الحيوان كالإبل والخيل والبغال.

٢- الكتب التي تبحث عن طبائع الحيوان (Behavior Animal).

٣- الكتب التي تهتم بعلاج الحيوان، حيث إنّ ذلك يدخل ضمن علم البيطرة (Medicine Veterinary).

٤- الكتب ذات العلاقة بالحيوان مثل كتب الصيد والغذاء.

٥- الكتب اللغوية التي تهتم بالبحث عن أسماء الحيوانات وصفاتها وأفعالها وألوانها، وعن اشتقاق هذه المسمّيات وأصولها، واستعمالها في كتب الأدب والشعر.

٦- الكتب التي اتخذت مما يسمى بغرائب المخلوقات (الفولكلور الحيواني).

٧- الكتب التي تبحث في تحريم أكل الحيوان حسب الشرع الإسلامي ومبادئه.

٨- الكتب التي تبحث عن مظاهر عالم الحيوان بشكل عام.

كتب الحيوان اللامعة:

تحوي المكتبة العربية لكل نوع من أنواع تلك الدراسات كتبًا عديدة، سواء كانت هذه الكتب منشورة أم غير منشورة، ومن أهم هذه المؤلفات:

١- كتاب الحيوان لأرسطو، ترجمه إلى اللغة العربية البطريق بن يحيى بن البطريق(توفي نحو ٢٠٠هـ).

٢- جوامع كتاب أرسطو في معرفة طبائع الحيوان، ترجمه إسحاق بن حنين العبادي (٢١٥هـ - ٢٩٨هـ).

٣- مقالة في الحيوان، تأليف موسى بن ميمون الإسرائيلي القرطبي (٦٠١هـ/١٢٠٤م)، وهي شرح لكتاب الحيوان لأرسطو.

٤- كتاب الحيوان، تأليف أبي عبيدة معمر بن المثنى (١١٠هـ/٢٠٩هـ)، وهو أقدم تأليف عربي استمد من البيئة العربية.

٥- كتاب الحيوان للجاحظ (١٦٣هـ/٢٥٥هـ)، وهو موسوعة علميّة عالمية في علم الحيوان. عاش الجاحظ في العصر الذهبي للأمة العربية الإسلامية، وهو عصر هارون الرشيد والمأمون، وهو عصر العلوم والآداب والفنون في البصرة والكوفة وبغداد وقرطبة. وقد استمدّ الجاحظ مادة كتاب الحيوان من: القرآن وحديث الرسول والشعر العربي وكتاب الحيوان لأرسطو والخبرة الشخصية.

٦- كتاب الحيوان، تأليف أحمد بن محمد الأشعث (توفي ٣٦٠هـ/٩٧١م).

٧- كتاب طبائع الحيوان، وخواصها ومنافع أعضائها: تأليف عبيد الله بن جبريل بن بختيشوع (توفي ٤٥٣هـ/١٠٦١م)، ويسمى هذا الكتاب (نعت الحيوان) أو (منافع الحيوان).

٨- كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تأليف زكريا القزويني (٦٠٠هـ - ٦٨٢هـ).

٩- حياة الحيوان الكبرى، تأليف كمال الدين الدميري (٧٤٥هـ /٨٠٨هـ)، وقد ترجم الكتاب إلى اللغتين الفارسية والتركية.

كتب متخصصة:

يمكن الإشارة أيضًا إلى كتب تخص العلوم البيطرية، أنجزها العلماء العرب خلال قرون عديدة من الحركة العلميّة والتأليف العلمي، ومن هذه المؤلفات ما يأتي[١٠]:

١- كتاب الخيل، تأليف أبي سعيد الأصمعي (توفي ٢١٦هـ).

٢- كتاب الخيل، تأليف معمر بن المثنى (توفي ٢٠٩هـ).

٣- كتاب الخيل والبيطرة، تأليف محمد بن إسحاق المعروف ابن أخي حزام الختلي.

٤- كتاب المغني في البيطرة، تأليف الملك الأشرف عمر بن يوسف الغساني.

٥- كتاب الخيل، تأليف عبد الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي.

٦- كتاب الإبل، تأليف أبي عبيدة (توفي ٢١٠هـ).

٧- كتاب الشاء، تأليف الأصمعي.

٨- كتاب الإبل، تأليف أبي حاتم السجستاني (توفي ٢٥٥هـ).

٩- كتاب البغال، تأليف الجاحظ.

تطور علم بايولوجيا الفقاريات في تراث الحضارة الإسلامية:

علم الأسماك Ichthyology:

تكلم العلماء العرب عن حياتية الأسماك، وبخاصة ظاهرة هجرة الأسماك، ووصولها إلى شط العرب في البصرة، حيث قال الجاحظ[١١] عن أصناف الأسماك المهاجرة إلى شط العرب ونهر دجلة:

أصناف من حيتان البحر تجيء في كل عام في أوقات معلومة حتى تدخل دجلة، ثم تجوز إلى البطائح، فمنها الأسبور، ومنها البرستوج، ومنها الجواف. وإنما عرفت هذه الأصناف بأعيانها وأزمانها؛ لأنها أطيب ذلك السمك. وما أشك أن معها أصنافًا أخرى يعلم منها أهل الأبلة مثل الذي أعلم أنا من هذه الأصناف الثلاثة.

وقد كتب الجاحظ[١٢] عن معتقداته حول أسباب هجرة الأسماك بقوله:

أعجب من جميع قواطع الطير وقواطع السمك كالأسبور والبرستوج والجواف... فإن هذه الأنواع تأتي دجلة البصرة من أقصى البحار، تستعذب الماء في ذلك الإبان، كأنها تتحمض بحلاوة الماء وعذوبته بعد ملوحة البحر.

وقد أورد الجاحظ ملاحظات عن توقيت سلوك الهجرة عند الأسماك التي كانت تصل إلى نهر شط العرب في البصرة قال:

نحن بالبصرة نعرف الأشهر التي تقبل فيها إلينا هذه الأصناف، وهي تقبل مرتين في كل سنة، ثم نجدها في إحداهما أسمن، فيقيم كل جنس منها عندنا شهرين إلى ثلاثة أشهر، فإذا مضى ذلك الأجل.. أقبل الجنس الآخر. إلا أن البرستوج يقبل إلينا قاطعًا من بلاد الزنج، يستعذب الماء من دجلة البصرة، ويعرف ذلك جميع الزنج والبحريين[١٣].

وقال الجاحظ حول مواعيد وصول الأسماك المهاجرة إلى منطقة البصرة:

التاريخ الطبيعي للفقاريات
Vertebrate Natural History

هذا بحر البصرة والأبلة يأتيهم ثلاثة أشهر معلومة السمك الأسبور، فيعرفون وقت مجيئه وينتظرونه، ويعرفون وقت انقطاعه ومجيء غيره، فلا يمكث بهم الحال إلا قليلاً حتى يقبل السمك من ذلك البحر في ذلك الأوان، فلا يزالون في صيد ثلاثة أشهر معلومة من السنة، وذلك في كل سنة مرتين لكل جنس... وإنّ الأسبور في الوقت الذي يقطع إلى دجلة البصرة لا يوجد في الزنج، وفي الوقت الذي يوجد في الزنج لا يوجد في دجلة، وربما اصطادوا منها شيئًا في الطريق في وقت قطعها المعروف، وفي وقت رجوعها[١٤].

الدميري وعلم الأسماك:

ترك الدميري (القرن الثامن الهجري) موسوعة علمية عالمية معروفة، هي حياة الحيوان الكبرى، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية (قرابة سنة ١٦٧٠ ميلادية)، وإلى اللغة التركية (١٨٥٦ ميلادية). وإلى اللاتينية (١٦٦٣ ميلادية)، وإلى الفرنسية والإنكليزية (١٩٠٦ ميلادية).

وقد ساهم الدميري في علم الأسماك من خلال الكتابة عن أنواع الأسماك، وتوثيق معلومات غزيرة عنها، حيث ذكر الأنواع الآتية[١٥]:

- الإنكليس anguilla : سمك شبيه بالحيات وهو الجري.
- البياح Mugila abu : ضرب من السمك.
- الجواف Anodontostoma chocumdra : ضرب من السمك.
- الشبوط Barbus grypus : ضرب من السمك دقيق الذيل عريض الوسط لين الملمس صغير الرأس.
- البينيب Euthymus pelamis.
- الصرصران Muraenesox sincrens : سمك أملس معروف.
- القرش: دابة عظيمة من دواب البحر، تمنع السفن من السير في البحر، وتدفع السفينة فتقلبها.
- الكوسج أو أبو منشار Pristis gyspiclatus: سمكة لها خرطوم كالمنشار تفترس ابن آدم.

علم الزواحف Herpetology :

تكلم العلماء العرب عن عالم الزواحف Reptiles التي تدرس ضمن علم خاص يُعرف Herpetology. وقد أشار الجاحظ إلى ظاهرة السبات الشتوي Hibernation، وهي معلومات أخذها عن العالم اليوناني (أرسطو: صاحب المنطق)[١٦]:

وقد زعم صاحب المنطق أنّ الحيّة وسام أبرص من العظاء والتمساح، تسكن في أعشّتها الأربعة الأشهر الشديدة البرد، لا تطعم شيئًا، وأن سائر الحيات تسكن بطن الأرض. فأما الأفاعي؛ فإنها تسكن في صدوع الصخر.

وقد تكلم الجاحظ عن اختلاف أشكال البيوض في عالم الزواحف[١٧]: استدارة بيض الرق، واستطالة بيض الحيات، وما يكون منها أرقط وأخضر وأصفر وأبيض وأكدر وأسود. وتكلم الجاحظ[١٨] عن بيض الضب: إنّ الضبة تبيض ستين بيضة[١٩]، إنّ الضبة يكون بيضها في بطنها، ويكون بيضها متسقًا؛ فإذا أرادت أن تبيضه حفرت في الأرض أدحيًّا، ثم ترمي بمكنها (بيض الضبة) في ذلك الأدحي ثمانين مكنة، وتدفنه بالتراب. وقال: ومكنها جلد لين فإذا يبست فهي جلد. وتكلم الجاحظ عن العضو التناسلي الذكري في

الزواحف Hemipenis لدى الحرذون Agamidae مثل الحرذون Agama stellio[٢٠]: قالوا، للحرذون أيرين.. وأنهم عاينوا ذلك معاينة[٢١]. قال عن الضب: إنّ لهذه الحشرات أيور معروفة.. فأما الخصى فشيء ظاهر من شق عليها. وقد أضاف الجاحظ[٢٢]: أير الضب كلسان الحية: الأصل واحد، والفرع اثنان.

الحرباء:

تنتمي الحرباء إلى عائلة الحرابي Chameleontidae، وقد أشار القزويني إلى ألوانها المتعددة التي تتخذها بسبب المحيط الحيوي والحرباوات هي من الفقريات متغيرة الحرارة Poikilothermic Vertebrates، وأنّ التغيرات اللونيّة السريعة تعود إلى الخلايا الحاملة للألوان Chromatophore، وهي حاملات الزانثين Xanthophores التي تحوي مزيجًا من ألوان الأصفر والبرتقالي أو الأحمر، وحاملات بلورات البيورين Iridiophors، وهي حاوية على بلورات البيورين العاكسة وحاملات الميلانين Melanophores ذات اللون البني[٢٣].

وقال القزويني عن الحرباء:

حيوان أعظم من العظاية.. يدور مع الشمس، ووجهه لها كيفما دارت حتى تغرب، ويكون رمادي اللون ثم يصفر، وإذا أثرت فيه شمس احمرّ، و قيل يختلف لونه باختلاف ساعات النهار كل ساعة.

وقال الدميري عن الحرباء: له أربع أرجل... وإنه يكون ألوانًا، وهي تتلون بلون الشجرة التي تكون عليها، حتى تكاد تختلط بلونها، فإذا قرب منها الذباب ونحوه اختطفته بلسانها[٢٤].

الحيات:

تكلم الجاحظ والدميري عن الحيات من النواحي التشريحيّة والتغذية[٢٥]: وهي تبتلع فراخ الحمام. وكذلك حركة الحيات Locomotion[٢٦]: ليست بذات قوائم، وإنما تنساب على بطنها. وقال[٢٧]: وإذا انسابت في الكثبان والرمل يبين مواضع مزاحفها وعرفت آثارها. وتكلم الجاحظ[٢٨] عن الحيات: وقد رأيت بيض الحيات وكسرتها لأتعرف ما فيها، فإذا هو بيض مستطيل أكدر اللون أخضر، و في بعضه نمش ولمع... ويزعمون أنها كثيرة البيض جدًا. وأنّ بيضها يكون منضدًا في جوفها طولاً على غرار واحد، وعلى خيط واحد.

وتكلم الجاحظ[٢٩] عن انسلاخ الحيات، وهي معلومات أخذها عن أرسطو (صاحب المنطق):

زعم أنّ الحيات تسلخ جلودها في أول الربيع.. وزعم أنّ السلخ يبتدئ من ناحية عيونها..وهي تسلخ من جلودها في يوم وليلة من الرأس إلى الذنب.

وتكلم عن السفاد Copulation لدى الحيات[٣٠]: ليس للحيات سفاد معروف ينتهي إليه علم، ويقف عليه عيان، وليس عند الناس في ذلك إلا الذي يرون من ملاقاة الحية (الحية) والتواء كل منهما على صاحبه.

الحيوانات السامّة:

اهتم العلماء والأطباء العرب بدراسة السموم ضمن المؤلفات اللغويّة والطبيّة والصيدلانيّة وكتب التاريخ الطبيعي. كما كتب العلماء العرب المؤلفات المتخصصة عن السموم النباتية والحيوانية والمعدنية، وطرق الوقاية من مخاطرها، ومعالجة حالات التسمم المتولّدة من الأسباب الجنائية، أو بسبب الطوارئ الحياتية العفوية. وقد ترك الطب الهندي والتراث و الحضارة الهندية بصمات

واضحة على ملامح علم السموم في المؤلفات العربية.

الثعابين والحيات والأفاعي Ophidia :

اهتمت المؤلفات الطبيّة العربية (القانون في الطب)، والمؤلفات العربية المتعلّقة بدراسة الحيوان (كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري) بكتابة ملاحظات مفصّلة عن الأفاعي والحيات، وهذه المعلومات ذات قيمة علميّة من ناحية دراسة مساهمات العرب في علم الحيوان والتاريخ الطبيعي. فقد أورد ابن سينا قائمة طويلة بأنواع الأفاعي والحيّات، حيث حملت بعض أنواعها الأسماء اليونانية على الرغم من إشارات ابن سينا إلى وجود هذه الحيوانات في المنطقة العربية، مما يعكس اعتماد ابن سينا على النقل الحرفي الميكانيكي من المؤلفات اليونانية. وقد أشار ابن سينا إلى الأنواع الآتية[٢١]:

١- الحية المسماة (الملكة): طولها شبران إلى ثلاثة.

٢- الحية المسماة بالخطاف: طولها قريب من ذراع وتقتل بمدة ساعتين.

٣- الحية البزاقة: طولها ذراعان، ولونها رمادي إلى الصفرة.

٤- الأفاعي البلوطية: يعرض من لسعها انسلاخ الجلد.

٥- الأفاعي المعطشة: طولها شبر واحد، وعلى بطنها آثار سود كثيرة، ورأسها صغير وعنقها غليظ.. إن أكثر ما تكون هذه في بلاد الشام... وتنساب مشيلة ذنبها.

٦- الحية المقرنة: جنس من الصم، يكون طولها من ذراع إلى ذراعين، وعلى رأسها نتوءان كقرنين، ولون بدنها مثل لون الرمل، ويكون على بطنها كفلوس يابسة صلبة... وأسنانها مستوية غير معوجة، وأكثرها في المواضع الرمليّة.

٧- الحية القفازة والطفارة: حيات صغار، قصار، دقاق، ربما كمنت على الأشجار راصدة، وترمي بأنفسها على من يمر بها.

٨- الحية الجاورسية: جنس من الحيات ألوانها لصفرتها كلون الجاورس.

٩- الحية الرقشاء: ذات الألوان المختلفة، وهي خبيثة تقتل في اليوم الثاني بتآكل الكبد وتفتيت الأمعاء.

وقد تكلم الدميري (القرن الثامن الهجري) في كتاب حياة الحيوان الكبرى عن الأفاعي، ولا بأس من الإشارة إليها في هذا البحث لإغناء الموضوع لأهميته العلميّة، حيث تطرق الدميري إلى الأنواع الآتية[٢٢]:

١- الحريش: نوع من الحيات أرقط.

٢- الحضب: الذكر من الحيات، وقيل حية دقيقة، وقيل الأبيض من الحيات.

٣- الحنش: حية بيضاء غليظة، وقيل إنه أسود الحيات.

٤- الشجاع: الحية العظيمة التي تثب، وتقوم على ذنبها، وتكون في الصحارى.

٥- العربد: حية عظيمة.

٦- الصل: الحية.

٧- ابن قترة: ضرب من الحيات لا يسلم من لدغته، وقيل هو ذكر الأفعى، وهو نحو من الشبر.

علم الطيور Ornithology :

وقد اهتم العلماء والمسلمون بعلم الطيور Ornithology، حيث وثقت المؤلفات العلميّة العربية الإسلامية المذكورة حقائق غزيرة عن عالم الطيور، شملت معطيات عن بيولوجية الطيور وألوانها وسلوكها وتكاثرها وطرق صيدها.

وقد شملت كتابات العلماء العرب موضوعات عن الحمام الزاجل Homing Pigeon وهجرة الطيور Migration وملاحة الطيور .Navigationوقد ترك العلماء المسلمون مؤلفات ضخمة عن الطيور الجارحة، التي عالجت موضوعات غاية في الأهمية، مثل أسس معاملة الطيور الجارحة على وفق قواعد المعرفة العلميّة التجريبيّة، وتثبيت بواكير معرفة علم النفس عند الطيور. وقد بلغ الابتكار ذروته في العصور الوسطى من خلال توثيق العلماء العرب والمسلمين لمجموعة من التقاليد عن ممارسة العمليات الجراحيّة لعلاج بعض الأورام التي تصيب الطيور الجارحة.

إنّ تقديم هذه المنجزات العلميّة الإسلاميّة الخالصة على وفق الرؤية العلميّة المعاصرة يكشف عن أصالة الابتكارات الكبيرة في مسيرة البحث العلمي والتقني في الحضارة الإسلاميّة، التي كان لها الأثر الملموس في تقدم الحضارة العالميّة.

أشار العلماء العرب إلى هجرة الطيور Migration وقدرات الحمام الزاجل على الملاحة Navigation. وقد تكلم الدميري عن الفاختة decto Steptopellia بأنها عراقية وليست حجازية تعيش في البيوت، وعن النعامةStruthio camelus، وقال: إذا باضت تدفن البيضة تحت التراب.

وتكلم الجاحظ عن الغراب Corvus corone، وقال: طائر أسود محترق، وقال عن فرخ الغراب: صغير الجسم عظيم الرأس، عظيم المنقار، أسود الظهر، وقال من ذوات البراثن الضعيفة.. وليس من ذوات المناسر، كما تكلم الجاحظ عن الهدهد Upupa epops طائر منتن الريح، وقال الدميري عنه: إنه طائر معروف ذو خطوط وألوان كثيرة. وقد أشار القزويني إلى الببغاء، وقال: الببغاء حسن اللون والشكل أكثرها أخضر اللون، و قد يكون أحمر وأصفر وأبيض، له منقار عريض.

تدريب الحمام الزاجل Homing Pigeon :

ثبت الجاحظ في كتاب الحيوان تعاليم قيمة حول طرق تربية الحمام وتدريبه للزاجل، التي توضح إدراكه العميق لطباع الطيور، وقدرته البارعة لتوثيق المعلومات عن كيفية التعامل مع الحمام الزاجل.

وقد وثق الجاحظ نصوصًا عن قدرات الحمام الزاجل في الاستفادة من النجوم (المعطيات الفلكيّة)، ومجرى نهري دجلة والفرات (المظاهر الطبوغرافية) في رحلته من البصرة إلى بغداد.

يمكن القول إنّ الأفكار التي ناقشها الجاحظ في هذا الإطار تمثل وثيقة مهمَّة أخرى في مساهمة العرب في دراسة التاريخ الطبيعي للطيور قبل أكثر من عشرة قرون من الزمان[٣٣].

علم الثدييات Mammalogy:

وثق العلماء العرب معلومات مهمَّة تقع في مجال الثدييَّات Mammalogy، وبخاصة عن أنواع الحيوانات الثديية وسلوكها والبيئة التي تعيش فيها، وهي معطيات مهمَّة تقع في مجال التاريخ الطبيعي للحيوانات الفقرية. وفيما يأتي بعض الأمثلة عن أنواع الثدييات المذكورة في مراجع التراث العلمي العربي الإسلامي.

الخفاش:

ينتمي الخفاش إلى رتبة الخفاشيات.Chiroptera

وقد وصف الجاحظ[٣٤] الخفاش بقوله: أول ذلك أن الخفاش شديد الطيران، كثير التكفي في الهواء، سريع التقلب، ولا يجوز أن يكون طعامه إلا من البعوض، وقوته إلا من الفراش وأشباه الفراش، ثم لا يصيد إلا في وقت طيرانه في الهواء، وفي وقت سلطانه؛ لأن البعوض إنما يتسلط بالليل، ولا يجوز أن يبلغ ذلك إلا بسرعة اختطاف واختلاس، وشدة طيران ولين أعطاف، وشدة متن وحسن تأت ورفق في الصيد، وهو مع ذلك كله ليس بذي ريش، وإنما هو لحم وجلد فطيرانه بلا ريش عجب، وكلما كان أشد كان أعجب.

وقال الجاحظ[٣٥] عن سلوك الأمومة ورعاية الأم لصغارها Maternal Behaviour: ويبلغ من ظن أنثى الخفافيش بولدها ومن خوفها عليه أنها تحمله تحت جناحها، وربما قبضت عليه بفيها، وربما أرضعته، وهي تطير، وتقوى على ذلك، ويقوى ولدها على ما لا يقوى عليه الحمام وسباع الطير.

وقال أيضًا: ربما أتأمت الخفافيش (ولدت اثنين في بطن واحد Twins)، فتحمل معها الوليدين جميعًا؛ فإن عظما عاقبت بينهما.

وقال الجاحظ[٣٦]: عن شكل الجسم في الخفاش، وبخاصة صيوان الأذن Pinna، وهي ميزة الثدييات: لآذان الخفافيش حجم ظاهر وشخوص بين... وهي تلد وتحيض وترضع. وقال أيضًا: والخفاش له فم... فيه أسنان حداد صلاب مرصوصة من أطراف الحنك إلى أصول الحنك.

وإذا قبضت على الفرخ وعضت عليه لتطير به عرفت ذرب أسنانها، فعرفت أي نوع ينبغي أن يكون ذلك العض، فتجعله أزمًا، ولا تجعله عضًا ولا تنييبًا ولا ضغمًا، كما تفعل الهرة بولدها، فإنها مع ذرب أنيابها وحدة أظافرها ودقتها لا تخدش لها جلدًا، إلا أنها تمسكها ضربًا من الإمساك وتأزم عليها ضربًا من الأزم قد عرفته.

وقد تكلم الجاحظ عن بيئة الخفاش[٣٧]:

ومن أعاجيبها تركها ذرى الجبال وبسيط الفيافي وأقلاب النخل وأعالي الأغصان ودغل الرياض وصدوع الصخر وجزائر البحر، ومجيئها تطلب مساكن للناس وقربهم، ثمّ إذا صارت إلى بيوتهم وقربهم قصدت إلى أرفع مكان وأحصنه وإلى أبعد المواضع في مواضع الاجتياز.

وقد تكلم الجاحظ عن الخفافيش آكلة الثمار Pteropodidae[٣٨]: الخفاش يأتي الرمانة، وهي على شجرتها، فينقب عنها فيأكل كل شيء بها حتى لا يدع إلا القشر وحده.

الكلاب:

ينتمي الكلب الداجن Canis familiaris إلى العائلة الكلبية Canidae، وقد تكلم الجاحظ[٣٩] عن قدرات الشم لدى الكلاب وقدرات الكلاب الفائقة في الصيد.

إنّ المكلب يخرجه إلى الصيد في يوم الأرض فيه ملبسة من الجليد ومغشاة بالثلج، قد تراكم عليها طبقًا على طبق...حتى لا يثبت عليها قدم ولا خف ولا حافر ولا ظلف... فيمضي الكلاب بالكلب، وهو إنسان عاقل، وصياد مجرب، وهو مع ذلك لا يدري أين جحر الأرنب من جميع بسائط الأرض، ولا موضع كناس ظبي ولا مكو ثعلب (جحر الثعلب)، ولا غير ذلك من موالج (مداخل) وحوش الأرض، فيتخرق الكلب (يشتد عدوه) بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله ويتشمم ويتبصر، فلا يزال كذلك حتى يقف على أفواه تلك الحجرة،

وحتى يثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها... وذلك خفي غامض. لا يقع عليه قابض... إلا الكلب الصائد الماهر... وعلى أنّ للكلب في تتبع الدّراج والإصعاد خلف الأرانب في الجبل الشاهق من الرفق وحسن الاهتداء والتأني ما يخفى مكانه على البيازرة والكلابين.

وقد تكلم الجاحظ عن بيولوجية التكاثر لدى الكلاب، وهي تشمل السلوك الجنسي Sex behaviour، والحمل Pregnancy[٤٠]:

قال: والكلب ينزو إذا تمت له ستة أشهر، وربما كان ذلك منه وهو ابن ثمانية أشهر. والكلبة الأنثى تحمل واحدا وستين يومًا، وأطول ما يكون، ولا تضع قبل أن يتم حملها ستون يومًا، والأنثى تصلح أن ينزى عليها بعد ستة أشهر.

وقال: وذكور الكلاب تهيج قبل الإناث في السن، والإناث تهيج قبلها في وقت حركتها.

وقال: الكلب السلوقي يسفد إذا كان ابن ثمانية أشهر، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية، وذلك عند شغور الذكر ببوله، والكلبة تحمل من نزو واحد.

وقال: والكلبة السلوقية تحمل سدس السنة ستين يومًا، وربما زادت على ذلك يومًا أو يومين. والجرو إذا وضع يكون أعمى اثنى عشر يومًا ثم يبصر، والكلبة تسفد بعد وضعها في الشهر الثاني، ولا تسفد قبل ذلك. ومن إناث الكلاب ما تحمل خمس السنة، يعني اثنين و سبعين يومًا، وإذا وضعت الجراء تكون عمياء اثنين وعشرين يومًا.

وقال: إنّ إناث الكلاب تحيض في كل سبعة أيام، وعلامة ذلك ورم أثفارها، ولا تقبل السفاد في ذلك الوقت، بل في السبعة التي بعدها؛ ليكون ذلك تمام أربعة عشر يومًا أكثر ما يكون، وربما كان كذلك لتمام ستة عشر يومًا.

وقال[٤١]:

وأكثر ما تضع الكلبة اثنا عشر جروًا، وذلك في الفرط، وأكثر ذلك الخمسة والستة وربما وضعت واحدًا. فأما إناث السلوقية فهي تضع ثمانية أجراء. وإناثها وذكورها تسفد ما بقيت، ويعرض للكلاب السلوقية عرض خاص: وهي أنها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد.

وقد تكلم الجاحظ عن الجماع Copulation لدى الكلاب[٤٢]: ليس في الأرض شيئان يتشابكان من فرط إرادة كل واحد منهما لطباع صاحبه، حتى يلتحم عضو الذكر بعضو الأنثى، حتى يصير التحامهما التحام الخلق والبنية لا كالتحام الملامسة والملازمة، إلا كما يوجد من التحام قضيب الكلب بثغر الكلبة.

وقد تكلم الجاحظ عن الرضاعة Lactation لدى الكلاب[٤٣]:

قالوا: وإناث الكلاب... لبنها يظهر في أطبائها قبل أن تضع بخمسة أيام، أكثر ذلك، وربما كثر اللبن في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام، وربما كان ذلك في مقدار أربعة أيام. ولبنها يظهر ويجوز إذا وضعت من ساعتها. قال: فأما السلوقية فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يومًا، ويكون لبنها أول ما تضع غليظًا، فإذا أزمن رقّ ودق. ولبن الكلاب يخالف لبن سائر الحيوانات بالغلظ، بعد لبن الخنازير والأرانب.

القط المنزلي:

تكلم الجاحظ عن القط المنزلي Felis domestica الذي ينتمي إلى عائلة السنوريات Felidae، حيث أشار إلى الأصوات التي تولّدها Vocalization، وعدّها لهجة أو لغة بين عالم القطط (السنانير)[٤٤]:

فإذا صرت إلى السنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير، ومتى أحببت أن تعرف ذلك فتسمع تجاوب السنانير، وتوعد بعضها لبعض في جوف الليل، ثم أحصى ما تسمعه وتتبعه، وتوقف عنده، فإنك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات و العقول والاستطلاعات، ثم ألفتها لكانت لغة صالحة الموضع متوسطة الحال.

وقد أشار الجاحظ إلى بعض المظاهر السلوكيّة والأفعال الانعكاسية التي تؤديها القطط مثل العطاس Sneezing والتثاؤب Yawning[٤٥]:

السنور... إنه يعطس، ومنها أنه يتثاءب...وإنه يتمطّى ويغسل وجهه وعينيه بلعابه.

وتكلم الجاحظ عن حدّة البصر Vision لدى القطط[٤٦]: والسنور ثاقب البصر بالليل. كما تكلم الجاحظ عن الهياج الجنسي لدى السنانير[٤٧]، وبيولوجية الحمل[٤٨]، كذلك عن سلوك القطط في أكل صغارها[٤٩]: الهرة تأكل صغارها. وأن ذلك يُعرف بسلوك إنهاء الجراء Pup Termination Behaviour.

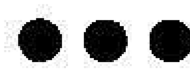
وقد تكلم الجاحظ عن سلوك الأمهات Maternal Behaviour في نقل صغارها[٥٠]: والهرة تنقل أولادها في المواضع من الخوف عليها. ولا سبيل لها في حملها إلا بفمها. وهي تعرف دقّة أطراف أنيابها، وذرب أسنانها، فلها بتلك الأنياب الحداد ضرب من القبض عليها، والعض لها، بمقدار تبلغ به الحاجة، ولا تؤثر فيها ولا تؤذيها.

وقد تكلم الجاحظ عن مظاهر تشريحيّة تخص الغدد اللبنية Mammary Gland[٥١]:

قال: وللهرة ثمانية أطباء، أربع تقابل أربعة أولهن بين الإبط والصدر وأخرهن عند الرّفغ وتحمل خمسين يومًا وتضع جراءها عميًا.

الخاتمة:

في ضوء تلك المعطيات العلمية العميقة يتضح لنا أنّ الإنجازات العلميّة التي تحققت على أيدي العلماء المسلمين خلال عصور الحضارة الزاهرة هي جواهر علمية فذّة، تشهد دائمًا بأصالة الإنجازات العلميّة في مجال التاريخ الطبيعي Natural History، وتوثق بجدارة دور العلماء من هذه المنطقة في العالم في كتابة تاريخ علوم الحياة من خلال توثيق خطوات الإنجازات العلميّة التي تراكمت على مدى قرون عديدة من البحث المتواصل والتوثيق الدقيق للمعطيات العلميّة عن عالم الأحياء والطبيعة في المنطقة العربية. ■



الحواشي

١- النور:٤٥.

٢- الأنعام:٣٨.

٣- الزمر: ٦.

٤- النور:٤٥.

٥- الغاشية:١٧.

٦- المؤمنون:٢١.

٧- النور:٤١.

٨- النمل:١٦.

٩- كتب الحيوان عند العرب، وكتب عجائب المخلوقات في الأدب العربي.

١٠- راجع: مقدمة تاريخ علوم الحياة في الحضارة الإسلامية.

١١- الحيوان:٦/٤٤١

١٢- الحيوان: ٣/٢٥٩.

١٣- الحيوان: ٣/٢٦١.

١٤- الحيوان: ٤/١٠١.

١٥- راجع: مقدمة تاريخ علوم الحياة في الحضارة الإسلامية.

١٦- الحيوان:٤/١٤٥.

١٧- الحيوان:٧/٦٩.

١٨- الحيوان:٦/١١٧.

١٩- الحيوان:٦/١٢٠.

٢٠- الحيوان:٦/٥٧.

٢١- الحيوان:٦/٧٦.

٢٢- الحيوان:٦/٧٤.

٢٣- راجع: علم بايولوجيا الفقاريات.

٢٤- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات.

٢٥- الحيوان:٤/١٥٣.

٢٦- الحيوان:٤/١١٦.

٢٧- الحيوان:٤/١٧٥.

٢٨- الحيوان:٤/١٧٠.

٢٩- الحيوان:٤/٢٢٣.

٣٠- الحيوان:٤/١٧٣.

٣١- القانون في الطب.

٣٢- حياة الحيوان الكبرى.

٣٣- راجع: مقدمة تاريخ علوم الحياة في الحضارة الإسلامية.

٣٤- الحيوان: ٣/٢٥٦.

٣٥- الحيوان: ٣/٥٣٠.

٣٦- الحيوان: ٣/٥٢٩.

٣٧- الحيوان: ٣/٥٣٢.

٣٨- الحيوان: ٣/٥٣٨.

٣٩- الحيوان: ٢/١١٩.

٤٠- الحيوان: ٢/٢١٩.

٤١- الحيوان: ٢/٢٢١.

٤٢- الحيوان: ٢/٥٧.

٤٣- الحيوان: ٢/٢٢١.

٤٤- الحيوان: ٥/٢٢٨.

٤٥- الحيوان: ٥/٢٩٠.

٤٦- الحيوان: ٥/٣٣٦.

٤٧- الحيوان: ٥/٣١٢.

٤٨- الحيوان: ٥/٣١٨.

٤٩- الحيوان: ٥/٣١٧.

٥٠- الحيوان: ٥/٣٤٦.

٥١- الحيوان: ٥/٣٤٤.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- **الحيوان**، لعمرو بن بحر الجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨.

٣- **حياة الحيوان الكبرى**، لكمال الدين الدميري، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٦٧هـ.

٤- **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، لزكريا القزويني، تح. فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨.

٥- **مقدمة تاريخ علوم الحياة في الحضارة العربية الإسلامية**، لمحمد حسن الحمود، مكتبة الرسالة، عمان، ١٩٩٧م.

٦- **القانون في الطب**، لابن سينا، أوفست المثنى، بغداد، د.ت.

٧- **كتب عجائب المخلوقات في الأدب العربي**، لمحمد باقر علوان، مجلة المورد:٣

(٢): ٢٣٥ -٢٤٢، بغداد، ١٩٧٤.

٨- **كتب الحيوان عند العرب**، لمحمد باقر علوان، مجلة المورد: ١ (٣-٤) ٢٤ -٣٤، بغداد، ١٩٧٢.

من نفائس المخطوطات الليبية:
كتاب تذييل المعيار
للشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري
١٠٥٨ـ١١٣٩هـ/ ١٦٤٨ـ١٧٢٦م

د. جمعة محمود الزريقي
طرابلس الغرب - ليبيا

يعدّ كتاب تذليل المعيار من المؤلفات القيمة في مجال النوازل، وقد قام بتأليفه أحد علماء مدينة طرابلس الغرب، وهو في الفتوى على مذهب الإمام مالك رحمه الله، والكتاب لا يزال مخطوطًا حتى الآن، وبسبب تلك الأهمية رأيت التعريف به من خلال وصف المخطوط، وترجمة مؤلفه، وعلاقته بكتاب المعيار للونشريسي، وتسليط الضوء على الكتاب، وبيان منهجه ومحتوياته، والفائدة التي يضيفها للمكتبة الإسلامية، وقد شرعت في تحقيقه منذ مدة، فأرجو من الله الإعانة على الإتمام.

أولا: المخطوط:

منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أبحث عن نسخ هذا المخطوط، حيث لا يوجد منه سوى نسخة واحدة محفوظة بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، وهي تتكون من مجلدين، المجلد الأول مبتور الأول، بدايته من مسائل الاستقبال (استقبال القبلة)، ونهايته بداية كتاب البيوع، أما المجلد الثاني، فيبدأ من كتاب البيوع إلى نهاية الكتاب، والمجلد الثاني توجد منه نسخة مصورة بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، الإمارات العربية المتحدة.

يتضمن الجزء المبتور من الكتاب مقدمة

المؤلف ومسائل الطهارة، وهي عادة ما تبدأ بها كتب الفقه، وكذلك كتاب المعيار للونشريسي الذي وضع الكتاب ليكون ذيلاً له، ومن ثمَّ لم نصل إلى مقدمة المؤلف التي عادة ما يذكر فيها اسم الكتاب والباعث على التأليف، أو الغرض منه، ومنهجه في التأليف، أو الطريقة التي اختارها في الكتابة، والمصادر التي اعتمد عليها، وربما ذكر الرغبة التي تلقاها لتأليفه، أو أنه قام بإهدائه إلى أحد الحكام أو العلماء، على ما جرت به عادة المؤلفين في تلك الآونة.

وتشاء المصادفات أن نجد مخطوطًا آخر في الفتوى لمؤلف مجهول نقل عن كتاب تذليل المعيار فصولاً كثيرة، منها مسائل العقيدة والتصوف، ومنها مسائل الطهارة، وهي عشرة فصول، كل فصل يضم مجموعة من المسائل الخاصة بالطهارة، وفي هذا المخطوط - على الرغم من عدم وجود اسم مؤلفه - إشارة واضحة إلى أنه نقل هذه المسائل عن كتاب تذييل المعيار، وآخر مسائله كانت في باب الجنائز، وردت بلفظها في نسخة الكتاب المشار إليها سابقًا، وبهذا المخطوط تم تغطية النقص في المجلد الأول من الكتاب، كما تم العثور على نسخة أصلية من الكتاب تبدأ من باب القسمة إلى نهاية الكتاب، وهي أيضًا لم يذكر فيها اسم المؤلف، إلا أننا بالموازنة مع مسائل الكتاب وجدناها مطابقة له، وهذه النسخة تغطي ثلث الكتاب بالكامل.

هذا كل ما وجدناه من هذا الكتاب، وهو في مجموعه يعدّ متكاملاً، لا ينقصه إلا مقدمة المؤلف، غير أنّ أغلب المصادر التي اعتمد عليها المؤلف لا تزال مخطوطة هي الأخرى، أو مطبوعة طباعة حجرية، إضافة إلى كتب الفقه التراثية التي تم تحقيقها، ولولا وجود هذه المصادر لكان تحقيق الكتاب اعتمادًا على نسخة واحدة من أصعب الأمور في تحقيق التراث، وبالاستعانة بهذه المصادر نأمل أن نصل إلى نص الكتاب كما وضعه المؤلف، أو في أقرب صورة له بإذن الله تعالى، بعد الانتهاء من تحقيقه؛ لأنّ الجهود التي بذلت في الحصول على نسخة أخرى في الداخل والخارج لم تصل إلا للنتائج التي ذكرتها سابقًا.

ثانيًا: التعريف بمؤلف الكتاب:

هو الشيخ الفقيه عبد السلام بن عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد السلام الأسمر، وقد اشتهر باسم الشيخ عبد السلام العالم التاجوري[1]، ولد في إحدى قرى مدينة تاجوراء سنة ١٠٥٨هـ الموافق ١٦٤٨م، بدأ تعليمه في زاوية مكرم، حيث تلقى مبادئ الكتابة، ثم تتلمذ على بعض الشيوخ من معلمي القرآن الكريم واللغة العربية في تاجوراء، منهم الشيخ عبد الله الحمروشي، والشيخ محمد عربي، وبعد حصوله على قسط وافر من التعليم انتقل إلى مدينة طرابلس سنة ١٠٧٤هـ الموافق ١٦٦٤م، وفيها تلقى العلم على علماء مدينة طرابلس، منهم الشيخ أحمد المكنى مفتي طرابلس الغرب (١٠٤٢-١١٠١هـ) والشيخ محمد بن مقيل مفتي طرابلس أيضًا (١٠٥٤-١١٠١هـ)، وعلى غيرهما من علماء طرابلس وتاجوراء، ثم انتقل مع أسرته للسكن في مدينة طرابلس سنة ١٠٧٧هـ الموافق ١٦٦٧م، والتحق بزاوية سيدي سالم المشاط؛ حيث تلقى العلم على الشيخ أبي راوي بن محمد الدوفاني بن عمران بن عبد السلام الأسمر (١٠٤٣-١٠٨٨هـ)،

كما درس على الشيخ علي الفرجاني، وهو من علماء تونس، وعلى غيره من العلماء الذين ترجم لهم في كتابه فتح العليم؛ حيث ذكر جميع شيوخه والعلماء الذين تلقى عنهم أو اجتمع بهم[٢].

كانت للشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري لقاءات عديدة مع علماء من المشرق والمغرب، وقد تمت في طرابلس الغرب؛ حيث كان علماؤها يستقبلون كل عالم يزور البلاد بما يليق به من تقدير واحترام، ويلتقون حوله من أجل الاستفادة العلميّة، وبخاصة ممن شاعت مؤلفاتهم، أو وصلت شهرتهم إلى خارج أوطانهم، منهم على سبيل المثال الشيخ الإمام أبو الحسن علي اليوسي، وهو من كبار علماء المغرب، في أثناء رحلته للحج، والشيخ محمد بن ناصر الدرعي، والشيخ علي النوري السفاقسي، وكذلك العلماء الذين استقروا في طرابلس، منهم الشيخ محمد الإمام الجزائري.

كما كانت له لقاءات مع علماء مشارقة في أثناء رحلته للحج صحبة شيخه محمد بن مقيل، منهم الشيخ خليل بن الشيخ إبراهيم اللقاني محدث مصر، والشيخ عبد الباقي الزرقاني شارح المختصر، والشيخ محمد الخرشي، وقد حضر عليهم بعض الدروس خلال إقامته القصيرة في مصر، وغيرهم ممن ذكرهم في خاتمة كتابه فتح العليم تفصيلاً، وبذلك صارت له مكانة علميّة مرموقة، استحق معها لقب العالم[٣].

ذلك فيما يخص شيوخه وتحصيله العلمي، أما مؤلفاته، فقد نسبت إليه المصادر عدّة مؤلفات منها:-

١- كتاب فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام ابن سليم، وهو ترجمة لحياة جده المتصوف الكبير، الشيخ عبد السلام الأسمر.

٢- كتاب تذييل المعيار، في النوازل والفتوى.

٣- شرح على مختصر خليل، أو كتابة على المختصر.

٤- كتاب الإشارات لبعض ما في طرابلس من المزارات.

٥- أجوبة علي الفاسي.

٦- الوصية الكبرى، وهذه الكتب بعضها موجود والآخر لم يعثر عليه حتى الآن، فالموجود منها كتاب فتح العليم وكتاب تذييل المعيار، وكلاهما لا يزالان مخطوطين، وكتاب الإشارات طبع أكثر من مرّة، منها طبعة مترجمة إلى اللغة الإيطالية، أما الكتب الثلاثة الأخرى فلمّا يعثر عليها بعد.

ثالثاً: علاقة الكتاب بالمعيار للونشريسي:

ورد اسم الكتاب (تذييل المعيار) ونسبته لمؤلفه في أقدم مصدرين للتاريخ الليبي، التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار، لابن غلبون، وهو معاصر للمؤلف، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لأحمد النائب، وعنهما نقلت المصادر الحديثة، ومن المؤسف أنّ النسخة الوحيدة المعروفة لهذا الكتاب، المحفوظة في مكتبة الأوقاف بطرابلس سابقًا، والتي ضمت إلى مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخيّة، هي مبتورة الأول، ولهذا لم نتمكن من التأكد من الاسم الذي ورد بها، إلا أنّ ذلك لا ينفي تسمية الكتاب، ونسبته لمؤلفه الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري.

ربط المؤلف كتابه بكتاب المعيار المعرب والجامع المغرب من فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، والمعروف اختصارًا باسم المعيار، ولعلّه قصد بهذه التسمية أن يستدرك عليه زمنيًّا بفتاوى أهل إفريقية بمن جاء بعد عصره، وكتاب المعيار من تأليف العالم الجليل أبي عبد الله أحمد ابن يحيى الونشريستي، وهو من كبار العلماء في الغرب الإسلامي، ولد بالجزائر نحو ٨٣٤هـ - ١٤١٣م، ونشأ في تلمسان، وتلقى العلم على فقهاء المغرب الأوسط، وبعد بلوغه سن الأربعين انتقل إلى فاس، وأخذ على بعض علمائها، ثم تولى التدريس بها، وألّف مجموعة من الكتب القيّمة من أشهرها كتاب المعيار، وتوفي في فاس سنة ٩١٤هـ[٤].

يضم معيار الونشريسي مجموعة كثيرة من الفتاوى الصادرة عن علماء المالكية في المسائل التي عرضت عليهم، وأغلبها، إن لم نقل جميعها، لحوادث وقعت بين الناس في زمن الونشريسي وقبله، وهي ليست مسائل فقهية افتراضية، ولهذا يطلق عليها النوازل لوقوعها فعلاً، وقد صدرت تلك الفتاوى عن فقهاء قدامى ومتأخرين من فقهاء المالكية في الغرب الإسلامي، من تلاميذ الإمام مالك إلى شيوخ الونشريسي وأقرانه المعاصرين، وقد اعتمد المؤلف على ما تضمه مدينة فاس من مكتبات ضخمة، فيها الكثير من اجتهادات فقهاء المغرب والأندلس، أما فتاوى فقهاء المغرب الأوسط والأدنى، فقد اعتمد في نقلها على مصادر قليلة، منها: نوازل البرزلي القيرواني (ت٨٤٤هـ)، وكتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، للقاضي المغيلي (ت٨٨٣هـ)[٥]، كما يضم الكتاب مجموعة من الأبحاث والمؤلفات والرسائل الصغيرة في مواضيع محددة، ولهذا لا نجد في معيار الونشريسي فتاوى صادرة عن فقهاء القطر الليبي، إلا من انتقل منهم للعيش في تونس أو الجزائر، أمثال العالم الجليل الشيخ أحمد بن نصر الداوودي (ت٤٠٢هـ)، والعالم الجليل الشيخ عبد الحميد بن أبي الدنيا الصدفي (ت٦٨٤هـ)، وقد يكون ذلك سببًا في تأليف كتاب تذييل المعيار، والاستدراك عليه، حتى يغطي النقص الوارد في معيار الونشريسي، لعدم نقله للمسائل التي أفتى فيها فقهاء طرابلس في تلك المدة، وهذا احتمال ضئيل؛ إذ ربما يكون الباعث على تأليف الكتاب جمع الفتاوى التي قيلت في النوازل التي وقعت في الغرب الإسلامي واجتهادات علماء المالكية فيها، وهو الأرجح في ذلك.

رابعًا: منهج المؤلف في الكتاب:

سار مؤلف كتاب تذييل المعيار على المنهج الذي وضعه الشيخ الونشريسي في تأليف كتاب المعيار، ومن ثم قام بجمع مادة الكتاب من فتاوى علماء المالكية المعاصرين له أو التاليين لعصر الونشريسي، ولم ينقل عن المعيار أيّ مسألة إلا إذا وردت ضمن إجابة أحد شيوخ الفتوى، وهو نقل استلزمه نقل الفتوى بكاملها، وقام بتقسيم الموضوعات إلى أبواب وكتب ومسائل وفصول، وهو لم يلتزم نهجًا واحدًا في التسمية، فمع الأبواب، توجد أبواب جامعة، وكذلك كتب جامعة، كما أنه لم يلتزم مصطلح النوازل كما جرت به عادة المؤلفين في فقه الفتاوى وجمعها، واستعمل بدلاً منها كلمة مسائل، وهي مرادفة لها، ومن قواعد التأليف قديمًا أن يضع المؤلف بابًا جامعًا في نهاية الكتاب يخصصه للمسائل التي لا تندرج تحت

من نفائس المخطوطات الليبية: كتاب تذييل المعيار للشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري ١٠٥٨-١١٣٩هـ/ ١٦٤٨-١٧٢٦م

الأبواب السابقة، ولكنها ضرورية لا يستغنى عنها.

وقد سلك المؤلف ذلك النهج على الرغم من أنه صنف ثلاثة أبواب جامعة هي: باب جامع في الصلاة، وباب جامع لمسائل من الخلع وتوابعه، وباب جامع لمسائل البيوع، إضافة إلى ما فيه من أبواب، ثم وضع في نهاية الكتاب كتابًا جامعًا لمسائل متفرقة من أبواب شتى، ضمنه تأليفًا في آداب القرآن وتلاوته وكيفية إنزال القرآن وأخذ الصحابة، وعلى غرار معيار الونشريسي نقل تأليفًا لسيدي العربي الفاسي في شهادة اللفيف، ومسائل أخرى انتقاها من عدة مصادر.

ونقل هذه الرسائل الصغيرة مما لا يُستغنى عنه في كتب النوازل السابقة على تذييل المعيار واللاحقة عليه كالمعيار الجديد للوزاني، حيث يقوم المؤلف بنقل المباحث والرسائل والتآليف الصغيرة ضمن كتابه إذا تعلقت بالموضوع الذي يعالجه، أو تعلقت الفتوى به، ومثال ذلك ما فعله الشيخ عليش في كتابه فتح العلي المالك، حيث أجاب عن سؤال وجه إليه، فنقل في إجابته كتاب الشيخ محمد بن عبد الرحمن الحطاب (ت٩٥٤هـ) الذي وضعه في مسائل الالتزام[٦]، كما نقل بعض مسائل وردت في عدّة مصادر على الرغم من أنها ليست متخصصة في الفتوى، كرحلة العياشي مثلاً، وهي من ضمن الفتاوى التي رآها صالحة لتكون في مؤلفه.

لم يقتصر المؤلف على نقل فتاوى بعض المناطق في الغرب الإسلامي فقط، وإنما غطى بمؤلفه كل المناطق التي يوجد بها فقهاء المالكية، وتصدر عنهم الفتوى، كالأزهر الشريف مثلاً، حيث نقل عن عدة علماء من مصر، منهم على سبيل المثال الشيخ علي الأجهوري، وعن عدّة علماء من ليبيا، على رأسهم الشيخ محمد بن مقيل الكبير، شيخ المؤلف ومفتي طرابلس آنذاك، وعن الشيخ أبي القاسم عظوم مفتي القيروان، وهو من كبار علماء تونس، وعن الشيخ يحيى الشاوي من الجزائر، وهو على علاقة مع علماء طرابلس آنذاك، وقد أقام مدة في الأزهر الشريف، وعن علماء المغرب الأقصى، وبخاصة الشيخ عبد القادر الفاسي، الذي اشتهر بالإفتاء في ذلك العصر[٧]، وبهذا يتميّز كتاب تذييل المعيار للتاجوري عن معيار الونشريسي، جغرافيًّا بجمعه لفتاوى علماء شمال إفريقية من المالكية، وزمنيًّا كون الفتاوى كانت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

خامسًا: الأبواب الفقهية التي يضمها الكتاب:

تبدأ النسخة الموجودة من الكتاب بمسائل الاستقبال، والمقصود بها النوازل الخاصة باستقبال القبلة، وهذه المسائل لم يفرد لها الونشريسي بابًا مستقلاً، إنما وردت في نوازل الصلاة، كما لم يفرد لها الوزاني بابًا أو فصلاً في كتاب المعيار الجديد،ولكن التاجوري وضعها في فصل مستقل، ولكن هذه المسائل لم تكن بداية كتاب تذييل المعيار، فقد كشفت نسخة الكناش مجهولة المؤلف، التي تم الاستعانة بها في تغطية الجزء المبتور أنّ الكتاب يبدأ بمسائل في العقيدة والتصوف، حيث نقل صاحب الكناش عدّة مسائل لا علاقة لها بأبواب بقية الكتاب وفصوله، التي جاءت مطابقة لكتاب المعيار للونشريسي، ولعلّ هذه المسائل المتعلقة بالتصوف هي التي كانت

سبباً في النقد الذي وجهه المؤرخ محمد بن غلبون للكتاب، حيث قال عن مؤلفه: "إنه ألف كتاباً في الفتاوى زعم به أنه ذيل به المعيار وجمع فيه من الغث والسمين شيئًا لم يسبق به[٨].

يضم الكناش الذي يغطي الجزء المبتور من النسخة المتوافرة للكتاب مسائل في العقيدة والتصوف، ثم كتاب الطهارة، ويضم : مسائل المياه، ومسائل الطاهر والنجس، وما يتعلق بهما، ومسائل إزالة النجاسة، ومسائل الوضوء، ومسائل قضاء الحاجة، ومسائل نواقض الوضوء، ومسائل الغسل، ومسائل التيمم، ومسائل الأوقات، ثم كتاب من مسائل نواقض الوضوء، ومسائل الغسل، ومسائل التيمم، ومسائل الأوقات، ثم كتاباً من مسائل الصلاة، وفي هذا الكتاب تداخل مع المجلد الأول مما يؤكد أنّ مسائل الكناش نقلت من كتاب تذييل المعيار، ويتكون الكناش من خمس وخمسين لوحة.

أما المجلد الأول، فيضم: مسائل الاستقبال، ومسائل فرائض الصلاة، ومسائل القيام، وباب جامع في الصلاة، ومسائل الاستخلاف، ومسائل قصر الصلاة، ومسائل الجمع في السفر، ومسائل الجمعة، ومسائل العيدين والاستسقاء والكسوف، ومسائل الجنائز، وفصل في كيفيّة تغسيل الميت، وكتاب الزكاة ، ومسائل مصرف الزكاة، ومسائل زكاة الفطر، وكتاب الحج ، وكتاب مسائل الذكاة، وكتاب الأطعمة والأشربة، وكتاب الأضحية والعقيقة، وكتاب مسائل الإيمان والنذور، ومسائل الجزية، وكتاب النكاح وتوابعه، ومسائل الصداق ومسائل الجهاز، ومسائل الوليمة، ومسائل القسم للزوجات، ومسائل النشوز، وباب جامع لمسائل من الخلع وتوابعه، وكتاب الطلاق، وكتاب المفقود والغائب والمعسر بالنفقة، وكتاب النفقات، وكتاب الرضاع، وكتاب الحضانة، وكتاب البيوع، وهو آخر المجلد الأول الذي يضم ٣٣٩ صفحة.

أما المجلد الثاني، فيبدأ بباب جامع لمسائل البيوع، ومسائل السلم، ومسائل القرض، وكتاب الرهن، وكتاب التفليس، وكتاب الحجر، وكتاب الحوالة والضمان، وكتاب الشركة، وكتاب الإيداع (الوديعة) ، وكتاب العارية، وكتاب الوكالة، ومسائل في الاستلحاق، وكتاب الغصب والتعدي، وكتاب الشفعة، وكتاب القسمة، وكتاب القراض، ومسائل كراء الدواب، وكتاب الجعل والكراء، وكتاب إحياء الموت، وكتاب الوقف، وكتاب الهبة والصدقة وسائر التبرعات، وهبة الثواب، وكتاب القضاء، وكتاب الشهادات، ومسائل الحيازة، وكتاب الدماء، وكتاب البغي والحرابة، وكتاب الزنى، وكتاب القذف والسرقة، وكتاب الشرب، وكتاب العتق، وكتاب التدبير، وكتاب الولاء وكتاب الوصايا، وكتاب المواريث والفرائض، ثم كتاب الجامع لمسائل متفرقة من أبواب شتى، الباب الأول في ذكر آداب تلاوة القرآن الكريم، الباب الثاني في ترتيب السور، الباب الثالث في كيفيّة نزول القرآن، الباب الرابع في أخذ الصحابة القرآن، ثم نقلُ تأليف صغير لسيدي محمد العربي الفاسي في شهادة اللفيف، وفي نهاية الكتاب نقل المؤلف مسائل فقهيّة طويلة وردت في رحلة العياشي، ويضم هذا المجلد ٥٣٢ صفحة.

سادساً: الفائدة التي يضيفها للمكتبة الفقهيّة:

يلاحظ أنّ كتب النوازل والفتاوى لا يخلو منها

عصر أو مصر، أو مذهب فقهي إسلامي، وفي مدرسة الفقه المالكي الكثير منها، إلا أنها تكاد تكون مقصورة على فتاوى فقيه واحد، كمسائل ابن رشد مثلاً، أو أنها تضم إلى جانب نوازله نوازل بعض فقهاء عصره كنوازل البرزلي، أو أنها تقتصر على فتاوى بلد معين، كنوازل مازونة، أو أنها تكون مستندة إلى تجارب شخصية، كالنوازل القضائية، ومثال ذلك كتاب مجالس القضاة والحكام والتنبيه والإعلام فيما أفتاه المفتون وحكم به القضاة من الأوهام، للقاضي أبي عبد الله محمد المكناسي[٩]، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

غير أنّ الكتب الجامعة لمسائل الفتوى على مستوى انتشار المذهب المالكي ثلاثة كتب هي:

الكتاب الأول: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وهو من تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت ٩١٤هـ)، وقد غطى به اجتهادات فقهاء المالكية من عصر الإمام مالك إلى بداية القرن العاشر، والكتاب الثاني: هو كتاب تذييل المعيار موضوع هذه الدراسة الذي ألفه الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري (ت١١٣٩هـ)، وقد غطى به اجتهادات الفقه المالكي في مجال الفتوى من القرن العاشر- وربما قبله بقليل - إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري، أما الكتاب الثالث: فهو كتاب المعيار الجديد (أو النوازل الجديدة الكبرى) الذي ألفه الشيخ أبو عيسى محمد المهدي الوزاني من علماء فاس (١٢٦٦-١٣٤٢هـ) جمع فيه فتاوى المتأخرين من علماء المغرب العربي، وعلى الأخص علماء فاس، وما حولها حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري، الموافق منتصف القرن العشرين؛ لأن وفاته كانت بتاريخ ١٣/٩/١٩٢٣م[١٠].

وقد تم طبع كتاب المعيار للونشريسي من قبل دار الغرب الإسلامي ونشرته أيضًا وزارة الأوقاف بالمغرب عام ١٤٠١هـ - ١٩٩١م، كما تم طبع كتاب المعيار الجديد طباعة حجرية سنة ١٣٢٩هـ الموافق ١٩١١م، وطبع من جديد من قبل وزارة الأوقاف بالمغرب ونشرته في اثني عشر مجلداً ما بين سنتي ١٩٩٦- ٢٠٠٠ عن طبعته الحجرية السابقة، وبذلك بقيت الحلقة المفقودة بين المعيارين القديم والجديد، وهو كتاب تذييل المعيار للتاجوري، فيجب نشره لكي يغطي الفتاوي التي صدرت خلال المدة الزمنية ما بين وفاة الونشريسي وبداية ما ورد في كتاب المعيار الجديد للوزاني؛ لتكون فتاوى فقهاء المالكية شاملة، وبخاصة أنّ هذه الكتب الثلاثة تسير على نهج واحد، وتضم أغلب أبواب الفقه، وتغطي العديد من مسائله على مر الأزمان الماضية.

يضاف إلى ذلك أنّ كتاب المعيار الجديد للوزاني تميز بكثرة المادة العلمية؛ لأنه نقل بعض الفتاوى التي صدرت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر إضافة إلى فتاوى عصره، وهو على الرغم من أنه أكثر شمولاً من كتاب المعيار للونشريسي في عدد الفتاوى، إلا أنه لم يكن بالإحاطة نفسها التي وردت في معيار الونشريسي، أو تذييل المعيار؛ لأنّ الوزاني كان مقلاً في نقل فتاوى المغرب الأوسط والمغرب الأدنى، وانصب أكثر اهتمامه على فقهاء فاس، يبدو ذلك واضحًا من التسمية الأولى للكتاب التي جاءت على النحو

الآتي: "النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى"، وهذه التسمية مدرجة على الطبعة الحجرية للكتاب، إضافة إلى التسمية الجديدة "المعيار الجديد الجامع المعرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب"، ويبدو أنّ هذه التسمية استحدثت عند الطباعة الحجرية للكتاب، ولم تكن عند التأليف[11]، أما كتاب تذييل المعيار، فقد جمع فيه مؤلفه الفتاوى الصادرة عن كبار فقهاء المالكية في شمال أفريقية بالكامل من مصر إلى المغرب الأقصى، وما بينهما من الأقطار.

وللكتاب فائدة أخرى مهمّة أضافها للمكتبة الفقهية، هي ذكر فتاوى العلماء الذين عاشوا في ليبيا، والذين ورد ذكرهم في المصادر التاريخيّة، منهم بعض فقهاء أهل البلاد أو الطارئين عليها من أقطار أخرى، فهؤلاء لا يوجد في السابق ما يدل على اجتهاداتهم العلميّة، وبهذا الكتاب - تذييل المعيار- أمكن الوقوف على الكثير من فتاواهم، ومن ثمّ تعرّف قدرتهم العلمية ومستواهم الفقهي، فقد تضمن الكتاب فتاوى عدد من علماء تونس وعلماء الجزائر وعلماء المغرب الأقصى الذين أقاموا في ليبيا واستقروا فيها إلى حين وفاتهم، رحمهم الله، فهؤلاء العلماء، وإن وجدت لهم تراجم في كتب تاريخ بلدانهم الأصلية، أغلب اجتهاداتهم كانت في المحيط الذي عاشوا فيه وتفاعلوا مع قضاياه، ومن ثم يكون هذا الكتاب مفيداً في بيان دورهم الفقهي في المسائل التي أفتوا فيها، أو اجتهدوا في حل مشكلاتها.

لا يخفى على القارئ الكريم أنّ الفتاوى تسير مع قضايا الناس، وتواكب التطورات التي تحدث للمجتمع الإسلامي، ولعلّ القاعدة المعروفة (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان) تدل على وجود الاختلاف في الفتوى من عصر إلى آخر، ومن بلاد إلى غيرها مراعاة لعاداتها وتقاليدها، وما جرى به العمل لديها، ومن ثمّ لن تكون آراء المفتين في ما جمعه الونشريسي في المعيار بطبيعة الحال كالآراء التي وردت في تذييل المعيار لاختلاف العصر والبيئة، وكذلك في المعيار الجديد، ونشر هذه الفتاوى على مختلف العصور تمكن القاضي والفقيه، والقانوني المعاصر، والقارئ العادي والباحث المتخصص من الوقوف على تطور الاجتهاد الفقهي في مجال الفتوى، وعلى القضايا المستجدّة في كل عصر ومواكبة الاجتهاد الفقهي لها بتقديم الحلول لمسائلها.

هذه باختصار ملامح هذا الكتاب (المخطوط)، ومنه يلاحظ القارئ أهمية هذا الكتاب والإضافة التي يوفرها في مجال الإفتاء والنوازل؛ لأنه يغطي مدة زمنية مهمَّة في تاريخ الفقه داخل المذهب المالكي، وتطوره في بلدان شمال أفريقية، ومن هنا تكمن أهمية تحقيقه ونشره لكي يستفاد منه في العديد من الدراسات الفقهية والاجتماعية والاقتصادية؛ لأنّ مجال الفتوى لا يقتصر على العبادات فقط، بل يشمل المعاملات في المناطق الإسلامية كافة، وهي أمور مستجدة، يواكبها الفقه بالإفتاء في كل حين، وأرجو الله تعالى أن يعينني في تحقيقه ويوفق في نشره، والحمد لله رب العالمين. ■

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]
كتاب القسمة تقدم في أول الباب [illegible]
قسمة الوكيل وغيره [illegible] عن قسمة
تركته كلها ولم يبق منها [illegible] ذ بنت له برسم
صداق امها على والدها صاحب [illegible] فاجاب اذا بقي ربع
الدار المخلف عن الاب المذكور [illegible] قسمة وحلفت البنت
المذكورة انها فما عثرت على [illegible] وامها صاحبة الدين المذكور
قضي لها بعد [illegible] او امها تخرج لها اذ لا من ثمن ربع
الدار المخلف [illegible] بهذا العدم بان ثمنه اعلى الميراث بهذا افتى
ابن [illegible] سليمان وعبد الله بن يحيى ومحمد بن لبابة وسعد بن
معاذ وغيرهم والله اعلم وبه التوفيق [illegible] بيله نقلت
هذا الفرع من باب التفليس من حواشي الشيخ ناصر الدين اللقاني
على التوضيح ونصه ما في الذي علي من احكام القاضي ابن سهل رحمه الله تعالى
وذكر فرعا ما اذا قسمت تركة الميت ولم يبق منها ما يقضي منه
دينه وانه يسقط فيما رد الدين بحضرة القسمة جميعها اذا
لم يكن له عذر يعذر به وذكر انه لا فرق بين قسمة ورثة الميت
وقسمة غرماء العدم بان الحق وسبب توجه اليمين عليها على
ما ذكر لاجل قول السائل في سؤاله لم يبق من مخلفاته كلها سوى ربع
الدار [illegible] المخلفات قسمت فيمكن ان يدعي عليها المذكورة
والرضى باقتطاع بعضها عند قسمة مخلفاته الا المذكورة بما عرف
وان في كلام ابن سهل توجه اليمين اذا قام رد الدين انه لم يعلم بالكتاب
او علم بالقيام وما ان يعتقد نصيبه من الدار [illegible] تسواها
وما لا يخفى وارد ذكر [illegible] من يحيى بن عمر العزيز وابن [illegible] حسبما
ذلك كله في كلام ابن سهل الا [illegible] واعرف [illegible] حاشية [illegible]
وسئل مولانا [illegible] عن مشتركين في عقار هل يقسم بالقيمة او
المساحة فاجاب يقسم العقار بالقيمة في قسمة القرعة ويجري بالتقويم

صورة الصفحة الأولى من النسخة الثانية

من نفائس المخطوطات الليبية: كتاب تذييل المعيار للشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري ١٠٥٨-١١٣٩هـ/ ١٦٤٨-١٧٢٦م

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

كتاب البيوع

صورة الصفحة الأولى من المجلد الثاني

الحواشي

١- انظر ترجمة المؤلف في كتاب التذكرة :٢٧٣، كتاب المنهل العذب: ٢٩٠، شجرة النور الزكية:١/٣١٨، معجم المؤلفين: ٥/٢٢٨، مواهب الرحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم:٣٤٦، أعلام ليبيا:٢١٩، مؤرخون من ليبيا: ٨٣-٢٧٩، دليل المؤلفين العرب الليبيين: ٢١٠-٢١١، كتاب تراجم ليبية:٢/٤٣-٦١.

٢- فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم تأليف الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، مخطوط، منه نسخ مخطوطة متداولة، عندي صورة منها.

٣- المصدر السابق، كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار:٢٧٣، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب:١/٢٩٠.

٤- مقدمة كتاب المعيار المعرب :د.

٥- المصدر السابق:٩.

٦- نقل الشيخ محمد عليش في كتابه فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك، كتاب الإمام محمد بن محمد ابن عبد الرحمن الخطاب، تحرير الكلام في مسائل الالتزام:٢١٧ إلى ٣٧٤ .

٧- كتاب تذييل المعيار، من عدة صفحات، وكتاب تراجم ليبية:٥٥.

٨- كتاب التذكار:٢٣٧.

٩- تم نشر الكتاب مؤخرًا في مركز جمعة الماجد بتحقيق الدكتور نعيم عبد العزيز الكثيري.

١٠- ترجم له عبد الحفيظ الفاسي شيوخه:٢٢/٤٨، معجم المطبوعات:١٩١٥، شجرة النور الزكية:١/٣٤٥، الأعلام:١/ ٣٣٥ -٣٣٦، معجم المؤلفين :١٢/٢٠, ، وله ترجمة في المنح السامية:١/٧، المعيار الجديد :١/٧.المعيار الجديد :١/٧.

١١- وافق على هذا الرأي الأستاذ العالم الجليل الشيخ عمر بن عباد الذي قام بتخريج الكتاب وضبطه وتصحيحه على النسخة الحجرية، وهو صديق عزيز كانت لي لقاءات كثيرة معه في أثناء إقامتي بالرباط لغرض الدراسة، ولا يزال التواصل مستمرًا بيننا.

المصادر والمراجع

١- **كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار**، تأليف الشيخ محمد بن غلبون، تح. الشيخ الطاهر الزاوي، ط٢، نشر مكتبة النور بطرابلس، ١٩٦٧م.

٢- **كتاب تذييل المعيار**، مخطوط يتكون من مجلدين، محفوظ بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخيّة، ومخطوط آخر مجهول المؤلف فيه مسائل من التذييل محفوظة أيضًا بالمركز نفسه، ونسخة أصلية من الكتاب، كتبت بعد خمس سنوات من وفاة المؤلف، وجدت في منطقة الخمس بليبيا، تبدأ من باب القسمة إلى نهاية الكتاب، احتفظ بها لحين الانتهاء من التحقيق.

٣- **كتاب فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم**، مخطوط توجد منه نسخ متداولة عند الخواص، وبالمكتبة الوطنية بتونس.

٤- **كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب**، للأستاذ أحمد النائب الأنصاري، الجزء الأول، ط١، نشر مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، د.ت. الجزء الثاني نشر بإشراف الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٦١م.

٥- **المعيار المعرب والجامع عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المتوفى بفاس سنة ٩١٤هـ، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٦- **النوازل الجديدة الكبرى**، المسماة بالمعيار الجديد،تألف المفتي بفاس أبو عيسى المهدي الوزاني، قابله وصححه الأستاذ عمر بن عباد، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب، ١٤٠٢/٢٠٠٠م.

علم الوثائق والتوثيق في تراثنا الإسلامي

مع تحقيق رسالة
التنبيه الفائق على خلل الوثائق
للحمزاوي



تحقيق

الدكتور / علي زوين
بغداد - العراق



بسم الله الرحمن الرحيم

علم الوثائق والتوثيق من العلوم التي انتقلت إلينا من أوربا بحسب الاصطلاح الدّال على مفهوم الوثيقة وسبل توثيقها. ومن المؤكد أنه لا يوجد علم بهذا المسمى في تراثنا العربي والإسلامي، إلا أنه من المؤكد أيضًا أنَّ انتقاء التسمية لا يعني عدم وجود موضوعات العلم نفسه في هذا التراث. وسنحاول دراسة جوانب متنوعة تحققت فيها موضوعات علم الوثائق ومناهج التوثيق عند علماء المسلمين.

"ونبدأ بتعريف (التوثيق) اصطلاحًا في مفهومه الحديث، فقد عرف بأنه" جمع الوثائق والمستندات ونقدها وتمحيصها وتقديمها للناس في صورة أقرب ما تكون إلى الأصل الذي صدر عن صاحبها الأول"[١]. ويعرف علم الوثائق في اللغات الأوربية بعلم الدبلوماتيك (Diplomatics). وهو في الاصطلاح: العلم الذي يتناول بالدراسة النقدية المصادر الأوربية الرسمية للتاريخ، وعلى الأخص تلك المصادر التي تكتنفها الشكوك، ويثار حول صحتها الجدل والاعتراضات كالدساتير والبراءات والمراسيم والمعاهدات والاتفاقيات والوثائق الشرعية... وغير ذلك من الوثائق التي تحفل بها الأديرة والكنائس وقصور الأرياف والدفاتر والسجلات ذات الصفة الشخصية، التي اعتادت العائلات على الاحتفاظ بها"[٢].

فعلم هذا شأنه يدرس مواد التاريخ، أو بعبارة أخرى المصادر الماديّة للتاريخ، وبه يتخذ التاريخ لنفسه منهجًا علميًّا في التحليل والنقد والبحث عن الحقائق.

ولا بد لكل علم من هدف يسعى إليه، والهدف المتوخى من علم الوثائق والتوثيق هو "تقديم الوثيقة محققة خالية من كل دس وتزوير صحيحة النسبة إلى عصرها وصاحبها"[٣].

وتقتضي دراسة الوثيقة أمورًا، منها: دراسة المادة التي كتبت فيها، كالورق والبردي والرق والقماش، ودراسة علامات الإثبات كالأختام والتوقيعات، ودراسة الخط لمعرفة التاريخ الذي كتبت فيه الوثيقة. وينتقل الباحث بعد ذلك إلى دراسة لغة الوثيقة وفحواها كالصيغ والعبارات، مثل عبارات الافتتاح والختام... إلخ.

ومن أنواع الوثائق: شواهد القبور والأبنية والنقود والألبسة والسجلات الرسمية والوثائق السياسية والروايات والملاحم والقصص والأقوال المأثورة والتصاوير التي تمثل المشاهد التاريخية والشعائر الدينيّة...إلخ.

---

(١) التوثيق، تاريخه وأدواته: ٧.

(٢) علم تحقيق الوثائق:٣

(٣) التوثيق: ٧.

ويعد توثيق النصوص المخطوطة، ولاسيما القديمة منها، من أهم الأعمال الوثائقية التي تحتاج إلى خبرة ومعرفة متعددة الجوانب. ونشأ في العلوم الحديثة ما يعرف بعلم تحقيق النصوص، وهو منهج يعتمد مجموعة من القواعد العلميّة الدقيقة في تحقيق النص وتوثيق نسبته إلى صاحبه. وأهم ما ينبغي للمحقق أن يعمله في هذا المجال وضع النص المحقق أقرب ما يكون إلى أصله الذي وضعه فيه المؤلف. وعلى المحقق أن يتبع الأمور الآتية للوصول إلى هذه البغية:

١. توثيق عنوان الكتاب بالرجوع إلى فهارس المخطوطات، وكتب التراجم، وكتب المؤلف نفسه، والتثبيت من صحة العنوان.

٢. توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه، ويحصل ذلك أيضًا بالرجوع إلى الفهارس العامّة وكتب المؤلف وكتب التراجم والطبقات. وعلى الموثق أن يعنى بالنقول إن وجدت، وهذه النقول إما نقول للمؤلف في كتبه الأخرى، وإما نقول من المؤلف في كتب متأخرة عنه.

٣. المقابلة بين النسخ: وينبغي للموثق أن يبدأ باختيار نسخة الأصل بعد مقابلة النسخ. وتعد نسخة المؤلف التي كتبها أو التي عرضت عليه من أعلى المراتب، تليها النسخة المنقولة من نسخته، وكلما قربت النسخة من عصر المؤلف كانت أعلى مرتبة وأكثر قيمة... وهكذا. ومن ثم يقابل الموثق بين نسخة الأصل والنسخ الأخرى ذاكرًا الفروق والاختلافات بين الصيغ والعبارات الواردة في المتن، ويستدرك السقط واللحق إلى أن تتم له نسخة تكون أقرب إلى نسخة المؤلف نفسه.

٤. تخريج الشواهد المتنوعة في المخطوط، كالشواهد النثرية والشعرية، والنقول من الكتب الأخرى، وتخريج الأعلام بالترجمة لهم وأسماء المدن والبقاع والحوادث والتواريخ، وشرح ما أشكل من الألفاظ...إلخ.

٥. صنع فهارس عامّة للمخطوط تشتمل على فهارس الشواهد النثرية والشعرية والتراجم وأسماء المدن وأسماء المصادر التي اعتمدها المؤلف والتنصيص على النصوص التي اقتبسها... إلخ.

... ونسأل الآن بعد هذه المقدمة عمّا إذا كان علم التوثيق معروفًا عند المسلمين من حيث الموضوع لا من حيث التسمية، كما تقدم ذكر ذلك، فما العناصر التي يمكن أن نستخلص منها موضوعات هذا العلم؟ والجواب أنَّ هذه العناصر متفرقة في موضوعات أربعة، ويمكن من حيث التأليف فيما بينها أن نستخلص علمًا للوثائق والتوثيق في التراث الإسلامي. أما الموضوعات الأربعة فهي:

- تدوين القرآن الكريم .
- تدون الحديث النبوي الشريف.
- الأحكام السلطانية.
- (الشروط والوثائق) في المعارف الفقهية.

تدوين القرآن الكريم:

كان القرآن الكريم يوحى به إلى الرسول (ﷺ) منجمًا، آية أو آيتين أو جملة من الآي. ومن المعروف أنَّ

الرسول (ﷺ) اتخذ له كتّابًا للوحي، يملي عليهم نصوص القرآن ويتثبت مما كتبوه بعد قراءته عليه. فالقرآن الكريم - إذًا - كان يكتب في عهد الرسول (ﷺ). وأفادت روايات تاريخيّة أنه لم يجمع إلا بعد وفاته (ﷺ) في عهد أبي بكر(رضي الله عنه) أو عمر(رضي الله عنه)، إلا أنه من المحقق بعد الإطلاع على روايات صحيحة أنَّ القرآن جمع في عهده وبأمره وقُرئ عليه مرارًا، وليس أدل على ذلك من جمع الإمام علي(رضي الله عنه) القرآن الكريم، وجمع بعض الصحابة على عهد النبي(ﷺ)، كمعاذ بن جبل وزيد بن ثابت(1).

وطرق تحمل القرآن (أي روايته) دقيقة موثقة، فهي تستند إلى النقل المتواتر عن الرسول(ﷺ) جيلاً بعد جيل، وبلغت عناية المسلمين بالمحافظة على النص القرآني حدًّا بعيدًا، ففي عهد الخليفة عثمان حين أراد أن يجمع الناس على قراءة واحدة للقرآن ألف لجنة لكتابة خمس أو ست نسخ من المصحف، وكانوا إذا اختلفوا في حرف ردوه إلى لهجة قريش، وأبوا الأخذ برواية الواحد حرصًا منهم على توثيق النص.

وكان النص القرآني خاليًا من الشكل والإعجام، ولما اقتضت ضرورة القراءة الصحيحة للنص وضع الاعجام والشكل تعرضت الفكرة إلى نقد بعض الصحابة والتابعين، وحرص المسلمون على خط المصحف، وبقي على ما كان عليه، لم يطرأ عليه تغيير يذكر كما طرأ على الخط العربي. وعرف من جملة ما عرف من علوم القرآن (مرسوم المصحف)، فالحياة ترسم (حيوة) والصلاة (صلوة).. وهكذا.

ونستنتج مما تقدم أنَّ القرآن الكريم أول نص عربي موثق غاية التوثيق بالنقل المتواتر عن النبي (ﷺ)، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يرتاب فيه أحد.وهو النص الذي وعد الله تعالى المسلمين بالحفاظ عليه إلى يوم يبعثون.

وتعد علوم القرآن، ولاسيما المعنية منها بروايته وتدوينه ورسمه من أهم الأعمال التوثيقية، التي قام بها المسلمون في تأريخهم.

تدوين الحديث النبوي الشريف:

أفادت روايات في تاريخ تدوين الحديث النبوي الشريف أن الرسول (ﷺ) كان ينهى عن تدوين حديثه قبل إتمام نزول القرآن الكريم، لكي لا يختلط به، وأفادت روايات أُخر موثقة خلاف ذلك، وأنَّ النبي (ﷺ) لم يمنع من تدوين حديثه، وقد دوّن الإمام علي (رضي الله عنه) أحاديث للرسول وعرضها عليه، وأفاد منه شرحًا وتوضيحًا وعلمًا. وإنما هُرع المسلمون إلى تدوين الحديث النبوي تدوينًا منهجيًّا واسعًا بعد عصر الرسالة، وبخاصة في القرون الهجرية الثلاثة الأولى. والقرآن الكريم الأصل الأول في استنباط الأحكام الشرعية، أما الحديث فهو الأصل الثاني، ولذلك عني بهما المسلمون عناية فائقة لا نجد لها مثيلاً بين أمم الأرض وتواريخها وحضاراتها. فنشأت نتيجة لما تقدّم ما يعرف بعلوم الحديث النبوي، تعنى بالحديث من حيث الإسناد والمتن والصحة والضعف واللغة والفهم...إلخ ومن هذه العلوم: علم أصول الحديث، وهو " علم بأصول يعرف بها أصول حديث الرسول (ﷺ) من صحة النقل عنه وضعفه، وطرق التحمل والأداء، وموضوعه حديث الرسول(ﷺ)"(2).

---

(1) انظر: تاريخ القرآن: ٤٦، وما بعدها.

(2) معجم مصطلحات توثيق الحديث: ١٤.

وعنى المحدّثون بالحديث النبوي إسنادًا ومتنًا ورواية ودراية عناية كبيرة، حققت لهم ما لا مزيد عليه من مناهج التوثيق. وعرضوا ذلك كلّه في مؤلفات كثيرة، وانتهوا إلى مواصفات واصطلاحات ورموز، انتشرت في المتون والشروح والمختصرات، فمن ذلك:

تحمّل الحديث = أخذه بطرقه المختلفة وتلقّيه عن المشايخ(١).

وألفاظ الأداء = ألفاظ رواية الحديث، ومنها(٢):

حدثنـا = قول الراوي فيما سمعه من لفظ الشيخ.

أنبأنـا = من ألفاظ التحمّل سماعًا.

أخبرنـا = من ألفاظ التحمل سماعًا من الشيخ، ثم شاع تخصيص هذه العبارة بالقراءة على الشيخ.

أبنا = رمز إلى (أخبرنا).

أنا = رمز إلى (أخبرنا) أيضًا.

ثنا = رمز إلى (حدثنا).

ثني = رمز إلى (حدثني).

وخضع رواة الحديث إلى نقد المحدثين جرحًا وتعديلاً. وعرف ما اصطلح عليه بعلم الجرح والتعديل، وهو "أصول وقواعد وألفاظ وضعها المحدثون في التعريف برواة الحديث ونقدهم جرحًا وتعديلاً، فالجرح ضد التعديل"(٣). ومن هذه الألفاظ قولهم(٤): ثقة ثقة، وثقة ثَبت، وثقة حافظ، وثقة حجة. ودل مصطلح (الترك) عندهم على ترك الراوي وعدم الأخذ به، في حين دلَّ مصطلح (التزكية) على تزكية الراوي بعدّه ثقة(٥).

ومن فروع علم الحديث ما يسمى (بالتواريخ والوفيات): وهي معرفة مواليد الرواة والسماع والقدوم للبلد الفلاني ووفياتهم. والتاريخ في مصطلح أهل الحديث "هو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأصول من المواليد والوفيات، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع التي تنشأ عنها معانٍ حسنة من تعديل وتجريح ونحو ذلك"(٦).

ومن المصطلحات التوثيقية في علوم الحديث:

الإجازة = وهي إذن بالرواية لفظًا أو خطًّا يفيد الإخبار الإجمالي عرفًا. وأركانها أربعة: المجيز، والمجاز له، والمجاز به، ولفظ الإجازة(٧).

---

(١) معجم مصطلحات توثيق الحديث: ١٩.

(٢) ينظر في ذلك معجم مصطلحات توثيق الحديث: ٩، ١١، ١٦، ٢٤، ٣٠.

(٣) معجم مصطلحات توثيق الحديث: ٢٥.

(٤) = = = : ٢٤.

(٥) = = = : ٢١.

(٦) = = = : ٢٣.

(٧) = = = : ٩، ١٠.

وللشيخ أن يجيز تلميذه في الرواية عنه، وله أن يُملي حديثه والطلاب يستمعون ويكتبون. وترتبت على رواية الحديث في المجالس والحلقات آداب عرفت بآداب (الإملاء والاستملاء)، فالإملاء أن يملي الشيخ، والاستملاء أن يكتب الطالب، أو أن يختار الشيخ من مجلسه، إذا كان غاصًا بالناس، من يبلغ أماليه للحاضرين. ومن هذه الآداب بعد المقدمات الخاصة بطهارة المحدث أو المملي ونظافته واختيار الوقت وكيفيّة الجلوس والافتتاح بالبسملة والصلاة على النبي وآله وأصحابه والدعاء ...الخ[1]:

١. ألاّ يحدث إلاّ من كتابه، فإنّ الحفظ خوّان، ثم يقول له المستملي مَن ذكرت، أو مَن حدثك رحمك الله؟ فيقول المملي: (ثنا) فلان وينسب شيخه الذي يريد أن يروي عنه، حتى يبلغ بنسبه منتهاه.

٢. لا يروي إلا عن الثقات.

٣. كلام المملي على الحديث ووصفه إياه بالصحة والثبوت، وغير ذلك من الصفات والنعوت.

٤. المعارضة بالمجلس المكتوب وإتقانه وإصلاح ما أفسد منه.

٥. ينبغي للملي أن يتخذ من يبلغ عنه الإملاء إلى من بَعُدَ في الحلقة.

٦. ينبغي أن يتخير للاستملاء أفصح الحاضرين لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأحسنهم عبارة، وأجودهم أداء.

٧. إن عرف المستملي اسم الشيخ وكنيته ونسبته ذكره للحاضرين، وإلا يسأل الشيخ حتى يذكر ذلك فيكتبه الحاضرون.

٨. إذا فرغ المستملي عن المقدمة التي ذكرناها أقبل على المملي، وقال: من حدثك رحمك الله؟ أو من ذكرت رضي الله عنك؟ فإذا قال المستملي: من ذكرت؟ يقول المملي: أخبرنا أبو فلان بن فلان...ويروي الحديث ويذكره كلمة كلمة، ويحاكيه المستملي ويرفع صوته بما يذكره ويمليه.

٩. إذا لم يسمع الكاتب حرفًا سأل المستملي عن ذلك حتى يسمعه، أو شكّ في شيء راجعه حتى يستثبته فيجيبه.

١٠. أول ما يكتب الطالب في الإملاء: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا يكتب في السطر الذي كتب فيه البسملة سوى ذلك.

١١. ثم يكتب بعد التسمية في السطر اسم الشيخ الذي يسمع منه الإملاء، أو يكتب عنه ونسبه، ثم يتبع لفظ المملي ويكتب ما يميله.

١٢. أن يقيد الطالب أو الكاتب الأسماء والحروف بالشكل والإعجام حذرًا من التصحيف والتحريف والإبهام.

وحرص المحدثون على تدوين أسماء شيوخهم ومروياتهم عنهم في كتب عرفت (بالبرنامج) أو (الفهرسة) أو (المعجم) أو (المشيخة) أو (الثَّبت) "ينظمها المؤلف بحسب التواريخ أو البلدان التي رحل إليها أو أسماء المشايخ الذين روى عنهم"[2].

---

(١) آداب الإملاء والاستملاء: ٤٦، ٥٥، ٦٥، ٧٧، ٨٤، ٩٣، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

(٢) معجم مصطلحات توثيق الحديث:١٨.

أما من حيث توثيق النص فهم يعارضون مجالس الحديث، ويتبعون الكلمات الواردة في النص مقابلة، ويضعون عليها الشكل، ويفرقون بين حديث وآخر بعلامات، فإذا حصل خطأ في كلمة أو عبارة أو سقط استدركوا ذلك، ولهم في هذا المجال اصطلاحات، منها[1]:

(التحويق)	=	وهو وضع نصف دائرة على أول الكلمة المضروبة (= المنفيَّة) من الكتاب، وعلى آخرها هكذا: ( ).
تخريج الساقط	=	كتابة الساقط من متن الكتاب في الحاشية.
التصحيح	=	عبارة (صح) تكتب على كلام صحّ رواية ومعنىً. وتكتب هذه العبارة تامّة كبيرة أو صغيرة على الحرف.
التضبيب	=	أن يمد خط أوله كالصاد هكذا: (ص) وهو حرف ناقص دلالة على اختلاف الكلمة. والمعنى مأخوذ من (ضبّة الباب) التي يقفل بها؛ لكون الحرف مقفلاً بهذه العلامة.
الحمرة	=	علامة بالمداد الأحمر تلحق الزيادات على الرواية في كتب الحديث، أما النقص فيها فيحّوق عليه بالحمرة.

الأحكام السلطانية:

تكونت مراسيم وعادات وتقاليد خاصة منذ نشأة الخلافة الإسلامية في القرن الأول الهجري بعد عصر الرسالة إلى سقوط الدولة العباسية وما تبعها من انتقال الخلافة إلى مصر، وما وليها من حكام وملوك وسلاطين في الدول الإسلامية حتى قيام الدولة العثمانية. ورافق ذلك كلّه قيام التنظيمات السياسية والإدارية والقضائية والعسكرية ... للدولة، ووضعت الشروط والعهود والأوصاف والوظائف في مجموعة من الكتب، عنيت بذلك، ودلّ عليها مصطلح الأحكام السلطانية، ومن هذه الوظائف والشروط: شروط الخلافة والبيعة والعهد والإمارة والقضاء والحجابة والحِسبّة والشرطة، وأعمال الدواوين ولاسيما ديوان الرسائل وديوان الخاتم.

ووضعت كذلك الصيغ والعبارات الرسميّة لتولي المناصب ومباشرة الأعمال، واختلفت باختلاف الزمان والمكان، مما هيّأ إلى نصوص وثائقية يمكن الاستدلال بها على توثيق النصوص الرسمية وعزوها إلى أصحابها وعهودها. ويجد الباحث أمثلة كثيرة لهذه النصوص في المظان[2]، منها ما كان يكتب عن الخلفاء إلى من دون الملوك، وما كان يكتب عن الخلفاء من الإقطاعات، ومنها كتب صادرة عن الخلفاء وولاة العهد بالحلافة، وكتب صادرة عن الخلفاء وولاة العهد من الملوك ونحوهم...إلخ.

ونكتفي في هذا المورد بنصين، أحدهما في العهود والآخر في البيعات:

---

(١) معجم مصطلحات توثيق الحديث: ١٨.

(٢) مآثر الإنافة في معالم الخلافة: ٣/١٣٨، ٢١٠، ٢٣٦.

النص الأول: من العهود، وتكتب "لمن يقوم بالخلافة بعهد من الخليفة قبله بالشروط المعتبرة في ذلك". وذكر القلقشندي أن في ذلك مذهبين[1] أي نصين رسميين، ونكتفي بالأول منهما، وهو: أن يفتتح العهد بلفظ: هذا ما عهد فلان لفلان، أو: هذا عهد فلان لفلان، أو: هذا كتاب كتبه فلان لفلان، وما أشبه ذلك. ثم يؤتى بوصف الخليفة والتنبيه على وجه استحقاقه الموجب لتقدمه على غيره، ثم يذكر تفويض الخلافة والتنبيه على وجه استحقاقه الموجب لتقدمه على غيره، ثم يذكر تفويض الخلافة إليه بعد العاهد، ويؤتى من وصيته بما يناسب المقام مقتصرًا في ذلك على الإشارة والتلويح، غير مصرح فيه بلفظ الأمر، كما يقال في عهود الملوك: أمره بكذا وأمره بكذا...تعظيمًا لشأن ولي العهد بالخلافة وتشريفًا لمقامه عن أن يكون مأمورًا.

وذكر القلقشندي أنّ عهود الخلفاء من السلف، ويعني بهم خلفاء بني أميّة وبني العباس، كانت على هذه الطريقة.

النص الثاني: من البيعات، وهي "تكتب لمن يقوم بالخلافة بمبايعة أهل الحل والعقد دون عهد من الخليفة قبله"[2]. وذكر القلقشندي أنهم استقروا في ذلك على أربعة مذاهب[3]؛ أي أربعة نصوص رسمية. ونكتفي بالمذهب الأول منها، وهو: أن تفتتح البيعة بأن يقال: "تبايع عبد الله أبا فلان فلانًا أمير المؤمنين على كذا وكذا، على أنك إن خالفت في ذلك أو في شيء منه كان لازمك كذا وكذا".

قال القلشندي: "وعلى هذا الأسلوب كانت طريقة الأولين في الخلافة الأموية وصدر الخلافة العباسية"، فإن كانت المبايعة من جماعة كتب: (تبايعون) بلفظ الجمع. واتبع الخلفاء والوزراء وذوو الرئاسة في الدولة أساليب خاصة في كتابة أوامرهم التي عرفت بالتقاليد والتواقيع والمناشير. واختصر لنا الحلبي ما ينبغي أن يحتذى في هذا المجال من الأسلوب الأمثل قوله[4]: "... فأمّا التقاليد والمناشير وما يتعلق بذلك فالأحسن فيها بسط الكلام، وتعدّ كثرته وقلته بحسب الرتب، ويجب أن تراعى فيها أمور، منها: براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال أو قدر النعمة أو لقب صاحب التقليد واسمه، بحيث لا يكون المطلع أجنبيًّا من هذه الأحوال، ولا بعيدًا عنها ولا مباينًا لها، ثم يستصحب ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من أول الخطبة إلى آخرها".

وللرسائل الرسمية التي عرفت بالرسائل السلطانية أهمية بالغة، ولذلك انصبت عناية الخلفاء بديوان الرسائل، واختاروا له أنبه الكتاب وأكثرهم علمًا وثقافة وبلاغة، وتبوّأ الكاتب في مختلف العصور الإسلامية منزلة سامية، وأكثر الوزراء كانوا كتابًا.

---

(١) مآثر الإنافة: ٢/٣١٨، ٣١٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه : ٢/ ٢٦٠.

(٤) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ٢٦٨.

ويعود تاريخ الرسائل الرسمية وأساليبها إلى عصر النبوة، فقد استقرت صيغ معينة وترتيب مخصوص في كتابة هذه الرسائل، أصبحت فيما بعد عصر الرسالة من الأمور العرفيّة، اتبعها الخلفاء والوزراء والملوك والسلاطين في كتبهم. وذكر عن الرسول (ﷺ) أنه كان يفتتح كتبه بالبسملة[1]، وكان يكتب في أول كتبه: من محمد رسول الله إلى فلان، أو: من محمد رسول الله لفلان، أو: هذا كتاب من محمد النبي لفلان. وقد يكتب (سلم أنت) أو (سلام عليك) أو (سلام على من آمن بالله) أو (هذا ما أعطى محمد رسول الله لفلان). وقد يكتب أيضًا: (أحمد الله إليك) أو (أحمد إليك الله): أي أهدي إليك حمد الله. وكان يبدأ الكتاب بذكر اسمه الشريف، ثم يذكر اسم المرسل إليه "تعظيمًا وترفيعًا لمقام الرسالة"[2]، بخلاف من كان يرسل إليه كتابًا إذ يبدأ بذكر اسمه الشريف. ودرج ولاة الأمصار في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) على أن يقدموا اسم الخليفة على أسمائهم[3].

وديوان الخاتم هو الديوان الآخر الذي لقي عناية من الخلفاء والسلاطين. ويعد الخاتم علامة على صحة الكتاب وعدم تزويره، وكونه صادرًا عن الخليفة، ويحفظ للكتاب سريته، ونفاذه إلى المرسل إليه. ويعود أصل اتخاذ الخاتم إلى عصر النبوة أيضًا، فقد اتخذ الرسول (ﷺ) خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر: (محمد رسول الله)، وقيل إن الأسطر الثلاثة كانت تقرأ من أسفل فيبدأ ب (محمد) ثم (رسول) ثم (الله)[4].

وفي رواية أخرى أنّ خاتم رسول الله كان من فضة نقشه محمد رسول الله، وكتب في سطرين لا في ثلاثة[5].

واتخذ الخلفاء بعد ذلك خواتم لهم، واختار كل خليفة عبارة أو أكثر أغلبها عبارات دينيّة فيها اسم الجلالة.

(الشروط والوثائق) في المعارف الفقهية:

علم الشروط والوثائق، أو الشروط والسجلات من فروع علم الفقه، ويعنى بالعقود المختلفة كعقد البيع والعتق والرهان والعارية...إلخ، ولذلك قيل في تعريفه: "هو علم يبحث عن كيفيّة سوق الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات في الرقاع والدفاتر؛ ليحتج بها عند الحاجة إليها". وهو باعتبار اللفظ من فروع علم الإنشاء، لأنه يتصف بأسلوب معين، وباعتبار المدلول من فروع الفقه؛ لأنه "يبحث فيه عن إنشاء الكلمات المتعلقة بالأحكام الشرعية"[6].

وينبني هذا العلم على إنشاء مخصوص وعبارات واضحة دقيقة، لا تحتمل اللَّبس والوهم، ولذلك عني

(١) مكاتيب الرسول (ﷺ):٣.

(٢) مكاتيب الرسول (ﷺ): ٦.

(٣) مكاتيب الرسول (ﷺ):٨.

(٤) مكاتيب الرسول (ﷺ): ٣١.

(٥) مكاتيب الرسول (ﷺ): ٣١، نقلاً عن كتاب الكافي للكليني، وكتاب السنن، للبيهقي.

(٦) مفتاح السعادة: ١/٢٥٠.

به الفقهاء عناية كبيرة ووضعوا فيه الكتب. ويكتسب هذا العلم أهميته في التوثيق؛ لأنَّ تحديد الصيغ والعبارات في إنشاء مخصوص جعل منه سندًا تاريخيًّا في الكشف عن الأسماء والأزمنة والأمكنة المختلفة. ونكتفي في هذا المقام بثلاثة رسوم من الشروط الفقهية، نقلناها من كتاب أبي نصر السمرقندي[1].

النص الأول: رسم إقرار بمال:

"أقر فلان الفلاني في صحة بدنه وعقله وجواز أمره طائعًا أن لفلان عليه من الورق(=/ الدراهم) الصحاح كذا وكذا درهمًا جيادًا، وزن سبعة، دينًا حالاً... وذلك في شهر كذا".

التحليـل:

١. (وزنًا): لأن بعض الدراهم يتصرف فيها عددًا.

٢. (وزن سبعة): لأنّ من الدراهم ما ينقص وزنها. وتقدير العبارة: أنَّ كل عشرة منها بوزن سبعة مثاقيل، وإنما يعاير بالمثاقيل؛ لأنّ المثاقيل لم تختلف في الإسلام ولا قبله، والدراهم مختلفة الوزن، وزنة المثقال تساوي درهمًا وثلاثة أسباع درهم.

النص الثاني شراء أرض مزروعة دون الزرع:

"وإن اشترى أرضًا مزروعة دون الزرع الذي فيها، فإطلاق العقد عندنا يوجب للبائع حقًّا ببقية الزرع إلى وقت الحصاد. فإن أراد شرط القطع كتبت إلى قولك: بحدودها وحقوقها وجميع مرافقها" إلا الزرع النابت فيها؛ فإنه خارج من هذا البيع"، وقد شرط المشتري على البائع في عقده هذا البيع أن يحصد زرعه ويفرغ الأرض المبيعة فيسلمها فارغة. ثم أكتب الثمن...".

النص الثالث: رسم وثيقة عتق:

"أقر فلان بن فلان في صحة بدنه وعقله أنه أعتق عبده التركي {مثلا} المسمى فلانًا لوجه الله تعالى، وطلب ثوابه ابتغاء مرضاته، وليعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار، وجعله مُحرَّرًا لا سبيل له عليه إلا سبيل الولاء من غير شرطه عليه بإزاء هذا العتق، فليس له عليه حق ولا فيه ملك".

(١) الشروط والوثائق: ٣٩، ٤٠، ٩٣، ١٦٣.

المؤلف: حياته ومؤلفاته:

هو محمود محمد نسيب بن حسين بن يحيى حمزة الحسيني الحمزاوي الحنفي. ولد في دمشق سنة ١٢٣٤هـ كما ذكر إسماعيل باشا البغدادي[1] .أو سنة ١٢٣٦هـ كما ذكر الزركلي[2]. كان فقيهًا أديبًا شاعرًا. تبوّأ مناصب كبيرة، وانتهت إليه الصدارة في الفتوى؛ إذ صار مفتيًا للشام في سنة ١٢٨٤هـ. نشأ في دمشق من عائلة معروفة تُسمّى ببني حمزة، نسبة إلى حمزة الحراني، ولذلك كني بابن حمزة، ولقب بالدمشقي نسبة إلى دمشق؛ لأنه ولد فيها. وتوفي سنة ١٣٠٥هـ.

وكان ابن حمزة من كبار فقهاء الحنفية في القرن الثالث عشر الهجري، تشهد على ذلك كثرة تصانيفه من كتب ورسائل، وعُدّ أحد العلماء المكثرين، وعرف بكتابة الخطوط الدقيقة، ويذكر أنه "كتب سورة الفاتحة على ثلثي حبة أرز" على ما في هذه الرواية من مبالغة.؟ وعني أيضًا بالصيد، وكان غاية في حسن الرماية، وكتب في مجموع رسائله المطبوعة رسالة بعنوان "فتوى الخواص في حلّ ما صيد بالرصاص"، وهي دليل على عنايته وأدواته، ولاسيما المستحدثة منها كالرصاص، وفتوى العلماء في حلية الصيد من عدمها.

أما مؤلفاته فكثيرة نيفت على العشرين، ما بين كتاب ورسالة. وفيما يأتي أهمها، مستفادة من كتابي هدية العارفين والأعلام:

١. درّ الأسرار : في تفسير القرآن الكريم بالحروف المهملة.

٢. الفتاوى: منظومة في مجلد.

٣. الفتاوى المحمودية.

٤. الفوائد البهية في القواعد الفقهية.

٥. قواعد الأوقاف (رسالة).

٦. العقيدة الإسلامية.

٧. الكواكب الزاهرة في الأحاديث المتواترة.

٨. عنوان الأسانيد.

---

(١) هدية العارفين :٢/ ٤٣.

(٢) الأعلام :٨/٦٣. وانظر في ترجمته:

١ ترجمة له في رسالة مخطوطة في دار الكتب المصرية رقم (٩٧٣) تاريخ/ تيمور.

٢- تراجم أعيان دمشق للشطي.

٣- التيمورية :١/٦٥، ٢٧٣ .

٤- معجم المطبوعات.

٥- Brock. S.2: ٧٧٥.

٩. الأجوبة الممضاة على أسئلة القضاة.

١٠. الطريقة الواضحة إلى البيّنة الراجحة.

١١. مجموعة رسائل.

١٢. أرجوزة في علم الفراسة.

والكتب المذكورة آنفًا مطبوعة كلّها.

١٣. ثبت (لا يزال مخطوطًا)

١٤. جامع الأسانيد، ولعلّه (عنوان الأسانيد) الذي تقدم ذكره.

١٥. دليل الكمل إلى الكلام المهمل. في مجلد مطبوع، وهو كتاب في اللغة.

١٦. غريب الفتاوي.

١٧. منظومة الجامع الصغير للشيباني (في الفقه).

١٨. نظم مرقاة الأصول لملاّ خسرو.

١٩. النور اللامع في أصول الجامع.

٢٠. رسالة في الجواهر.

٢١. رسالة في الفروسية.

التنبيه الفائق على خلل الوثائق:

هذه الرسالة ضمن مجموعة رسائله المطبوعة في دمشق سنة ١٣٠٣هـ. وقد فرغ من تأليفها في العاشر من شهر رمضان سنة ١٢٩٠هـ.

نسبها إليه إسماعيل باشا البغدادي[1] وذكرها بالعنوان نفسه في موضع، وذكرها في موضع آخر بعنوان: (رسالة في اختلالات المحاضر والسجلات). والمستفاد من كلامه أنه جعلهما رسالتين. والصحيح أنهما رسالة واحدة عنوانها (التنبيه الفائق...الخ) كما أشار المؤلف إليها في المقدمة. وقد ظهر في صفحة العنوان من الرسالة المطبوعة عبارة: (رسالة في خلل المحاضر والسجلات)، وهو ما أوهم البغدادي بجعلها رسالة أخرى غير (التنبيه) في ثبت مؤلفات الحمزاوي.

وذكر الزركلي[2] أنَّ مجموعة الحمزاوي تشتمل على إحدى عشرة رسالة. والمجموعة التي بين يدي تشتمل على عشر رسائل فقط. وربما سقطت واحدة منها. وهذه الرسائل العشر هي:

١. كشف الستور عن صحة المهاباة في المأجور.

٢. رسالة في خلل المحاضر والسجلات، وهي (التنبيه الفائق على خلل الوثائق).

٣. التحرير في ضمان المأمور والآمر والأجير.

٤. رفع الغشاوة عن جواز أخذ الأجرة على التلاوة.

---

(١) هدية العارفين :٢/ ٤٢٠.

(٢) الأعلام : ٨/٦٤.

٥. إيضاح المقال في الدرهم والمثقال.

٦. مصباح الدراية في اصطلاح الهداية.

٧. تصحيح النقول في سماع دعوى المرأة بكل المعجّل بعد الدخول.

٨. التفاوض في التناقض.

٩. فتوى الخواصّ في حلّ ما صيد بالرصاص.

١٠. كشف المجانة عن الغسل في الأجّانة.

وهذه الرسائل مطبوعة ومصححة كلّها على خط المؤلف.

موضوع الرسالة وأهميتها:

هذه الرسالة في (الشروط والوثائق)، أو ما يعرف أيضًا (بالمحاضر والسجلات). وهو من فروع علم الفقه، وله صلة بعلم اللغة كما أشرنا إلى ذلك في الدراسة. وقد بيّن المؤلف الغاية من تأليف رسالته هذه بقوله في المقدمة: "... أما بعد فهذا ما اشتدت إليه حاجة المفتين من خلل المحاضر والسجلات، الذي يكثر السؤال عنه في سائر البلاد الإسلامية عند إجراء المحاكمات. وقد قلّ في هذا الزمن المتنبه إلى الخلل الظاهر، فضلاً عمّا يحتاج إلى دقّة الناظر. وليس المراد من ذلك جمع ما يُخلّ المحضر أو السجل على طريق الاستقصاء، بل غاية القصد التنبيه على بعض مُخلاّت تخفى بادئ الرأي على الأذكياء، وإلا فطريق الحصر قد تكفلت به الكتب الفقهية مفرقًا في أبوابها من الأركان والشروط في العقود والدعاوى، فمتى فُقدَ شرط أو اختلّ ركن رُدّ المحضر أو السجل، ويُردّ أيضًا لأمور أُخر، هي التي حاولنا إيرادها في هذه الورقات...".

ورتب رسالته على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة. الأبواب: باب الشهادة، وباب الإجارة، وباب الدعوى، وباب الغصب، وباب الوكالة، وباب البيع، وباب الجنايات، وباب الوقف، وباب الوصي، وباب الاستحقاق.

وتتلخص أهمية الرسالة في الأمور الآتية:

١) أنّها من جملة الرسائل والكتب القليلة التي أُلّفت في هذا الموضوع.

٢) بيان الشروط والمعايير الفقهيّة في كتابة الوثيقة.

٣) اختصار أهم القضايا التي ينبغي أن يلمّ بها كاتب الوثيقة.

منهج التحقيق:

١- اتخاذ النص المطبوع أصلاً؛ لأنه نص منقول من نسخة المؤلف بتصحيحه. وهو بهذا الاعتبار نسخة وحيدة.

٢. تحرير الرسالة وترتيبها على حسب المتعارف، وضبط الألفاظ التي تحتاج إلى ضبط بالشكل، وشرح بعض الألفاظ لتوضيح المعنى والإشارة إلى التصحيف والتحريف الوارد في المتن.

٣. تخريج الشواهد المختلفة من مظانها والترجمة للأعلام الواردة في المتن، وبيان أسماء المؤلفين للكتب الواردة في الرسالة ونبذ عن مضامينها.

٤. وضع فهارس تفصيليّة للرسالة.

رسالة فى خلل المحاضر و السجلات لحضرة مولانا عمدة العلماء الاعلام مرجع الخاص والعام صاحب الفضيلة السيد السند محمود افندى الحمزاوى مفتى دمشق الشام ومدير معارف الولاية لازال ملحوظا بعين العنايه

(صفحة العنوان من الرسالة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى اله وصحبه والتابعين * اما بعد * فهذا ما اشتدت اليه حاجة المفتين من خلل المحاضر والسجلات * الذى يكثر السؤال عنه فى سائر البلاد الاسلامية عند اجراء المحاكمات * وقد قل فى هذا الزمن المتنبه الى الخلل الظاهر * فضلا عما يحتاج الى دقة الناظر * وليس المراد من ذلك جمع ما يخل المحضر او السجل على طريق الاستقصاء * بل غاية القصد التنبيه على بعض محلات تخفى بادى الرأى على الاذكياء * والا فطريق الحصر قد تكفلت به الكتب الفقهية مفرقا فى ابوابها من الاركان والشروط فى العقود والدعاوى فتى فقد شرط او اختل ركن رد المحضر او السجل ويرد ايضا لامور اخر هى التى حاولنا ايرادها فى هذه الورقات التى سميتها * التنبيه الفائق على خلل الوثائق * ورتبتها على مقدمة وعشرة ابواب وخاتمة ومن الله تعالى استمد وهو حسبى ونعم الوكيل * مقدمة * لابد اولا من معرفة الفرق بين السجل والصك والحجة والوثيقة والمحضر اما السجل فهو لغة كتاب القاضى وعرفا صورة الحجة التى تحفظ الحاجة المسماة قديما بالديوان الذى هو فى الاصل جريدة الحساب ثم اطلق على الحساب ثم اطلق على موضع الحساب وهو معرب الاصل دوان فابدل احد المضعفين ياء للتخفيف واول من دون الدواوين فى العرب عمر رضى الله تعالى عنه * والصك ماكتب فيه البيع او الرهن او الاقرار او غيرها وليس عليه خط القاضى * والحجة ماكان عليه خط القاضى اعلاه والشهود اسفله واعطى للخصم * والوثيقة مثلها والمحضر ماكتب فيه خصومة المتخاصمين عند القاضى وما جرى بينهما

(من)

(الصفحة الأولى من الرسالة)

﴿ ٢٠ ﴾

ذلك ببينة عادلة قامت عندي او بشهادة فلان و فلان وقد ثبت عندي عدالتهم وجواز شهادتهم ان فلانا اقر ان لفلان عليه كذا وكذا دينارا دينا لازما وحقا واجبا بسبب صحيح ثبوتا اوجب الحكم به فحكمت بمسئلة المشهود له هذا على المشهود عليه هذا بجميع ما اقر به المشهود عليه هذا للمشهود له هذا بمحضر منهما في وجههما حكما ابرمته وقضاء نفذته بعد استجماع شرائط صحة الحكم وجوازه بذلك عندي في مجلس قضائي بين الناس بكورة بخارى وكلفت هذا المحكوم عليه قضاء هذا المال المذكور فيه وتركته وكل ذي حق وحجة ودفع على حقه وحجته ودفعه متى اتى به يوما من الدهر وامرت بكتابة هذا السجل حجة في ذلك بمسئلة هذا المحكوم له واشهدت عليه حضور مجلسي وذلك في يوم كذا انتهى ومن اراد الوقوف على محضر اثبات الدفع لهذه الدعوى وبقية المحاضر فليرجع الى الهندية من هذا المحل ففيه مايشفي العليل وهذا آخر ما اردت جمعه في هذه الورقات واسأل الله تعالى حسن الختام بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم واله الكرام قال المؤلف حفظه الله تعالى وكان الفراغ من تعليقها في عاشر شهر رمضان الذي هو من شهور سنة تسعين و مائتين والف

طبعت بدمشق في مطبعة المعارف في ٢٣ ربيع الاول سنة ٣٠٣

(الصفحة الأخيرة من الرسالة)

رسالة في خلل المحاضر والسجلات[1] .

لحضرة مولانا عُمدة العلماء الأعلام، مرجع الخاصّ والعامّ، صاحب الفضيلة، السَّيِّد السَّند محمود أفندي الحمزاوي، مُفْتي دمشق، ومدير معارف الولاية، لازال ملحوظًا بعين العناية

(١) هكذا وردت هذه العبارة في الأصل. ولعلها (مُخلاّت) .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد، فهذا ما اشتدت إليه حاجة المفتين من خلل المحاضر والسجلات، الذي يكثُر السؤال عنه في سائر البلاد الإسلامية عند إجراء المحاكمات. وقد قلّ في هذا الزمن المتنبّهُ إلى الخلل الظاهر، فضلاً عما يُحتاج إلى دقة الناظر. وليس المراد من ذلك جمعَ ما يُخل المحضر أو السجل على طريق الاستقصاء. بل غاية القصد التنبيه على بعض محلاّت[1] تخفى بادئ الرأي على الأذكياء، وإلا فطريق الحصر قد تكلفت به الكتب الفقهية مفرقًا في أبوابها من الأركان والشروط في العقود والدعاوى، فمتى فُقدَ شرطٌ أو اختلّ ركنٌ رُدّ المحضرُ أو السجلُّ. ويُردُّ أيضًا لأُمورٍ أُخر، هي التي حاولنا إيرادها في هذه الورقات التي سمّيتها: (التنبيه الفائق على خللِ الوثائق). ورتبتها على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة. ومن الله تعالى أستمدُّ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

(١) هكذا وردت هذه العبارة في الأصل. ولعلها (مُخلاّت) .

مقدمة:

لا بدّ أولاً من معرفة الفرق بين (السجلّ) و(الصَّك) و(الحجة) و(الوثيقة) و(المحضر)(1). أما السجلّ فهو - لغة - كتاب القاضي، وعُرفًا صورة الحجّة التي تحفظ للحاجة المسماة قديمًا بالديوان، الذي هو في الأصل جريدة الحساب، ثم أُطلقَ على الحساب، ثم أطلق على موضع الحساب. وهو مُعرّب(2). الأصل دُوّان فأبدل أحد المُضعّفين ياءً للتخفيف. وأول من دوّن الدواوين في العرب عمر رضي الله تعالى عنه.

---

(1) ومن التعريفات الواردة في كتب المصطلح وبعض المعجمات ما يأتي:

الحُجة: "ما دلَّ به على صحة الدعوى. وقيل: الحجة والدليل واحد". التعريفات: ٨٦، وفي (أنيس الفقهاء) للقونوي. " الحجة: البرهان. يقال: برهن عليه؛ أي أقام الحجة".

الصك: "الكتاب الذي يكتب في المعاملات والأقارير. وجمعه: صكوك "المصباح المنير: ٣٤٥، وفي (مفاتيح العلوم: ٨٣)، "الصك: عمل يعمل لكل جمع، يجمع فيه أسامي المستحقين وعدتهم ومبلغ مالهم، ويوقّع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم".

السجل: كتاب الحكم أو كتاب القاضي، وقد سجل عليه. والجمع: سجلات. انظر: المغرب: ٢١٨، والمصباح المنير: ٢٦٧. وفي مفاتيح العلوم :٨٣، "السجل: المحضر يعقده القاضي بفصل القضاة". فالسجل والمحضر عند الخوارزمي بمعنى واحد.

(٢) ومن التعريفات الواردة بالديوان أنه" الجريدة من دون الكتب إذا جمعها؛ لأنها قطع من القراطيس مجموعة". المغرب: ١٧٠. وعرّفه الماوردي (الأحكام السلطانية:١٩٩) بأنه "موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال". وقال ابن خلدون: "اعلم أنَّ هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للمُلك، وهي القيام على أعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم، وفي أباناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلاّ المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها"، المقدمة: ٢٦٧. وورد التعريف بالديوان في المعجم الاقتصادي الإسلامي: ١٧٤، مقتصرًا على أهل العطاء والعساكر. أما أصل الكلمة فقد اختلفوا فيها بين كونها من أصل عربي أو أصل فارسي، وإن كان أغلب اللغويين والمؤرخين والمؤلفين في الأحكام السلطانية يميلون إلى أنّ أصل الكلمة فارسي.وذكر الكسائي لغة في الديوان بفتح الدال، وقال: إنها " لغة مولّدة وقد حكاها سيبويه"، وفي عبارته ما يفيد أنَّ الكلمة ليست من أصل عربي. ونُقل عن سيبويه ما يفيد خلاف ذلك، فقد ذكر عنه أنه قال:" إنما صحّت الواو في ديوان، وإن كانت بعد الياء، ولم تعتل كما اعتلّت في (سيّد)؛ لأنَّ الياء في ديوان غير لازمة، وإنما هو (فِعّال) من (دوّنتُ). والدليل على ذلك قولهم: (دُوَيْوِن) فدلّ ذلك أنه فِعّال... إلخ)، انظر: اللسان (دون):١٧/ ٢٣، ٢٤(طبع بولاق). وممن صرّح بالأرومة العربية للكلمة المرزوقي فقد نقل الشهاب الخفاجي في كتابه (شفاء الغليل) عن المرزوقي في شرح الفصيح قوله: " هو عربي من دوّنتُ الكلمة إذا ضبطتها وقيدتها؛ لأنه موضع تضبط فيه أحوال الناس وتدوّن. هذا هو الصواب، وليس معربًا" انظر حاشية المحقق على كتاب المعرب للجواليقي:٢٠٢. أما من ذهب إلى أنَّ الكلمة معرّبة وليست عربية، فكثير منهم أبو عبيدة ونص على أنها فارسية معرّبة (اللسان (دون):١٧/٢٣)، وكذلك الصولي (أدب الكتاب:١٨٧) ، والماوردي (الأحكام السلطانية:١٩٩). أما الجواليقي، فقد تبنى رأي الأصمعي الذي ذهب إلى أنَّ أصل الكلمة فارسي. وقد ذكر الأصمعي الأصل وهو (ديان)، أي الشياطين:" كُتّاب يشبهون الشياطين في نفاذهم، و(الدّيو) هو الشيطان..." انظر: المعرب: ٢٠٢.

والصحيح أنَّ الكلمة ليست عربية، وهي من جملة الألفاظ المعرَّبة التي صاغتها العربية بعد انتقالها إليها وفاقًا لبنيتها الصوتية والصرفيّة. وقد تنبه الصولي إلى هذا المبدأ في التعريب، فقال:" وما سمعته العرب فاحتاجت إلى استعماله في نظم أو نثر فقد أعربته، فصار عربيًا بتكلمها به وإعرابها إياه" أدب الكتاب: ٢٥. ويبقى المعنى في أصل الوضع، وهي مسألة تحتاج إلى تحقيق دقيق، فهل الأصل من دِيْو (تلفظ الواو هنا قريبة من نطق الحرف في الإنجليزية): بمعنى عفريت أو شيطان، فلحقتها لاحقة الجمع (آن)، وهي إحدى لاحقتين تلحقان المفرد في الفارسية، وتفيد الجمع لما يعقل، واللاحقة الأخرى (ها)، وهي تفيد الجمع لغير العاقل..؟ وذهب إلى هذا الرأي أغلب القدماء. وذكر بعضهم أنَّ التسمية أطلقت من حيث التشبيه، وكأنهم شياطين في إحكام الأمر، أو من حيث دوي صوتهم، كما تفيد الرواية من أنَّ كسرى مر بالديوان وسمع= = =

والصَّك: ما كتب فيه البيع أو الرَّهنُ، أو الإقرار، أو غيرها. وليس عليه خَطُّ القاضي.

والحجّة: ما كان عليه خَطُّ القاضي أعلاه والشهودُ أسفله وأُعطي للخَصْم.

والوثيقة: مثلها. والمَحْضر: ما كُتب فيه خصومةُ المتخاصمَين عند القاضي وما جرى بينهما (2-a) من الإقرار من المدعى عليه، أو الإنكار والحكم بالبينة أو النُّكول أو الإقرار على وجهٍ يدفع الاشتباه. وتعريفه يشملُ السجلَّ أيضًا، اللهمَّ إلاّ أن يقال: إنَّ المحضرَ مُجرّدُ الدعوى من المُدَّعي، فإنْ أجاب المُدّعى عليه وأقام البينة فالتوقيع، وإذا حكم فالسجلُّ، على ما ذكره الحموي في (شرح الأشباه)[1]، آخر كتاب القضاء.

إذا ظهر لك هذا فاعلم أنّ ما ذكرته من (الوثائق) و(المحاضر) و(السجلات) و(الإعلامات)[2] التي يحررها القضاةُ إلى الولاة، وما يوري السياسة بصورة الحكم ويصدقُ عليها تعريفُ المحضر لا الحجّة الشرعية تُعطى إلى الخصم لعدم الشهادة، لا يُفْتى بصحة شيء منها إلاّ إذا كان جامعًا لأطراف القضية الست، كما قال ابن الغرس[3] في (الفواكة البدرية):

أطـراف كـل قضيـة حُكْمـيّـةٍ ... سِتٌّ يلـوح بعدهـا التحقيقُ

حُكْمٌ ومحكـومٌ بـه ولـه ومحـ ... ـكومٌ عليـه وحـاكم وطـريقُ

فالأطراف: الأركان. والقضية الحُكميّة: الحادثة التي كُتب الكتاب لأجلها. والحكم: القضاء. وهو: قوليٌّ، وفعليٌّ. فالقولي: كـ(ألزمتُ)، و(حكَمْتُ)، و(قَضَيْتُ)، و(أنفذتُ عليك القضاءَ)، و(أمضَيْتُه)، و(أقَمْتُه)، و(اطلب الذهبَ منه) مخاطبًا لمعتمده، أو (ظهرَ)، أو (صَحّ)، أو (ثبتَ عندي)، أو (عَلِمْتُ أنَّ الحقّ لهذا المدّعي)، أو (أرى الحقَّ له)، وعلى خلافٍ في: (أرى) أنه حُكمٌ. أو (سَلّم الدارَ إلى المدّعي).

والفعلّي: فما لم يكن موضعًا للحُكم فليس بحُكمٍ، كإذْن البالغةِ للقاضي بتزويجها، فإنه ليس بحُكمٍ لو

علم الوثائق والتوثيق في تراثنا الإسلامي

=== أصوات العاملين فيه، فأطلق عليهم (ديوان) أي شياطين، أو (دِيوانه) أي مجانين، وعلى الرغم من عدم توافر الأدلة المقنعة للباحث على صحة مثل هذه الروايات إلا أنني أميل إلى أنَّ المعنى الأصلي للكلمة مرتبط على نحو ما بعبارة (ديوان) divan؛ أي شياطين على وجه التشبيه أو الكناية. والمعنيون بالفارسية يعلمون مدى أهمية الكناية والتشبيه في التعبير عن مسميات الأشياء، ثم انتقل المعنى ليشمل أعضاء الديوان ومكانهم وسجلاتهم أي إنَّ الكلمة اتخذت مدلولاً إداريًا، ولذلك أشار بعض الباحثين إلى أنَّ معناها في الأصل: أعضاء مجلس. (غرائب اللغة العربية لرفائيل نخلة اليسوعي:٢٢٩).

(١) لعله (الأشباه والنظائر) في الفروع لزين الدين بن إبراهيم المعروف بابن نجيم المصري الحنفي المتوفى سنة ٩٧٠هـ. وعليه شروح وتعليقات. أنظر: كشف الظنون: ٩٨/١، ٩٩، ولم يذكر شرحًا للحموي.

(٢) الإعلام وتجمع على إعلامات: (الإشعار والتنبيه). جامع العلوم: ١٣٧/١.

(٣) أبو اليسر محمد بن محمد بن خليل، البدر ابن الغَرْس: من فقهاء الحنفيّة، وله شعر حسن. مولده ووفاته في القاهرة (٨٣٣هـ-٨٩٤هـ). والغَرْس لقب جدّه الخليل. من كتبه: الفواكه البدرية في الأقضية الحكمية. ويعرف برسالة ابن الغرس في القضاء. ورسالة في التمانع. وحاشية على شرح التفتازاني للعقائد النَّسفيّة، وكتاب الردّ على البقاعي دفاعًا عن ابن الفارض.

زَوّجها لعدم الموضعيّة، بخلاف بيع مال اليتيم لا من نفسه والقسمة، حيث كلاهما حُكم للموضعيّة، والمحكوم عليه: المُدّعى عليه(١).

والحاكم: القاضي، أو نائبه. وله شروط(٢): العقل ، والبلوغ(٣)، والحرية، والسمع، والبصر، والنطق، والسلامة من حد القذف(٤)، وأن يكون مولي الحُكم ممّن له ذلك.

---

(١) ينبغي التعريف بثلاثة مصطلحات قضائية مرتبطة بعضها ببعض، وهي المُدّعي: من لا يُجبرُ على الخصومة. التعريفات:٢٢٠، وقارن بجامع العلوم :٢٣٢/٣. المدعى عليه: من يُجبر على الخصومة. التعريفات: ٢٢٠، وجامع العلوم: ٢٣٢/٣. الدعوى: الدعوى في الشرع" قول يطلب به الإنسان إثبات حق على الغير". التعريفات:١٠٩. أو قول" يقصد به الإنسان إيجاب حق على غيره". أنيس الفقهاء: ٢٤١.

وادعى زيد على عمرو مالاً " فزيد: المُدّعي. وعمرو: المدعى عليه. والمال: المُدعى به لغو. والمصدر: الادعاء. والاسم: الدعوى": انظر ، المغرب: ١٦٤.

(٢) وذكر الماوردي سبعة شروط، وهي – ملخصة من كتاب الأحكام السلطانية:٦٥، وما بعدها:-

١- أن يكون رجلاً، " وهذا الشرط يجمع صنفين: البلوغ والذكورية" وجوز أبو حنيفة أن تقضي المرأة فيما تصح فيه شهادتها، ولا يجوز أن تقضي فيما لا تصح فيه شهادتها. وشذّ ابن جرير الطبري، فجوزّ قضاءها في جميع الأحكام.

٢- أن يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيدا من السهو والغفلة، يتوصل بذكائه إلى إيضاح ما أشكل وفصل ما أعضل.

٣- الحرية.

٤- الإسلام: " ولا يجوز أن يُقلّد الكافرُ القضاء على المسلمين، ولا على الكفّار. وقال أبو حنيفة: يجوز تقليده القضاء بين أهل دينه.

٥- العدالة: و" العدالة أن يكون صادق اللهجة ظاهر الأمانة عفيفًا عن المحارم متوقيًا المآثم، بعيدًا عن الريب، مأمونًا في الرضا والغضب...".

٦- السلامة في السمع والبصر " فإن كان ضريرًا كانت ولايته باطلة، وجوّزها مالك كما جوّز شهادته".

٧- أن يكون عالمًا بالأحكام الشرعيّة.

(٣) يعلم البلوغ " بإنبات الشعر الخشن على العانة... وخروج المني الذي يكون منه الولد من الموضع المعتاد كيف كان. ويشترك في هذين: الذكور والإناث" المحقق الحلي: شرائع الإسلام: ٩٩/٢. وفي مسالك الإفهام إلى شرح شرائع الإسلام للشهيد الثاني:٦٦/٢ (نقلاً عن حاشية المحقق:" ظاهر العبارة أنّ المني ينقسم إلى قسمين: ما يكون منه الولد، وما لا يكون،و أنّ البلوغ لا يتحقق إلا بالأول". وأما البلوغ بالسن، فهو بلوغ خمس عشرة سنة للذكور وتسع سنوات للإناث على المشهور. انظر : شرائع الإسلام:١٠٠/٢.

(٤) الحد، ويجمع على حدود: " عقوبة وجبت حقًّا لله تعالى". التعريفات:٨٧، وقارن بأنيس الفقهاء : ١٧٣.

وقذف المحصنة قذفًا: رماها بالفاحشة. المصباح المنير:٤٩٤. والقذف شرعًا: " الرمي بالزّنا واللواط، كقوله: زنَيْت أو لُطتَ أو ليط بك أو أنت زانٍ أو لائط أو منكوح في دُبُره، وما يؤدي هذا المعنى صريحًا مع معرفة القائل بموضوع اللفظ بأي لغة اتفق. ويشترط في القاذف: البلوغ وكمال العقل، ويشترط في المقذوف الإحصان، وهو: البلوغ وكمال العقل والحرية والإسلام والعفّة. انظر: شرائع الإسلام: ٤/٤٦٤، ١٦٥.

وحدّ القذف ثمانون جلدة حرًّا كان أو عبدًا. ويجلد بثيابه ولا يُجرد. ويقتصر على الضرب المتوسط. انظر: شرائع الإسلام:١٦٧/٤

والإسلام شَرْطٌ لحاكم المسلمين؛ إذ يصحّ أن يُقلّدَ القضاءَ كتابيٌّ للحُكم بين أهل الكتاب.

والطريق: أي طريق الحُكم، وهو البيّنة أو الإقرار أو النُّكول[1]، لأنها حُجَجُ الشَّرع. الكُل[2]: من (البحر)[3]، وحاشيتي (الدرّ)[4] للطحطاوي[5] (2-b) وابن عابدين بتصرف[6].

قلت: وزدت شرطًا سابعًا، وهو طلبُ الخصم الحُكم من القاضي. ذكره (المحيط)[7] في باب (الرقيق والبهائم) من القضاء. ونصّه:" والقضاء يفتقر إلى شرائط، وهي المقضي له، والمقضيّ عليه، والطلب. لأنَّ الحقّ إنمّا يُدخلُ تحت قضائه بالطلب..." انتهى. فيلزم التصريحُ به في السجلّ وإلاّ كان مختلاً.

---

(١) البينة: الحجة. وهي على زنة (فيعلة) (من البينونة وهي الانقطاع والانفصال، أو من البيان". أنيس الفقهاء: ٢٣٧. والإقرار في الشرع : " إخبار بحقٍّ لآخر عليه".التعريفات:٣٣، والنكول: " الامتناع عن اليمين". الخوارزمي، مفاتيح العلوم: ٣٩.

(٢) أي: كل ما تقدّم ذكره من شروط نقلها المؤلف من كتب البحر وحاشيتي الطحطاوي وابن عابدين بتصرف.

(٣) لم أهتد إلى مقصود المؤلف من هذا الكتاب من حيث النسبة إلى مؤلف بعينه، والكتب الموسومة بهذه التسمية كثيرة ويمكن أن يكون الكتاب المذكور في المتن واحدًا مما يأتي:

- البحر الجاري في الفتاوي: لتاج الدين عبد الله بن علي البخاري المتوفى سنة ٧٩٩هـ، جمع فيه المسائل على المذاهب الأربعة. انظر: كشف الظنون: ١/٢٢٣ وما بعدها.
- بحر الفتاوي: ذكره حاجي خليفة، ولم ينسبه إلى مؤلف.
- البحر المحيط في الفروع: لفخر الأئمة بديع بن منصور الحنفي. وهو المشهور بـ (منية الفقهاء). انظر كشف الظنون:١/٢٢٦.
- حر الفتاوي: للسيد محمد عارف بن محمد الحنفي الأرزن الرومي. ذكره البغدادي في إيضاح المكنون:١/١٦٥، ولم يذكر سنة وفاة المؤلف.

(٤) هو: الدّر المختار شرح تنوير الأبصار (في الفروع): لعلاء الدين محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحيم الحصكفي الحنفي مفتي الشام المتوفى سنة ١٠٨٨هـ.

(٥) أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي أو الطهطاوي: فقيه حنفي، ولد بطهطا(أو طحطا) فنسب إليها، وهي مدينة تقع بالقرب من أسيوط مصر. تعلم بالأزهر وتقلد مشيخة الحنفية، وتوفي في القاهرة سنة ١٢٣١هـ. اشتهر بكتابه (حاشية الدّر المختار).

(٦) محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي: فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره. ولد سنة ١١٩٨هـ، وتوفي في دمشق سنة ١٢٥٢هـ. من تصانيفه: ردّ المختار على الدر المختار(في الفقه) ويعرف بحاشية ابن عابدين. ورفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار. والعقود الدريّة في تنقيح الفتاوي الحامديّة. ونسمات الأسحارعلى شرح المنار. وحاشية على المطوّل (في البلاغة). والرحيق المختوم (في الفرائض). وحواشٍ على تفسير البيضاوي. ومجموعة رسائل. وعقود اللآلي في الأسانيد العوالي.

(٧) المحيط البرهاني في الفقه النعماني لبرهان الدين محمود بن تاج أحمد بن الصدر الشهيد برهان الأئمة عبد العزيز بن مازه البخاري الحنفي، المتوفى سنة ٦١٦هـ. والكتاب كما ذكر حاجي خليفة (كشف الظنون:٢/١٦١٩) " في مجلدات ثم اختصره، وسماه الذخيرة... أوله: الحمد لله خالق الأشباح بقُدرته وفالق الإصباح برحمته" ولصاحب المحيط كتاب في علم الشروط والسجلات . انظر كشف الظنون:٢/١٠٤٦.

(فائدة):

شرط الحُكم كونُه من الحاكم الذي شاهد الحجة، فلو سمعَ الشهادة حاكمٌ وعُزل قبل الحكم ثم قُلّدَ آخر فلا بُدّ من إعادة الشهادة ثانيًا. ومثله الإقرار والنُّكول.

إذا أُقرّ عند حاكم فعُزل أو نُكّلَ عنده كذلك، فلا يعتبر ما حصل عند الأول من ذلك. كذا في (شرح أدب القضاء) للخصّاف[1]، من الباب السادس.

(تنبيه)

يُشترط عند ذكر النائب ذكره من ولاّه، وذكر أنّه مأذون بالاستخلاف فيه. كذا في (الهنديّة)[2] من خلل المحاضر والسجلات. وكذلك يشترط في سجل تصرّف المتولي ذكر من ولاّه من قاضٍ أو (واقف)[3]، فإن لم يُكتب كان فاسدًا، كما إذا كتب: آجر فلانٌ الناظر محلّ كذا ولم يبيّن وجه نظارته. ومثله الوصي[4] إن لم يكتب أنه وصيٌّ من جهة الأب أو الأُمّ أو القاضي كان السجلُّ أو المحضرُ أو الحُجّة أو الإعلام فاسدًا. كذا

(١) أبو بكر أحمد بن عمرو «أو عمر كما ذكره الزركلي» بن مهير المعروف بالخصّاف. توفي في بغداد سنة ٢٦١هـ، من تصانيفه: أحكام الأوقاف، والحيل، والوصايا، والشروط، والرضاع، والمحاضر، والسجلات، والنفقات على الأقارب، ودرع الكعبة، والخراج. وكتابه في أدب القضاء ذكره بعنوان (أدب القاضي) كلٌّ من حاجي خليفة (كشف الظنون:٤٦/١)، وعبد اللطيف ابن محمد رياضي زاده (أسماء الكتب المتمم لكشف الظنون: ٣١، ٣٦، ١٣٢)، والزركلي (الأعلام:١٧٨/١). قال صاحب الكشف: "رتّب على مائة وعشرين بابًا، وهو كتاب جامع، غاية ما في الباب ونهاية مآرب الطلاب، ولذلك تلقّوه بالقبول، وشرحه فحول أئمة الفروع والأصول"، منهم الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠هـ، وأبو جعفر الهنداوي المتوفى سنة ٣٦٢هـ، والقدوري المتوفى سنة ٤٢٨ هـ، وعلي بن الحسين السغدي المتوفى سنة ٤٦١هـ، والسرخسي المتوفى سنة ٤٨٣هـ، وشمس الأئمة عبد العزيز الحلواني المتوفى سنة ٤٥٦هـ. ولم يذكر المؤلف في هذا الموضع الشرح المقصود، وربما هو شرح برهان الأئمة عمر ابن عبد العزيز بن مازه المعروف بالحسام الشهيد، المتوفى قتيلاً سنة ٥٣٦هـ. قال حاجي خليفة: "وهو المشهور المتداول اليوم من بين الشروح. ذكر في أوله أنه أورد عقيب كل مسألة من مسائل الكتاب ما يحتاج إليه الناظر، ولم يميز بينهما بالقول ونحوه". كشف الظنون:٤٦/١، ٤٧.

(٢) مجموعة فتاوي.

(٣) الواقف صيغة اسم الفاعل من وقف الشيء أي جعله وقفًا. و" الوقف في الأصل: مصدر وقفه إذا حبسه، وقفًا، ووقف بنفسه وقوفًا، يتعدّى ولا يتعدى. وقيل للموقوف وقف تسمية بالمصدر" والوقف في الشرع " عبارة عن حبس العين على ملك الواقف والتصدّق بالمنافع على الفقراء مع بقاء العين" أنيس الفقهاء: ١٩٧، وقارن بالتعريفات: ٢٧٤. هذا عند أبي حنيفة. والوقف عند الإمامية: " عق ثمرته تحبيس الأصل وإطلاق المنفعة" شرائع الإسلام: ٢١١/٢، وشرح في الروضة(١٦٣/٣) عبارة التحبيس بقوله:" أي جعله على حاله لا يجوز التصرف فيه شرعًا على وجه ناقل له عن الملك إلا ما استثني كما لو أدّى بقاؤه إلى الخراب.." انظر هامش الشرائع: ٢١١/٢.

(٤) الوصي: الوصي على أموال الميّت يعد الوصية. والوصيّة شرعًا:" تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع سواء كان ذلك في الأعيان أو في المنافع" أنيس الفقهاء:٢٩٧، وقارن بالتعريفات: ٢٧٣، أو هي (تمليك عين أو منفعة بعد الوفاة ويفتقر إلى إيجاب وقبول). شرائع الإسلام: ٢٤٣/٢.

فيما يتعلق بصك[1] الوقف من (الخانية)[2].

وكذلك يشترط في كل ما ذكر من الوثائق تعريف المتخاصمين بذكر الأب والجدّ إلاّ إذا تحققت الضرورة بعدم إمكان الوقوف على اسم الجدّ - مثلاً - فلا بأس. كذا في (نور العين)[3]. وكذلك يُشترط في كل ما ذُكر ذِكرُ التأريخ ومجلس الحُكم وذِكرُ الشاهدين بأسمائهم وأنسابهم وعدالتهم[4]. كذا في (نور العين). ويشترط أيضًا ذكر الآباء والجدود عند ذكر الحدود، وهو الصحيح وعليه الفتوى. كذا في (الهندية). قلتُ: وحيث ورد الأمر السلطاني بمنع القضاة من الحكم بدون التزكية[5] سرًّا وعلنًا والجمع بينهما في كل الحوادث الشرعية، فيشترط أيضًا ذكر التزكية في المحاضر والسجلات سرًّا وجهرًا، فإن لم (3-a) يكتب رُدّ المحضر.

وعملُ مشايخ الإسلام اليوم على الردّ والتصريح بأسماء المزكّين واعتبارهم بحال الشهود أحوط لما هو معلوم من فساد الزمان. وكذلك يُشترط التصريحُ بإنكار المدعى عليه دعوى المدّعي أو اعتراضه حتى تتحقق الخصومة، وإلا فالوثيقة فاسدة. كذا في (نور العين).

(فائدة):

لو كان السجلّ أو المحضر أو غيرهما فاسدًا وادّعى مُدّعٍ أنّ حُكم الحاكم قد وقع على وجه الصحة، غير أنّ الكاتب كتب سهوًا يُسمح منه وتُطلب البيّنة. كذا في (جامع الفصولين)[6] من خلل المحاضر.

وظهر من هذا أنه لا تلازم بين الوثائق والحُكم في بعض الصور، فتأمّل، وقد صارت في زماننا حادثة الفتوى، وبهذا أفتيت.

---

(١) الصك: (كتاب الإقرار بالمال وغيره) المغرب:٢٦٩، أو " الكتاب الذي يكتب في المعاملات والأقارير. وجمعه: صكوك". المصباح المنير: ٣٤٥.

(٢) فتاوى (قاضي خان)، وهو فخر الدين حسن بن منصور بن أبي القاسم محمود بن عبد العزيز المعروف بقاضي خان الأوز جندي الفرغاني: فقيه حنفي، توفي سنة ٥٩٢هـ على ما ذكره البغدادي في هدية العارفين:٢٨٠.من تصانيفه: الفتاوي، والأمالي، والواقعات والمحاضر، وشرح الزيادات، وشرح الجامع الصغير، وشرح أدب القضاء للخصاف. وسمى رياضي زاده فتاوي قاضي خان ب (الفتاوي المشهورة): انظر: أسماء الكتاب المتمم لكشف الظنون ص:١٣٣. وذكر حاجي خليفة ضمن ما ذكر من الكتب المؤلفة في الفقه على مذهب أبي حنيفة (الخانية) ولم ينسبها إلى مؤلف. انظر: كشف الظنون:١٢٨٣.

(٣) نور العين في إصلاح جامع الفصولين: للمولى محمد بن أحمد المعروف بنشانجي زاده المتوفى سنة ١٠٣١هـ. رتب جامع الفصولين في هذا الكتاب" وتصرف فيه بزيادة ونقص وإبرام ونقض. كشف الظنون:٥٦٦.

(٤) العدل في اصطلاح الفقهاء:" من اجتنب الكبائر، ولم يصرّ على الصغائر، وغلب صوابه، واجتنب الأفعال الخسيسة كالأكل في الطريق والبول..." التعريفات:١٥٢.

(٥) التزكية هي التعديل. انظر: أنيس الفقهاء: ٢٣٧، وهي ضد الجرح، والجرح في الاصطلاح: " أن تُرد شهادة الشاهد. وقد جُرح فلان، فهو مجروح إذا لم تُقبل شهادته". مفاتيح العلوم:٣٩.

(٦) (جامع الفصولين) في الفروع، للشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل، المشهور بابن قاضي سماونة، الحنفي المتوفى سنة ٨٢٣هـ " وهو كتاب مشهور متداول في أيدي الحكام والمفتين؛ لكونه في المعاملات خاصة، جمع فيه بين فصول العمادي وفصول الأسروشني وأحاط وأجاد، كشف الظنون: ٥٦٦.

باب الشهادة

يشترط عند ذكر المُوثق البيّنة قوله: " قامت بحضرة المدّعى عليه"، وكذلك عند ذكر الحكم كقوله: (وحُكم لهذا المدّعى عليه بكذا)، كذا في (الهندية).

ولا يجوز في نقل الشهادة كون شهود الطريق كُفّارًا، وأنّ المدعى عليه كافر؛ لأنَّ شهادتهم مُلزمةٌ للحُكم على القاضي، فتكون حُجّةً عليه، ولا عبرة حينئذٍ في الخصم. كذا في (الدُّرر)[1] من (كتاب القاضي). ويشترط أن لا تبطُل الشهادةُ في البعض، فإنها متى بطلت في البعض بطلت في الكلّ، فلو شهدوا على الوقف وشروطه بالشهرة بطلت الشهادةُ على الوقف أيضًا؛ لأنها رُدّت على الشروط فتُردُّ في الكلّ. كذا في (الهندية). ويشترط اتفاق الشاهدين في الجناية زمانًا ومكانًا وآلةً وفعلاً وعمدًا وخطأ. وأن يُذكر في المحضر أو السجل أنّهما ليسا من أهل القرية أو المحلّة التي وُجد فيها القتيل. (خانيّة)[2]. وإذا قامت البيّنة على الخطأ الذي موجبه الدية[3] على العاقلة فلا بُدَّ أن ذُكر قيامُ البيّنة على العاقلة، وإن لم يُذكر رُدَّ المحضرُ؛ لأن البيّنة في مثله لا تسمع عند غيبة العاقلة. كذا في (معاقل) (الهنديّة). لكن في الفصل الثالث من (الفصولين) ذكر أنّ البيّنة تُسمعُ، فتأمّل عند الفتوى.



---

(١) (درر الحكام في شرح غرر الأحكام): للقاضي محمد بن فرامُرز الشهير بملا خسرو، حنفي عالم فقيه أصولي. رومي الأصل أسلم أبوه ونشأ مسلمًا. عاصر السلطان محمد بن مراد وولي قضاء القسطنطينية، وتوفي بها سنة ٨٨٥هـ. من مصنفاته: مرقاة الوصول في علم الأصول، وشرحها مرآة الأصول، وحاشية على المطول في البلاغة، وحاشية على التلويح في الأصول، وحاشية على أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

(٢) أي: من (الخانية).

(٣) ههنا أمور ثلاثة ينبغي توضيحها، وهي: الدّية والعاقلة والعصبة:

فالدّية في مصطلح الفقهاء: " المال الذي هو بدل النَّفس" التعريفات:١١. وهي مصدر ودى القاتلُ المقتول " أعطى وليّه المال الذي هو بدل النفس، ثم قيل لذلك المال: الدية تسمية بالمصدر أنيس الفقهاء: ٢٩٣، وقارن بالمغرب: ٤٧٩. أما العاقلة، فهي "العصبة عند أصحاب الحديث. وهم عند أصحاب الرأي: أصحاب القاتل، يعقلون القتيل عن القاتل أي يدونه" مفاتيح العلوم: ٣٦. ولذلك ورد التعريف بالعاقلة في كتب المصطلح عند الحنفية بأنهم " الجماعة التي تغرم الدية، وهم عشيرة الرجل أو أهل ديوانه؛ أي الذين يرتزقون من ديوانه على حدة" المغرب: ٣٢٣، فدافع الدية عاقل" والجمع: عاقلة، وجمع العاقلة عواقل" المصباح المنير:٤٢٣.

والعصبة: "قرابى الرجل لأبيه وبنوه وبنو أبيه" مفاتيح العلوم: ٣٨. ويتلخص مما تقدّم: أنَّ الدّية هي المال الذي يغرمه أصحاب القاتل، والعصبة هم العاقلة عند أصحاب الحديث؛ أي قرابة الرجل لأبيه الذكور. أما عند أصحاب الرأي كالحنفيّة فالعاقلة مطلق أصحاب القاتل وعشيرته من ذكور أو إناث أو أهل ديوانه. ومن الفقهاء من يفرّق بين (الدّية) و(العقل) كبعض الفقهاء من الإمامية، فالدية عنده " يرثها الذكور والإناث والزوج والزوجة ومن يتقرب بالأم على أحد القولين، ويختص بها الأقرب فالأقرب، كما تُورّث الأموال. وليس كذا العقل فإنه يختص بالذكور من العصبة دون من يتقرب بالأم ودون الزوج والزوجة، ومن الأصحاب من خصَّ به الأقرب ممن يرث بالتسمية". انظر شرائع الإسلام:٢٨٨/٤.

ويشترط في سجلّ (الأرشديّة)[1] ذكر أسماء المشهود عليهم بالأرشدية جميعًا وتعريفهم حتى يعلموا، وإلا بأن شهدوا أن (3-b) المدعي أرشدُ من المدّعى عليه ومن جميع أهل الوقف بدون ذكر أسمائهم فالمحضر فاسد. كذا في (رد المحتار).

باب الإجارة

يشترط ذكر الطَّوع في العقود التي يُبطلها الإكراهُ، كالإجارة[2]، والبيع[3]، والإبراء، والإقرار[4]، وإلا فالمحضر باطل. كذا في الهندية. وكذا يُشترط ذكرُ أول المدّة وآخرها، وأنّ الأُجرة مقبوضةٌ أو مؤجّلة. ويشترط ذكرُ الملك في الإجارة أن يقول الموثق: (آجر وهو يملك)، ولا بدّ من ذكر أنها في يد المؤجّر إذ ذاك، ولا بدّ من ذكر صلاحية الأرض للزراعة إن كان المأجور أرضًا. ولا بدّ من ذكر محلّ تسليم الأُجرة إذا كانت مكيلا أو موزونًا، ولفظ (على) في الإجارة {و}[5] كلام التعليل سواء فلا تقتضي الفساد. الكل من (الهندية)، من خلل المحاضر.

باب الدَّعْوى

يُشترط في دعوى العقار[6] ذكر المُدّعي أنه في يد المُدّعى عليه، وإثبات اليد بالبيّنة. كذا في (الهداية)[7]. ولا بد من أن يسأل القاضي الشهود أعن معاينة اليد يشهدون أم سمعوا إقرار المُدّعى عليه

(١) سجل الأرشدية هو السجل المخصص لمن بلغ الرشد، ويسمى الأرشد. والرُّشد في الاصطلاح: "هو أن يكون مصلحًا لما له.. ويعلم رشده: باختباره بما يلائمه من التصرفات؛ ليعلم قوته على المكايسة في المبايعات وتحفّظه من الانخداع". شرائع الإسلام:٢/١٠٠.

(٢) الإجارة: "عبارة عن العقد على المنافع بعوض هو مال. وتمليك المنافع بعوض إجارة وبغير عوض إعارة" التعريفات:٩. وقارن بالمغرب: ٢٠، وأنيس الفقهاء: ٢٥٩، وزاد صاحب الشرائع:٢/١٧٩: "تمليك المنفعة بعوض معلوم، ويفتقر إلى إيجاب وقبول".

(٣) البيع: لغة " مطلق المبادلة" التعريفات(أوربا:٤٩)، أو هو" أخذ شيء وإعطاء شيء آخر" أنيس الفقهاء:١٩٩. وفي الشرع: "عبارة عن إيجاب وقبول" أنيس الفقهاء:١٩٩. وعلى نحو مفصل وبيان الخلاف بين الحنفية والشافعية، هو " مبادلة المال المتقوم تمليكًا وتملكًا"، قال الشريف الجرجاني:" اعلم أنَّ كل ما ليس بمال كالخمر والخنزير، فالبيع فيه باطل سواء جُعل مبيعًا أو ثمنًا. وكل ما هو مال غير متقوم، فإن بيع بالثمن؛ أي بالدراهم والدنانير فالبيع باطل، وإن بيع بالعرض أو بيع العرض به فالبيع في العرض فاسد". وهذا رأي الحنفية، فالباطل عندهم" هو الذي لا يكون صحيحًا بأصله، والفاسد هو الصحيح بأصله لا بوصفه". وعند الشافعي: لا فرق بين الفاسد والباطل. انظر : التعريفات (أوربا: ٤٩)

(٤) الإقرار: مشتق من القرار، وهو لغة" إثبات ما كان متزلزلاً". وشرعًا: هو إخبار عن ثبوت حق الغير على نفسه وليس بإثباته". أنيس الفقهاء: ٢٤٣.

(٥) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٦) العقار: ماله أصل وقرار مثل الأرض والدار. الضيعة. كل ملك ثابت له أصل كالدار والنخل. قال بعضهم: وربما أُطلق على المتاع الأرض والضياع والنخل. وجمع العقار: عقارات. ويقال: في البيت عقارٌ حسن؛ أي متاع وأداة. انظر: التعريفات:١٥٨، المغرب:٣٢٣، مختار الصحاح: ٤٤٤، المصباح المنير:٤٢١، والمقصود من العقار في النص: المملوك من الأرض والبساتين ونحوهما مما هو ملك غير منقول.

(٧) الكتب المسماة بالهداية كثيرة. وربما قصد المؤلف كتاب (الهداية) في الفروع لبرهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣هـ. وهو شرح على متن له سماه (بداية المبتدي)، ولكنه في الحقيقة كالشرح لمختصر القدوري وللجامع الصغير. " وقد اعتنى به الفقهاء قديمًا وحديثًا"، وعليه شروح كثيرة وتعليقات وحواشٍ للعلماء. انظر: كشف الظنون: ٢٠٣٢، وما بعدها.

بأنه في يده؟ كذا في (تكملة الفتح)[1] لقاضي زادة. وكذلك يُشترط عند ذكر العبد أو المُعتق ذكر مولاهما[2]، ولا يصحّ بدون ذلك.

ويشترط ذكر الزوج عند دعوى النّكاح[3] إذا كان للمرأة زوج ظاهر، بأن يقول المُوثّق: "ادّعى فلان نكاح فلانة هذه بحضور زوجها فلان أنها منكوحتة" مثلاً، وكذلك في دعوى الاستهلاك على الصغير المحجور[4] يشترط ذكر حضور الصبي ووليّه[5]. في كتاب ((الأقضية)) أن إحضار الصبيّ في الدعوى شرطٌ، وبعض المتأخرين من مشايخنا شرط ذلك سواء كان الصغير مُدعيًا أو مُدعى عليه. كذا في التاسع والعشرين من (أدب قضاء الهندية). ويشترط عند الدعوى بسهم[6] مشاع تحديد الكل، ولا يُحدّ المشاع. ولا بدّ في الدعوى بسبب الشراء أن يقول: "باع[7] مني فلان وهو يملكه،" أو "ملكي اشتريته من فلان". ويشترط عند ذكر قيمة المستهلك التصريح بأن قيمته كذا يوم القبض أو يوم الاستهلاك.

ويشترط هذا أيضًا عند الشهادة من الشاهدين. كذا في (الهندية) من خلل المحاضر والسجلات. ويُشترط (4-a) في دعوى حق وضع الأخشاب على الحائط ذكر العدد والغلط والارتفاع. وفي دعوى المسيل لا بدّ من ذكر أنه مسيلُ مطرٍ أو غُسالةٌ[8]، كذا في الباب الواحد والعشرين من (شرح أدب القضاء) للخصّاف.

ويُشترط في دعوى الاستحقاق ذكر أنّ المستحق ادّعى بمطلق الملك أو بسبب.

---

(١) تكملة الفتح: لقاضي زادة، وهو صلاح الدين موسى بن محمد بن القاضي محمود الرومي، المعروف بقاضي زادة موسى جلبي: عالم بالرياضيات والفلك والحكمة. من أهل بروسه أو (بروصا) كما يكتبها الأتراك. سافر إلى خراسان وما وراء النهر وشيراز وسمرقند. أتم بناء المرصد في سمرقند. توفي نحو سنة ٨٤٠هـ، كما ذكر الزركلي. وذكر طاش كبري زاده في الشقائق النعمانية:١١٦. إنَّ وفاته كانت في الثالث من شهر رمضان سنة ٨٩٩هـ. وقال:" وكان له معرفة بالعلوم الرياضية أيضًا. ثم جعل قاضيًا بمدينة بروسة، وكان في قضائه مرضيّ السيرة محمود الطريقة، حتى كانت أيامه تواريخ الأيام في بلاد الإسلام".

(٢) كلمة (المولى) تطلق على معانٍ منها: المعتِق، والمعتَق، وابن العمّ، والناصر، والجار، والحليف. انظر: مختار الصحاح: ٧٣٦.

(٣) النكاح في اللغة: "الضم والجمع. وفي الشرع: عقد يرد على تمليك متعة البضع قصدًا. وفي القيد الأخير احتراز عن البيع ونحوه؛ لأنَّ المقصود فيه تمليك الرقبة، وملك المتعة داخل فيه ضمنًا". التعريفات:٢٦٦.

(٤) الحجر لغة: المنع. ومنه حجر عليه القاضي في ماله: إذا منعه من أن يفسده، فهو محجور عليه، يقال: حَجَر عليه حَجرًا من باب قتل: منعه التصرف، فهو محجور عليه. "والفقهاء يحذفون الصلة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ويقولون (محجور) وهو شائع". انظر: المغرب:١٠٣، والمصباح المنير:١٢١. والحجر في اصطلاح الفقهاء: المنع من التصرف في المال، والمحجور شرعًا " هو الممنوع من التصرف في ماله" شرائع الإسلام : ٩٩/٢. وموجبات الحجر ستة: الصغر، والجنون، والرقّ، والمرض المتصل بالموت، والفلس، والسّفَه. انظر: شرائع الإسلام: ٩٩/٢.

(٥) الولي: كل من ولي أمر واحد. مختار الصحاح:٧٣٦.

(٦) السهم : النصيب . المغرب: ٢٤٠.

(٧) باع الشيء يبيعه بيعًا ومبيعًا: شراه { أي باعه }. وباعه أيضًا: اشتراه. فهو من (الأضداد). مختار الصحاح: ٧١. ومنه ((البيّع والمشتري، والبائع)). الأضداد لابن الأنباري: ١٧٢.

(٨) الغسالة: "ماغسلت به الشيء ". مختار الصحاح:٤٧٤. والغسالة: ما يبقى من الماء الذي يُغسل به الثوب ونحوه.

ولا بدّ من التصريح أن البيّنة قامت على الإقرار أو على الاستحقاق والدعوى.

ويُشترط في دعوى الموجب في الجناية كونها موافقةً الحكم الشرعي وإلا فيوجب خلل المحضر أو السجل كما لو كانت الجناية خطأ فطلب المجنيُّ عليه الدّية من الجاني {في}[1] المحضر؛ لأنّ الطلب شرعًا من العاقلة في هذه الصورة، فلم يوافق الطلب الحُكم الشرعي. وجهل المدّعي ليس بعذرٍ عندنا؛ لأنّ الجهل يعدّ عُذرًا في مسائل معلومة، كمن تكلم بكلمة الكفر جاهلاً أنه يكفر بها، والرجل يسقي أرضه فأتلف زرع غيره فإنه يعذر. كذا في (الخانية) فيما يكون كفرًا. والحاصل أنَّ دعوى المدّعي لا بدّ أن تكون موافقة وجهها الشرعيَّ وإلا فغير صحيحة. كذا في (الهندية) من خلل المحاضر والسجلات. ويشترط في دعوى الولي أو الوصي دينًا للصغير بيان سببه لاختلاف الحُكم إذا تعدّدت الورثة. كذا في (نور العين). والمراد باختلاف الحكم، حالَ تعدّد الورثة، أنَّ الدين يقع للكلّ، فإذا ادّعى كلّه للصغير فيكون حاصلاً من بيع الدين في بعض احتمالاته، وهو غير صحيح.

باب الغصب[2]

يشترط بيان نوع المغصوب المستهلك، وبيان قيمته عند الدعوى، وإن كان من الألبسة بُيّن جنسه ونوعه وصفته وكبره وصغره ورجاليٌّ هو أو نسائيٌّ. هذا وإن لم يكن قائمًا، وإن كان قائمًا، فلا بدّ من إحضاره ليُشار إليه عند الدعوى. كذا في (الهندية) من خلل المحاضر.

باب الوكالة[3]

يشترط في الوكالة أن يكتب اسم الموكل والوكيل ونسبهما، ويعرف الوكالة عامّة أو خاصّة، فإن كانت عامة كتب: (وكلّه في سائر الدَّعاوي والخصومات أو كلّها). ولا يكفي قوله: (في الدعاوي والخصومات)؛ لأنَّ الجنسية تُبطل معنى الجمعية[4] (4-b) فيصدق بدعوى واحدة، ولا بدّ من بيان ثبوت الوكالة أنها بالبيّنة أو المشافهة أو الإقرار لاختلاف الحكم. كذا في (الخلاصة) و(نور العين).

(١) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق،ويبدو أنها ساقطة من الأصل.

(٢) "الغصب في اللغة : أخذ الشيء ظلمًا مالاً كان أو غيره. وفي الشرع: أخذ مال متقوم مُحرّم بلا إذن مالكه بلا خُفية "التعريفات: ١٦٨، وقارن بأنيس الفقهاء: ٢٦٩. وقال الجرجاني: "فالغصب لا يتحقق في الميتة؛ لأنها ليست بمال، ولا في خمر المسلم لأنها ليست بمتقوّمة، ولا في مال الحربي؛ لأنّه ليس بمحرّم. وقوله (بلا إذن مالكه) احتراز عن الوديعة. وقوله (بلا خُفية) ليخرج السرقة". التعريفات:١٦٨.

(٣) الوكالة لغة اسم للتوكيل. يقال: "وكّله بالبيع فتوكَّل به؛ أي قبل الوكالة له. وقيل للمأذون له أن يتوكّل لغيره أي يتولى الوكالة.." المغرب: ٤٩٣. والوكالة في اصطلاح الفقهاء استنابة في التصرّف" وهي عقد" ولا بدّ في تحققه من إيجاب دالٌ على القصد كقوله: وكّلتك أو استنبتك أو ما شاكل ذلك. ولو قال: وكلتني، فقال: نعم، أو أشار بما يدل على الإجابة كفي في الإيجاب. وأما القبول فيقع باللفظ كقوله: قبلتُ أو رضيتُ أو ما شابهه، وقد يكون بالفعل كما إذا قال: وكلتك في البيع فباع". شرائع الإسلام:٢/١٩٣.

(٤) أراد بـ: (الجنسية) معنى (الجنس) في المصطلح اللغوي، وهو ما دلّ على النوع. قال الشريف الجرجاني: " الجنس: اسم دالٌّ على كثرة مختلفين بالأنواع". التعريفات: ٨٢. وأراد بـ (الجمعيّة) معنى (الجمع) في المصطلح اللغوي أيضًا، وهو ما دلّ على كثرة من غير قيد النوعيّة. ومفهوم كلام المصنف أنّ عبارة: (في الدعوى والخصومات) تفيد نوع الدعاوى والخصومات، ولا تدل بالضرورة على جميعها كما في عبارة :(في سائر الدعاوي والخصومات).

باب البيع

يشترط أن يذكر أنه كان في ملك البائع حين البيع إن ادعى المشتري المبيع[1]، وإن كان المدعي البائع ويطلب من المشتري الثمن يشترط ذكر قبض المبيع أو إحضاره المجلس. كذا في (الخلاصة)[2].

باب الجنايات

يشترط في دعوى جناية السنّ أن يبيّن أنها كانت سوداء أو بيضاء. وكذلك في ثبوت الجناية يكتب الموثّق بشهادة أو إقرار. ولا بدّ من ذكر العمد أو الخطأ في الدعوى. كذا في (الخلاصة).

باب الوقف

يشترط في دعوى الوقف أن يكتب وقفهُ، وهو يملكه، وإلاّ فالمحضر فاسد. قومٌ ادّعوا أرضًا أنها وقف فُلانٍ علينا، لا تُسمع؛ لأنّ الإنسان يقف مالاً يملك[3]. وكذا لو شهدوا أنه وقف هذه الأرض وقفًا صحيحًا، وكانت في يده حتى مات، لا تُقبل ولو قالوا مع ما ذكرنا، وكان مالكها قبل، وقُضي لهم بأنها وقفٌ وانتُزع من يد الغاصب. كذا في (البزازية)[4]، و(الهندية) من السادس في الوقف، فقد صرّح بأنّ الدعوى والشهادة بدون ذكر (أنه وقفها وهو يملكها) لا تصحُّ. وكذلك يُشترط للحُكم بالوقف أن يكتب المُوثقُ الحكم بلزومه. وقوله: (قضيتُ) أو (حكمتُ بصحته) غيرُ صحيح؛ لأنَّ الوقف صحيح جائز بالاتفاق، وإنما الاختلاف في اللزوم. كذا في الخلاصة.

قلت: هذا إذا كان الوقف لا خلاف في صحته، أما إذا كان مختلفًا في صحته كالمنقول- مثلاً - فلا بدّ من قول الموثّق: (وحكم بصحته ولزومه) فتأمّل.

ويشترط في دعوى حلول الإجارة بالموت بيانُ أولِ المدّة وآخرها ومقدار الأُجرة وقبضها أو أجلها، ومدّة الأجل وتاريخ الموت. كذا في (الخلاصة). ولا تنس ما مر في الإجارة من ذكر المؤجر ووجه نظارته على

---

(١) في مختار الصحاح: ٧١"...والشيء مبيعٌ ومبيوعٌ، مثل: مخيط ومخيوط".

(٢) الكتب المسماة بالخلاصة كثيرة. انظر: كشف الظنون:٧١٧ وما بعدها. ولم يبيّن المؤلف ما يدل على مقصوده من كتاب (الخلاصة) الذي ذكره كثيرًا في رسالته. وربما كان المراد بالخلاصة أحد الكتابين الآتيين:

١- خلاصة الفتاوي لطاهر بن أحمد بن عبد الرشيد البخاري المتوفي سنة ٥٤٢هـ.

٢- خلاصة النهاية في فوائد الهداية: (والهداية) في الفروع لبرهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣هـ. أول من شرحها حسام الدين حسين بن علي المعروف بالصغناقي الحنفي المتوفى سنة ٧١٠هـ. واختصر هذا الشرح جمال الدين محمود بن أحمد بن السراج القونوي المتوفى سنة ٧٧٠هـ في مجلد سمّاه (خلاصة النهاية في فوائد الهداية)، انظر: كشف الظنون: ٢٠٣٢.

(٣) هكذا في الأصل. والصواب: (يملكه)، ولعله سقط.

(٤) ((البزازيّة) في الفتاوي: للشيخ حافظ الدين محمد بن محمد بن شهاب، المعروف بابن بزّاز الكردي، الحنفي، المتوفى سنة ٨٢٧هـ. وهو" كتاب جامع لخص فيه زبدة مسائل الفتاوي والواقعات من الكتب المختلفة ورجّح ما ساعده الدليل وذكر الأئمة أنَّ عليه التعديل، وسماه (الجامع الوجيز). فرغ من جمعه وتأليفه كما ذكر في أواسط كتابه عام ٨١٢هـ. كشف الظنون:٢٤٢.

الوقف من أي جهة من الواقف أو القاضي. هذا إذا كان المحلّ وقفًا، وإن كان ملكًا فلا بدّ من ذكر الملك بأن يقول: (آجرها وهو يملكها) إلى آخر ما ذُكر هناك.

باب الوصيّ

يشترط ذِكر وجه وصاية (5-a) الوصيّ من أبٍ أو أُم أو قاضٍ. كذا فيما يتعلّق بصكّ الوقف من (الخانيّة). ادّعى الوصيُّ دينًا للصغير يُشترط أن يبين الدَّين من أي سببٍ بالوراثة أو بسبب آخر، فإن كان بالوراثة فلا بدّ أن يشهد على موت الأب وعلى كونه وصيًّا. كذا في الخلاصة. ادُّعي على آخر أنّ الدار التي في يده ملكُ هذا الصبي؛ لأنّها كانت ملك والده، اشتراها من نفسه لابنه الصغير بثمن معلوم، هو مثل قيمة الدار، وأبرأه من الثمن، ومات أبوه، والدار ملك الصغير، فإنّ فيه خللاً من ثلاثة وجوه، أحدها: يُشترط أن يكتب أنّ القاضي أذنَ له بالخصومة والقبض. الثاني: أن يكتب أنّ الثمن مثلُ قيمة المعقود عليه يوم العقد. الثالث: يجب ذكر الثمن، ماذا[1]؟ إذ يجوز أن يكون عُروضًا[2]. والإبراء من الأعيان لا يصحّ. ويحتمل أن يكون ميتةً كذا في (الخلاصة). فبان أن ذكر الإذن بالخصومة والقبض شرط في المحضر والسجلّ على المفتى به في وصيّ القاضي، ويؤيده ما في الخلاصة أيضًا. قال: "ادّعى القيّم في أمر الصبي فلان المأذون من الحاكم بالدعوى وإقامة البيّنة أن محدود كذا ملك الصغير فلان، وفي يد هذا المدَّعى عليه بغير حق، فواجب عليه رفعُ يده عن هذا ليقبضه بأمر مبتدأ من الحاكم، لا يصحّ، لأنّ القيّم كالوكيل، والوكيل بالخصومة، وإن كان يملك القبض عند أصحابنا الثلاثة، لكنّ الفتوى على أنه لا يملك القبض، فلا بدّ من ذكر الإذن بالقبض، أو يقول المأذون له بالخصومة والقبض. وهذا في وصيّ القاضي، أما وصيّ الأب فإنه يملك ذلك". انتهى.

قلت: مراده بالأصحاب الثلاثة: الإمام[3] وأبو يوسف[4] ومحمد[5]. (رحمهم الله تعالى). قالوا: الوكيل

---

(١) هكذا في الأصل. ويقتضي السياق أن تكون العبارة: (لماذا) على إنشاء الاستفهام. ولعله سقط.

(٢) "العروض: الأمتعة التي لا يدخلها كيل ولا وزن ولا تكون حيوانًا ولا عقارًا". مختار الصحاح:٤٢٤.

(٣) هو أبو حنيفة إمام الحنفية المعروف. وهو النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي، الفقيه المجتهد المحقق. أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. مولده سنة ٨٠هـ.ووفاته سنة ١٥٠هـ، أصله من بلاد فارس، ولد ونشأ بالكوفة، وكان يبيع الخزّ ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع إلى التدريس والإفتاء. أراده عمر بن هبيرة (في أيام الدولة الأموية) على القضاء فامتنع، وأراده المنصور على القضاء ببغداد فامتنع أيضًا، فحبسه حتى مات. له من المصنفات: المسند (في الحديث)، والمخارج (في الفقه)، وتنسب إليه رسالة (الفقه الأكبر)، توفي ببغداد ودفن فيها.

(٤) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، صاحب أبي حنيفة وتلميذه،وأول من نشر مذهبه. فقيه حافظ، ولد بالكوفة وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. وهو أول من دعي بـ (قاضي القضاة)، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة. ولد سنة ١١٣هـ وتوفي سنة ١٨٢هـ. من كتبه: الخراج، والآثار "وهو مسند أبي حنيفة"، والنوادر، واختلاف الأمصار، وأدب القاضي، والأمالي (في الفقه)، والرد على مالك بن أنس، والفرائض، والوصايا،...، والجوامع (في أربعين فصلاً) ألفه ليحيى بن خالد البرمكي، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به.

(٥) أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بني شيبان فقيه أصولي. نشر علم أبي حنيفة. أصله من قرية (حرستة) في غوطة دمشق. ولد بواسط سنة ١٣١هـ، ونشأ بالكوفة، فسمع من أبي حنيفة، وانتقل إلى بغداد فولاه الرشيد القضاء بالرقّة ثمّ عزله. خرج مع الرشيد إلى خراسان، ومات في الري سنة ١٨٩هـ. من كتبه: المبسوط، والزيادات، والجامع الكبير، والجامع الصغير، والآثار، والسير، والموطأ، والأمالي، والمخارج في الحيل...الخ.

بالخصومة يملك القبض. وقال زُفر[1]: لا يملك، وعليه الفتوى. قالوا: لفساد الزمان، وهي من المسائل التي يُفتى بها على قول زفر، وجملتها خمس عشرة[2] مسألة، إحداها[3]: هذه. وقعود المريض في الصلاة قعود المتشهّد. وكذلك المتنقل[4]. وضمان (5-b) الساعي بالبريء إلى السلطان. ودعوى العقار لا بدّ أن تكون بأربعة حدود. وقبول شهادة الأعمى على التسامع فيما تقبل. ورؤية الدار من صحنها لا يسقط الخيار. وكذلك الثوب مطويًّا. وتسليم الكفيل ما كفله في المجلس، أي: مجلس الحكم عند اشتراطه. وبيان المرابح[5] في البيع سلامة ما اشتراه. وتأخير الشفيع[6] شهرًا بعد الإشهاد يُسقطها. وسماع القاضي البيّنة على الغائب للنفقة من زوجته صحيحٌ. وكون ثُلُث ما بقي بعد الهلاك من بقرٍ أو غنمٍ هو الوصيّة فيما إذا هلك الثلثان – مثلاً– وكانت الوصية بالثلث منه. وعدم جبر الغريم على قبول الجياد إذا كان الدين زيوفًا[7]. وسقوط انفاق الملتقط[8] إذا حبس ما التقطه للوفاء وهلك. كذا أفاده الحموي. ويشترط أن يكتب الموثّق أنّ القاضي مأذون له في نصب الأوصياء لأنّ القاضي لا يملك نصب وصيّ ومتولّ إلا إذا كان التصرّف في الأوقاف والأيتام منصوصًا عليه في منشوره، ونظيره مسألة استخلاف القاضي. كذا أول الفصل السادس والعشرين من (نور العين) . ثم قال: " لو نصب القاضي وصيًّا في تركة أيتامٍ وهم في ولا يته لا التركة، أو بالعكس، أو بعض التركة في ولايته دون البعض، قيل يصحّ النّصب على كل حال، ويعتبر التظالم والاستعداء فيصير وصيًّا في كل التركة أينما كانت. وقيل يصير وصيًّا فيما في ولايته من التركة لا في غيره. وقيل:

---

(١) أبو الهذيل زُفر بن الهذيل بن قيس العنبري. أصله من أصفهان، وهو من أصحاب أبي حنيفة. وأقام بالبصرة وولي قضاءها، وتوفي بها نحو سنة ١٥٨هـ..

(٢) في الأصل. (خمسة) ،والصواب ما أثبتناه

(٣) في الأصل (أحدها).

(٤) المتنفل: من التنفل وهو التطوّع. مختار الصحاح: ٦٧٤. والتنفل من النَّفل. وفي التعريفات :٢٦٥: النفل في الشرع : " اسم لما شُرّع زيادة على الفرائض والواجبات، وهو المسمّى بالمندوب والمستحبّ والتطوّع".

(٥) المرابح: صيغة اسم الفاعل من (رابح). والمرابحة في اصطلاح الفقهاء: " البيع بزيادة على الثمن الأول". التعريفات: ٢٢٣أو " نقل ما ملكه بالعقد الأول بالثمن الأول مع زيادة ربح". أنيس الفقهاء:٢١١. وينبغي على الرابح أن يخبر برأس ماله فيقول: بعتك – وما جرى مجراه– بربح كذا. ولا بدّ أن يكون رأس ماله معلومًا وقدر الربح معلومًا. ولا بدّ من ذكر الصَّرف والوزن إن اختلفا..." شرائع الإسلام: ٢/٤٠.

(٦)الشفيع: صاحب الشفعة، وهي " تمليك البقعة جبرًا بما قام على المشتري بالشركة والجوار". التعريفات:١٢٣. والشفعة بهذا المعنى اسم بملكك المشفوع بملكك. من قولهم:" كان وترًا فشفعته بآخر أي جعلته زوجًا له" أو من " الشفع وهو الضم، سميت بها لما فيها من ضم المشتراة إلى ملك الشفيع" انظر: أنيس الفقهاء: ٢٧١.

(٧) الغريم: الذي عليه الدين. مختار الصحاح: ٤٧٣. والجياد: الدراهم الجياد، والزُّوف: الدراهم الزُّيوف، والزَّيف:" ما يردّه بيت المال من الدراهم". التعريفات: ١٢٠.

(٨) الملتقط: الذي يأخذ اللقطة، واللقطة "مال يوجد على الأرض ولا يعرف له مالك" التعريفات: ٢٠٣. وفي أنيس الفقهاء:١٨٨: "الشيء الذي تجده مُلقى فتأخذه" وهي بضم اللام وفتح القاف، اسم الفاعل للمبالغة، وبسكون القاف اسم المفعول: "وسمي هذا المال الملقوط باسم الفاعل منه لزيادة معنىً اختص به، وهو أنّ كل من رآها يميل إلى رفعها، فكأنما تأمره بالرفع؛ لأنها حاملة إليه فأسند إليه مجازًا، فجعلت كأنها هي التي رفعت نفسها..." أنيس الفقهاء:١٨٨.

يُشترط لصحة النصب كون اليتيم في ولايته، ولو نصب متوليًا على الوقوف، ولم يكن الواقف والموقوف عليه في ولايته، قيل: صحّ النَّصب ولو وقعت المطالبة في مجلسه. وقيل: لا يصح. ولو كان الموقوف عليه في ولايته بأن كان طلبة العلم أو رباطًا أو مسجدًا في مصره دون الوقف . قيل: يعتبر التظالم والاستعداء، وقيل: لو كان الموقوف عليه حاضرًا جاز، ثم رمز (من). وقال: قاضي سمرقند[1] : «نصب قيّمًا في وقف بخارى[2]، والمدعى عليه بسمرقند صحّ الدعوى والسجلّ». انتهى[3]. (6-a).

تنبيه:

تناقض الوصيّ والمتولي لا يكون مانعًا من الدعوى، كما لو ادّعى الصغير الملك في محدود بعد إقرار وصيّه بالوقفيّة - مثلاً - أو اعترف المتولي بالملك ثمّ ادّعى من نصبه القاضي للدعوى بما اعترف به المتولي الأول، فادّعى أنه وقف، يُسمع منه، ولا يمنع من ذلك اعتراف الوصي أو المتولي الأول. كذا في (الخلاصة) من خلل المحاضر.

باب الاستحقاق

يشترط في دعوى الاستحقاق ذكر أن المستحق ادّعى بمطلق الملك عليه أو الاستحقاق والدعوى. كذا في (الهندية) من خلل المحاضر. كتب في المحضر: جرى الحُكم من القاضي فلان باستحقاق الحمار. قال: والخلل فيه أنه لم يذكر أنَّ الاستحقاق بأي سبب، بالملك المطلق، أو الملك بسبب، والحكم يختلف. وكذا لم يذكر أنَّ البيّنة على الإقرار أو على الدعوى، وذكر فيه أنَّ المستحق منه رجع على بائعه، قبل القاضي فلان، ولم يذكر الرجوع بقضاء أو بغير قضاء، وهو خلل لجواز أن يكون الرجوع عند القاضي لكن بالتراضي. كذا في (الخلاصة).

والأحوط أن يقول شاهد الاستحقاق: واجب على هذا المدعى عليه أن يقصر يده عن المدعى به، حيث في ذلك اختلاف المشايخ كما يأتي قريبًا عن (الهندية).

---

(١) سمرقند: مدينة في خراسان. حسنة كبيرة، تقع على جنوب وادي الصُّغد، وكانت فيها دار الإمارة على خراسان قبل أن تتحول إلى بخارى. افتتحها سلم بن زياد في أيام يزيد بن معاوية، ثم انتقضت وامتنعت حتى افتتحها قتيبة بن مسلم الباهلي في أيام الوليد بن عبد الملك. انظر: الحميري، الروض المعطار: ٣٢٢ وما بعدها.

(٢) بخارى: من بلاد خراسان، وكان فيها دار الإمارة على خراسان كلّها. افتتحها سعيد بن عثمان بن عفان في أيام معاوية، ودخلها التتر سنة ٦١٦هـ، وخربوها، وقتلوا من فيها. انظر: الروض المعطار:٨٢، وما بعدها

(٣) أي انتهى ما نقله من نور العين.

في طريق سبك المحاضر والسجلات. قال في (الخلاصة): الأصل في المحاضر والسجلات أن يبالغ في الذكر والبيان بالصريح، ولا يكتفى بالإجمال، حتى قيل لا يُكتفى أن يكتب: حضر فلانٌ وأحضر معه فلانًا فادّعى الذي حضر على هذا الذي أحضره معه. وكذا يكتب عند ذكر المدّعي والمدّعى عليه لفظة: (المدّعي هذا)، و(المدعى عليه هذا)، قال الإمام النسفي[1] - رحمه الله تعالى- في (فتاويه) من المحاضر والسجلات: الإشارة في مواضعها من أهم ما يحتاج إليه في الدعاوى (6-b)، وكذلك لا بدّ أن يبيّن الكاتبُ تفسير الإنكار من المدّعى عليه ليصحّ قيام البيّنة. وكذلك يكتب في السجل حُكم القاضي ولفظ الشهادة بتمامها، ولا يُكتفى بقوله: (وثبت عنده) أو (عندي) على الوجه الذي تثبت به الحوادث الشرعية. وما لم يذكر الحكم والشهادة بتمامها لا يُفتى بصحّة السجلّ، وكذا لا يفتى بصحته إذا قال: " وشهد الشهود على موافقة الدعوى". ونُقل عن شمس الأئمة[2]. أنه كان يقول: " كيف يفتى بصحة السجل إذا قال: " وشهد الشهود على موافقة الدعوى"، والمدعي يقول: (المدعى به ملكي)، والشاهد يقول: (المدّعى به ملك المدّعي) فلا يكون بينهما موافقة. قال: والمختار أن يُكتفى به في السجلات دون المحاضر)). انتهى. وفي (الهنديّة) من أول المحاضر والسجلات ذكر الشيخ الإمام الزاهد نجم الدين شمس الإسلام والمسلمين عمر النسفي[2] -رحمه الله تعالى-: أن الإشارة في الدعاوى والمحاضر ولفظ الشهادة بتمامها مما يحتاج إليه، وكذا في السجلات لا بدّ من الإشارة حتى قالوا: إذا كتب في محضر الدعوى (حضر فلان مجلس الحكم وأحضر فلانًا مع نفسه فادّعى هذا الذي حضر عليه)، لا يُفتى بصحة المحضر، وينبغي أن يكتب: (فادّعى هذا الذي حضر على هذا الذي أحضره معه). وكذلك عند ذكر المدعى عليه أثناء المحضر لا بدّ من ذكر (هذا)، فكتب: (المدعي هذا) و(المدعى عليه هذا)؛ لأنّ بعض المشايخ كانوا لا يفتون بالصحة بدونه. وكذلك قالوا في السجلات إذا كتب: (وقضيت لمحمد هذا على أحمد هذا) لا بدّ أن يكتب: (وقضيت

---

(١) النسفي نسبة إلى النسف وهي مدينة قريبة من سمرقند، نسب إليها علماء وفضلاء أشهرهم خمسة، وهم: مكحول بن الفضل المتوفى سنة ٣١٨هـ، وميمون بن محمد المتوفى ٥٠٨، وعبد العزيز بن عثمان المتوفى سنة ٥٦٣هـ، ومحمد بن محمد المتوفي سنة ٦٨٧هـ، وعبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٧١٠هـ، وأغلب هؤلاء من فقهاء الحنفية، ولم يظهر من نص المؤلف ما يدل على أحدهم، وقد نصّ على كتاب الفتاوى، وبعد التحقيق تبيّن أنّ اثنين فقط نسب إليهما كتاب من الفتاوى من هؤلاء الخمسة وهما عبد العزيز بن عثمان والحسين بن خضر ونرجح أن المقصود بالنسفي، هو الأول بدليل وصف المؤلف له (بالإمام) بمعنى أنه بلغ مبلغًا كبيرًا في العلم واشتهر في بلده. وهذا لا ينطبق إلا على عبد العزيز بن عثمان بن إبراهيم النسفي الذي كان إمام عصره في بخارى، ومن كتبه: المنتقد من الزلل في مسائل الجدل، وكفاية الفحول في الأصول، والفصول (في الفتاوي). أما النسفي الآخر فهو الحسين بن خضر، كان قاضيًا من فقهاء الحنفية، وسكن بخارى أيضًا، وأقام ببغداد مدة ومات في بخارى. ومن كتبه: الفوائد، والفتاوى.

(٢) أبو حفص نجم الدين النسفي، وهو عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل: عالم بالتفسير والأدب والتاريخ. من فقهاء الحنفية. ولد بنسف وإليها نسبته، وتوفي بسمرقند. قيل: له نحو مائة مصنف. منها: التيسير في التفسير، والمواقيت، والإشعار بالمختار من الأشعار (عشرون جزءًا) و(نظم الجامع الصغير) في فقه الحنفية، وقيد الأوابد (منظومة في الفقه) وتاريخ بخارى، والقند في علماء سمرقند، وطلبة الطلبة (في الاصطلاحات الفقهية)، والعقائد (يعرف بعقائد النسفي). وكان يلقب بمفتي الثقلين. ولد سنة ٤٦١، وتوفي سنة ٥٣٧هـ.

(١) أي المدّعي والمدّعي عليه.

لمحمد هذا المدعي على أحمد هذا المدّعى عليه). كذا في المحيط. وكذلك قالوا: إذا كتب في المحضر عند ذكر شهادة الشهود وأشاروا إلى المتداعيين[1] لا يفتى بالصحة. وقالوا- أيضًا - : إذا كتب في صك الإجارة: (آجر فلان بن فلان أرضه بعد ما جرت المبايعة الصحيحة بينهما على الأشجار والزراجين[2] التي في هذه (7-a) الأرض)، لا يفتى بصحته. وينبغي أن يكتب: (آجر الأرض من المستأجر هذا بعد ما باع هذا الآجرُ من المستأجر هذا). وقالوا أيضًا: إذا كتب في المحضر: (أحضر المدعي شهوده وسألني الاستماع إليهم فشهدوا على موافقة الدعوى)، لا يُفتى بصحة المحضر. وينبغي أن يكتب ألفاظ الشهادة بتمامها؛ لأنّ القاضي عسى يظن أنّ بين الدعوى والشهادة موافقة ولا يكون كذلك في الحقيقة. وكذلك قالوا: إذا كتب في السجل وشهد الشهودُ على موافقة الدعوى، لا يُفتى بصحة السجلّ. وكذلك قالوا في كتاب القاضي إلى القاضي: لو كتب شهدوا على موافقة الدعوى، لا يفتى بصحة الكتاب.

ومن المشايخ من فرّق بين كتاب القاضي والسجلّ ومحضر الدعوى، فأفتى بصحة الكتاب والسجل وبفساد محضر الدعوى. وكذلك قالوا في السجلّ إذا كتبت على وجه الإيجاز: "ثبت عندي من الوجه الذي تثبت به الحوادث الحُكميَّة والنوازل الشرعية"، لا يفتى بصحة السجلّ ما لم يبيّن الأمر على وجهه. كذا في (الذخيرة)[3].

قالوا: ويكتب في الدعوى مُوثّقُ المحضر: (شهد الشهودُ بكذا عقب دعوى المُدعي هذا). ويكتبُ أيضًا: (عقب الجواب بالإنكار من المدعى عليه هذا)، لئلا يظنَّ ظانٌّ أنهم شهدوا قبل الدعوى أو شهدوا على الخصم المُقر؛ لأنّ الشهادة على الخصم المُقر لا تسمع إلا في مواضع معدودة. قال في (الذخيرة): وعندي أنَّ كل ذلك ليس بشرط، وذُكر في الشروط أن يُذكر، وشهد كل واحد بعد الدعوى والجواب بالإنكار من المدّعى عليه وبعد الاستشهاد من المدعي كي يخرج عن حدّ الخلاف؛ لأنَّ عند الطحاوي[4] إذا شهدوا بعد الدعوى والإنكار بدون طلب المدّعي الشهادة، لا تُسمع. قال في (الذخيرة): وعندي كل ذلك ليس بشرط. كذا في (الفصول العمادية)[5]، ثم قال: (وهل يشترط قول الشاهد واجب على هذا المدعى عليه أن يقصر يده عن هذا المدعى (7-b) به؟ اختلف فيه المشايخ. والصحيح أنه لا يشترط والأحوط أن يذكر الشاهد ذلك. وقيل يُشترط عند طلب التسلّم من المُدعي). انتهى.

---

(٢) الزراجين : جمع زرجون، وهو شجر العنب، وقيل قضبانه، المغرب : ٢٠٧، والكلمة الفارسية معناها لون الذهب، تسمى به الكرمة مجازاً. أنظر: معجم أسماء النبات: ١٩٠، وأصلها: زركون بمعنى لون الذهب أو ذهبي، وهي مؤلفة من كلمتين زر=لون وكون:= ذهب. انظر المعجم الذهبي:٣١٤.

(٣) (ذخيرة المؤمنين) المشهورة بالذخيرة البرهانية، لبرهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مازه البخاري المتوفي سنة ٦١٦هـ، اختصرها في كتابه المشهور بالمحيط البرهاني. كشف الظنون.

(٤) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلمة الأزدي الطحاوي: ولد في (طحا) بصعيد مصر سنة ٢٣٩. وانتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر. تفقّه على مذهب الشافعي ثم تحوّل حنفيًا. اتصل بأحمد بن طولون في الشام. وتوفي في القاهرة سنة ٣٢١هـ. من تصانيفه: شرح معاني الآثار، وأحكام القرآن...الخ.

(٥) لجلال الدين بن محمد العمادي، وذكر له حاجي خليفة (كشف الظنون: ١٠٤٦) كتابًا في علم الشروط والسجلات.

(٦) شمس الأئمة عبد العزيز بن أحمد الحلواني المتوفى سنة ٤٥٦هـ. له شرح على كتاب أدب القاضي للخصّاف. وله كتاب في علم الشروط والسجلات سماه (البسيط). انظر: كشف الظنون: ٤٦، ١٠٤٦.

وفي (الهنديّة) من المحل المذكور ما نصّه: محضر في إثبات الدَّين المطلق، يكتبُ بعد التسمية: حضر مجلس القضاء في كورة[1] بخارى قبل القاضي فلان (يذكر لقبه واسمه ونسبه) المتولي لعمل القضاء والأحكام ببخارى، نافذ القضاء والإمضاء بين أهلها من قبل فلان في يوم كذا في شهر كذا من سنة كذا، فبعد ذلك إن كان المدعي والمدعى عليه معروفين باسمهما ونسبهما، فيكتب اسمهما ونسبهما، فيكتب: حضر فلان بن فلان، وأحضر مع نفسه فلان بن فلان. وإن لم يكونا معروفين باسمهما ونسبهما يكتب: حضر رجل وذكر أنه يُسمى فلانَ بن فلان، فادّعى هذا الذي حضر على هذا الذي أحضره معه أنَّ لهذا الذي حضر على هذا الذي أحضره معه كذا وكذا دينارًا نيسابورية[2] حمراء جيدة مناصفة موزونة بوزن مثاقيل[3] مكّة دينًا لازمًا وحقًّا واجبًا بسببٍ صحيح. وهكذا أقرَّ هذا الذي أحضره معه، في حال جواز إقراره، طائعًا وراغبًا بجميع هذه الدنانير المذكورة الموصوفة في هذا المحضر على نفسه لهذا الذي حضر دينًا لازمًا وحقًّا واجبًا بسبب صحيح إقرارًا صدقه هذا المدعي فيه خطابًا، فواجب على هذا المُدّعى عليه أداءُ هذا المال المذكور فيه إلى هذا الذي حضر وطالبه بالجواب وسأل مسألته.

فبعد ذلك ينظر إن كان أقرّ المُدّعى عليه بما ادّعاه المُدّعي فقد تمّ الأمر، ولا حاجة للمدّعي إلى إقامة

---

(١) ((الكورة: المدينة والجمع: كُور)). مختار الصحاح

(٢) الدينار النيسابوري نسبة إلى نيسابور، وهي بلاد خراسان: بلد واسع افتتحها عبد الله بن عامر بن كريز في خلافة عثمان بن عفان. دخلها التتر سنة ٦١٨هـ وخربوها. انظر: الروض المعطار: ٨٨، ٥٨٩. واختلف في وزن الدينار - وهو من الذهب - فقيل يزن ستين حبة، والحبّة تساوي حبة الشعير أو الخردل البري.وقيل: يزن ستًا وستين حبة؛ أي (٤,٢٥٠) غم. وقيل: يزن إحدى وسبعين شعيرة ونصف شعيرة تقريبًا بناءًا على أنَّ الدانق ثماني حبّات، فالدينار ثمان وستون وأربعة أسباع حبّة. وكان دينار الذهب بمكة في عهد النبي (ﷺ) يزن مائتين وثمانية وعشرين درهمًا. انظر: المعجم الاقتصادي الإسلامي:١٦٤، ١٦٥.

(٣) المثقال يزن درهمًا وثلاثة أسباع درهم، وكل سبعة مثاقيل عشرة دراهم باتفاق المصادر. انظر: مفاتيح العلوم: ٢٩، والمصباح المنير: ٨٣، والنقود والمكاييل والموازين للمناوي:٣٥، والمعجم الاقتصادي: ٤٠٤.

والظاهر أنَّ المثقال " أصل متفق عليه لم يخالف في جاهلية الإسلام"، كما قال المناوي. انظر النقود:٣٦. ويكون المثقال بذلك زنة اثنين وعشرين قيراطًا إلا حبّة أو زنة اثنتين وسبعين حبة شعير. والمقصود بالدرهم الذي يعرف به المثقال هو الدرهم الشرعي أو الدرهم الإسلامي، وهو اسم للمضروب من الفضة، ويزن ستة دوانق أو ست عشرة حبة خرنوب. انظر: المصباح: ١٩٤. الدرهم الشرعي في عهد عبد الملك المجمع عليه زنة العشرة منه سبعة مثاقيل، وزنة الدرهم الواحد خمسون حبة وخُمسا حبة من الشعير. انظر المعجم الاقتصادي:١٥٢. ويتلخص مما تقدم:

أنّ الدرهم الشرعي = ١٦ حبة خرنوب أو (٥٠) حبة شعير وخمسي حبة من الشعير. والمثقال = درهمٌ وثلاثة أسباع درهم ولكي نفهم زنة المثقال على نحو دقيق ينبغي أن نعرف الخرنوب وحبتّه. أما حبة الشعير فمعروفة. وربما المقصود بالحبّة ههنا سواء حبة الخرنوب أم الشعير المستوية منها أي المتوسطة الكبر.

والخرنوب أو الخرّوب ويسمى أيضًا قراطيا تسمية بأصل الكلمة اليوناني: (Keratia) بزره يسمى عيون الديكة. ومن أسمائه أيضًا: القريط الشامي، والينبوت الرومي. انظر: معجم أسماء النبات:٤٥. واسم الخرنوب في التصنيف العلمي للنبات (The Carbo Tree)، وهو شجر مثمر من الفصيلة القرنية (أي يشبه البازلاء والباقلاء) ثمرته: الخرنوبة أو المخروبة. يؤكل الثمر ويستخرج منه ربّ ويطحن أيضًا ويخبز في بعض البلدان. موطنه في بلاد البحر المتوسط منذ القديم ويتوطن في سوريا. شجرته دائمة الخضرة تزهر في الخريف. انظر: قاموس الغذاء والتداوي بالنبات :١٩٩.

وكلمة (مثقال) من حيث التأصيل اللغوي ليست من أصل عربي، والظاهر أنها من أصل آرامي، واللفظ السرياني للكلمة هو (matqola). انظر: غرائب اللغة العربية :١٧٦.

البيّنة. وإن أنكر ما ادّعاه يحتاج إلى إقامة البيّنة، ثم يكتب: فأحضر المُدعي هذا نفرًا ذكر أنهم شهوده، وسألني الاستماع إليهم فأجبته، وهم: فلان وفلان وفلان (يكتب أسماء الشهود وحلاهم[1]، وأنسابهم ومسكنهم ومُصلاّهم). وكذا ينبغي للقاضي أن يأمر بكتابة لفظ الشهادة بالفارسية[2] على قطعة قرطاس حتى يقرأ صاحبُ مجلس القاضي (8-a) على الشهود ذلك بين يدي القاضي. ولفظه الشهادة في هذه الصورة: أشهد أنَّ هذا المدعى عليه - ويشير إليه- في حال جواز إقراره بكل الوجوه أقر بالطوع والرغبة. وقال: عليَّ لهذا المدّع، ويشير إليه- عشرون دينارًا ذهبًا أحمرَ بُخاريّة نافعةً مناصفة موزونة بوزن مثاقيل مكة كما هو مذكور في هذا المحضر - ويشير إليه - بسببٍ صحيح وإقرار صحيح . وهذا المدعي - ويشير إليه- صدقه في إقرار مواجهةً. ثم يقرأ صاحب المجلس على الشهود ذلك بين يدي القاضي، ثم القاضي يقول للشهود: هل سمعتم لفظ هذه الشهادة التي قرئت عليكم؟، وهل تشهدون كذلك من أولها إلى آخرها؟ فإن قالوا سمعنا ونشهد كذلك، يقول القاضي لكل واحد منهما: قل أشهد كما قرأ الشيخ من أوله إلى آخره لهذا المدعي على هذا المدعى عليه، وأشار القاضي بأمر كل واحد منهم حتى يأتي بلفظ الشهادة من أولها إلى آخرها كما قرئت عليهم، فإذا اتوا بذلك يكتب في المحضر بعد كتابة أسامي الشهود وأنسابهم ومسكنهم ومصلاهم: شهد هؤلاء الشهود بعدما استشهدوا عقب الدعوى من المدعي والجواب بالإنكار من المدعى عليه شهادة صحيحة مستقيمة متفقه الألفاظ والمعاني من نسخة قرئت عليهم جميعا، وأشار كل واحد منهم إلى موضع الإشارات. وسجل هذه الدعوى أن يكتب بعد التسمية: يقول القاضي فلان (يذكر لقبه واسمه ونسبه) المتولي لعمل القضاء والأحكام ببخارى ونواحيها، نافذ القضاء بين أهلها- أدام الله تعالى توفيقه - من قبل الخاقان[3] العادل العالم فلان، ثبت الله تعالى ملكهُ وأعزَّ نصره، حضرني في مجلس قضائي في كورة بخارى في يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا رجلٌ ذكر أنه فلانٌ وأحضر معه رجلاً ذكر أنه يُسمى فلانًا. وإن كان القاضي يعرف المدّعي والمدّعى عليه يكتب: حضر فلان وأحضر معه فلانًا فادعى هذا الذي حضر على هذا الذي أحضره معه أنّ لهذا الذي حضر على هذا الذي (8-b) أحضره معه عشرين دينارًا نيسابورية حمراء جيدة مناصفة بوزن مثاقيل مكة دينًا لازمًا وحقًّا وواجبًا بسببٍ صحيح. وهكذا أقر هذا الذي أحضره معه في حال جواز إقراره طائعًا بجميع هذا المال المذكور مبلغه وجنسه وعدده في محضر الدعوى دينًا لازمًا لهذا المدعي الذي حضر عليه وحقًّا واجبًا بسببٍ صحيح إقرارًا صحيحًا وصدقه هذا الذي حضر بهذا الإقرار وطالبه بأداء جميع ذلك إليه وسأل مسألته عن ذلك، فسئل فأجاب، وقال: ليس عليَّ شيءٌ لهذا المدعي، فأحضر هذا المدعي نفرًا ذكر أنهم شهوده، وسأل الاستماع إليهم،

(١) حلية الرجل: صفته. مختار الصحاح: ١٥٢.

(٢) لا يعني بالفارسية كونها شرطًا في ذاتها، وإنما يعني مراعاة لغة المتداعيين توثيقًا للمحضر. وتصح أي لغة أخرى غير الفارسية.

(٣) خاقان: علم واسم لكل ملك من ملوك الترك، وكان يلقب به ملوك الصين أيضًا. انظر: الألفاظ المعربّة لأدّي شير:٥٦، المعجم التركي العربي:١٤٤/٢، والمعجم الذهبي :٢٣١. والكلمة من أصل تركي كما ذكر رفائيل نخلة (خاقان =hankan) انظر: غرائب اللغة العربية: ٢٧٣. ويطلق لفظ (فاغان) أيضًا على امبراطور الأتراك القدامى. والظاهر أنَّ خاقان هي (غافان) نفسها كما ورد في المعجم التركي المذكور آنفًا، فإذا صحَّ ذلك فالمرجح أنَّ الكلمتين من أصل مغولي هو (قاآنْ) وتعني ملك الملوك العظيم. المعجم الذهبي: ٤٣٨.

علم الوثائق والتوثيق في تراثنا الإسلامي

فأجبت إليه واستشهدت الشهود، وهم فلان بن فلان، حليته كذا ومسكنه كذا ومُصلاه مسجد كذا، وفلان ابن فلان، وحليته كذا ومسكنه كذا ومصلاه مسجد كذا... الخ فشهد هؤلاء الشهود عندي بعد ما استشهدوا عقب دعوى المُدّعي عليه هذا، والجواب بالإنكار من المدعي هذا شهادة صحيحة مستقيمة متفقة الألفاظ والمعاني من نسخة قرئت عليهم. وهذا مضمون تلك النسخة التي قرئت عليهم: أشهد... الخ، ويكتب لفظ الشهادة على نحو ما ذُكر في المحضر، فإذا فرغ من كتابة لفظ الشهادة يكتب: فأتوا بهذه الشهادة على وجهها، وساقوها على سُننها، وأشار كلُّ واحد منهم في موضع الإشارة، فسمعت شهادتهم هذه، وأثبتها في المحضر المجلّد في خريطة[1] الحكم، بعيد ذلك إن كان الشهود عُدولاً معروفين بالعدالة عنده يكتب: وقبلتُ شهادتهم لكونهم معروفين عندي بالعدالة وجواز الشهادة. وإنْ لم يكونوا معروفين عنده بالعدالة وعُدّلوا[2] بتزكية المُعدّلين يكتب: ورجعت بالتعرف عن أحوالهم إلى من إليه رسم التعديل بالتزكية بالناحية، فبعد ذلك ينظر إن عُدّلوا جميعًا يكتب: فنسبوا جميعًا إلى العدالة وجواز الشهادة، فقبلت شهادتهم لإيجاب العلم قبولها. وإن عُدّل بعضهم دون البعض يكتب: نُسب منهم إلى العدالة، وهم الأول والثاني (وعلى هذا المقياس (9-a) فافهم) فقُبلت شهادتهم لإيجاب العلم قبولها. وهذا إذا طعن المشهود عليه في الشهود؛ فإن كان لم يطعن يكتب عقب قوله - فسمعت شهادتهم وأثبتها في المحضر المُجلّد في خريطة الحكم-: ولم يطعن المشهود عليه هذا في هؤلاء الشهود، ولم يلتمس منّي التعرّف عن حالهم من المزكين بالناحية، فلم أشتغل بالتعرف عن حالهم من المزكين بالناحية، واكتفيت بظاهر عدالتهم، وقبلت شهادتهم قبول مثلها؛ لإيجاب الشرع قبولها من الوجه الذي بيّن، فيه، وثبت عندي بشهادة هؤلاء الشهود ما شهدوا به، على ما شهدوا به فأعلمت المشهود عليه هذا وأخبرته بثبوت ذلك عندي، ومكنته من إيراد الدَّفع ليورد دفعًا لهذه الدعوى إن كان له دفعٌ، فلم يأتِ بالدفع ولا المخلّص، وظهر عندي عجزه عن ذلك، ثم سألني هذا المدعي المشهود له الحكم له على هذا المشهود عليه بما ثبت عندي له في ذلك في وجه خصمه هذا المشهود عليه، وكتابة سجل له فيه، والإشهاد عليه ليكون حُجة له في ذلك، فأجبته إلى ذلك، وحكمت لهذا المدعي على هذا المدعى عليه بثبوت إقرار هذا المدعي عليه بالمال المذكور مبلغه وجنسه وصفته وعدده في هذا السجل دينًا لازمًا عليه وحقًّا واجبًا بسببٍ صحيح لهذا المدعي وتصديق هذا المدّعى عليه إياه بهذا الإقرار خطابًا على الوجه المبيّن في هذا السجل. فبعد ذلك إن كان الشهود معروفين بالعدالة يكتب عقب قوله (على الوجه المبيّن في هذا السجل): بشهادة هؤلاء الشهود معروفين بالعدالة. وإن ظهرت عدالتهم بتزكية الشهود يكتب بشهادة هؤلاء الشهود المعدّلين، وإن ظهرت عدالة البعض دون البعض يكتب: بشهادة هذين الشاهدين المعدّلين من هذه الشهود المسلمين فيه بمحضرٍ من المُدعي والمدعى عليه هذين في وجههما مشيرًا إلى كل واحد منهما في مجلس قضائي بكورة بُخارى بين الناس على

(١) أصل الخريطة: " شبه كيس يُشرح من أديم وخِرق. والجمع: خرائط" المصباح المنير:١٦٧. والظاهر أنَّ المقصود بخريطة الحكم ما يوضع فيه المحضر المجلّد من أديم ونحوه ويكون حافظًا له.

(٢) تعديل الشهود: أن تقول إنهم عدول. مختار الصحاح: ٤١٨.

سبيل التشهير والإعلان حُكمًا أبرمته وقضاء نفذته مستجمعًا شرائط الصحة (9-b) والنَّفاذ وألزمت المحكوم عليه هذا إيفاء هذا المال المذكور مبلغه وجنسه وصفته وعدده فيه إلى هذا المحكوم له، وتركت المحكوم عليه هذا وكل ذي حق وحجةٍ ودفعٍ على حجته ودفعه وحقه متى أتى به يومًا من الدهر. وأمرتُ بكتابة هذا السجل حُجةً للمحكوم له في ذلك، وأشهدت عليه حضور مجلسي من أهل العلم والعدالة والأمانة والصيانة. والكلّ في يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا. فهذه الصورة التي كتبت أصلٌ في جميع السجلات لا يتغير شيء مما فيه إلا الدعاوي فإنها كثيرة لا يُشبه بعضها بعضًا، وليس كتابة السجل إلاّ إعادة الدعوى المكتوبة في المحضر بعينها، وإعادة لفظ الشهادة عقبها. ثم بعد الفراغ من كتابة لفظ الشهادة، فجميع الشرائط في سائر السجلات على نحو ما بيّنا في هذا السجل والله تعالى أعلم.

ثم ينبغي للقاضي أن يوقّع على صدر السجل بتوقيعه المعروف، ويكتب في آخر السجل عقب التاريخ من جانب يسار السجل بقوله: فلان بن فلان كتب هذا السجل عني بأمري وجرى الحكم على ما بين فيه عندي ومنّي، والحكم المذكور فيه حُكمي وقضائي، نفذته بحجةٍ لاحت عندي، وكتبت التوقيع على الصدر، وهذه الأسطر الأربعة أو الخمسة على ما يتفق من الخط خطُّ يدي.

وقد يكتب هذا السجل على سبيل المغايبة: هذا ما شهد عليه المسمّون آخر هذا الكتاب شهدوا جملة أنه حضر مجلس القضاء بكورة كذا قبل القاضي فلان بن فلان، وهو يومئذ متول عمل القضاء والأحكام بهذه الكورة من قبل فلان، رجل ذكر أنه يُسمى فلانا، وأحضر مع نفسه رجلاً ذكر أنه يُسمى فلانًا، ويذكر الدعوى على حسب ما ذكرنا في النسخة الأولى، فإذا فرغ من ذلك يكتب: فسمع القاضي شهادتهم وأثبتها في المحضر المُجلّد في خريطة الحكم ورجع في التعرّف عن أحوالهم إلى من إليه رسم التعديل والتزكية (10-a) بالناحية إلى آخر ما ذكرنا على التفصيل الذي ذكرناه، ثم يكتب: وثبت عنده بشهادة هؤلاء الشهود ما شهدوا به على ما شهدوا به، وعرض الدعوى، ولفظ الشهادة على الأئمة الذين عليهم المدار في الفتوى بالناحية وأفتوا بصحتها وجواز القضاء بها، وأعلم المشهود عليه بثبوت ما شهدوا به على ما شهدوا به ليورد دفعًا إن كان له فلم يأت بالدفع، ولا أتى بالمخلّص، وظهر عنده عجزه عن ذلك، فالتمس المشهود له الحكم من القاضي له بما ثبت له عنده من ذلك، وكتابة ذكر له في ذلك والإشهاد عليه؛ ليكون حجة له، فاستخار القاضي هذا الله[1] تعالى وسأله العصمة عن الزيغ والزّلل والوقوع في الخطأ والخلل. وحُكم القاضي هذا المشهود له هذا بعد المسألة على المشهود عليه هذا بثبوت إقرار هذا المذكور فيه مبلغه وجنسه وصفته وعدده في هذا السجل دينًا لازمًا عليه وحقًّا واجبًا بسببٍ صحيح لهذا المشهود له، وتصديق المشهود له إياه في هذا الإقرار خطابًا على الوجه المبيّن له في هذا السجل بشهادة هؤلاء الشهود بمحضر من هذين المتخاصمين في وجههما في مجلس قضائه بين الناس في كورة كذا، حُكمًا أبرمه وقضاء نفّذه، وأمر المحكوم عليه هذا بتسليم هذا المال المذكور مبلغه وجنسه وصفته وعدده في هذا السجل إلى هذا المحكوم له، وترك المحكوم عليه وكل ذي حُجّة، ودفع على دفعه وحجته متى أتى به يومًا من الدهر، وأمر بكتابة هذا السجل والإشهاد عليه، وذلك في يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا. وهذا السجل أصلٌ أيضًا

(١) في الأصل (لله).

علم الوثائق والتوثيق في تراثنا الإسلامي

إلا أنَّ المستعمل فيما بين الناس الأول، وقد يكتب بطريق الإيجاز فيكتب: يقول القاضي فلان بن فلان المتولي لعمل القضاء والأحكام... إلى آخره... ثبت عندي أنّ الوجه الذي تثبت به الحوادث الشرعية والنوازل الحُكمية بعد دعوى صحيحة من خصم حاضر على خصم أوجب الحكم الإصغاء إلى (10-b) ذلك ببيّنة عادلة قامت عندي أو بشهادة فلان وفلان، وقد ثبت عندي عدالتهم وجواز شهادتهم أنَّ فلانًا أقرَّ أنّ لفلان عليه كذا وكذا دينارًا دينًا لازمًا وحقًّا واجبًا بسببٍ صحيح ثبوتًا أوجب الحكم به، فحكمت بمسألة المشهود له هذا على المشهود عليه هذا بجميع ما أقرّ به المشهود عليه هذا للمشهود له هذا بمحضرٍ منهما في وجهها حُكمًا أبرمته وقضاء نفذته بعد استجماع شرائط صحة الحكم وجوازه بذلك عندي في مجلس قضائي بين الناس بكورة بخارى، وكلّفت هذا المحكوم عليه قضاء هذا المال المذكور فيه، وتركته وكلَّ ذي حق وحُجّة ودفع على حقه وحُجته ودفعه متى أتي به يومًا من الدهر، وأمرت بكتابة هذا السجل حُجةً في ذلك بمسألة هذا المحكوم له، وأشهدتُ عليه حضور مجلسي وذلك في يوم كذا. انتهى. ومن أراد الوقوف على محضر إثبات الدَّفع لهذه الدعوى وبقية المحاضر فليرجع إلى (الهندية) من هذا المحلّ ففيه ما يشفي الغليل.

وهذا آخر ما أردت جمعه في هذه الورقات، وأسأل الله - تعالى - حسن الختام بمحمّد صلّى الله تعالى عليه وسلم وآله الكرام. قال المؤلف - حفظه الله تعالى - وكان الفراغ من تعليقها في عاشر شهر رمضان الذي هو من شهور سنة تسعين ومائتين وألف.

